رواية

الأمجد العثماني

حديث الوجدان

بين نهج مرسيليا وسوق البلاط

كتوباتي
kotobati

بين نهج مرسيليا وسوق البلاط

حديث الوجدان

غوص في أعماق ستينات وسبعينات القرن العشرين

الأمجد العثماني

رواية

الكتاب: حديث الوجدان .. بين نهج مرسيليا وسوق البلاط

تأليف: الأمجد العثماني

النوعية: رواية

الإصدار: 2024

التصميم والتنسيق: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

حديث الوجدان

كان صاحبنا يدرّس أولاد الأكابر من أبناء تجار المدينة وكبار رؤوس أموالها ويظهر ذلك جليا من هيئة التلاميذ ولباسهم ومحافظهم وكتبهم واهتمامهم بالدراسة والرحلات وأعياد الميلاد وأشياء كثيرة أخرى إذ كانت مدرسة نهج مرسيليا ومدرسة نهج الهند بمعية مدرسة نهج روسيا من أهم المدارس المتواجدة غير بعيد عن شارع الزعيم بورقيبة في قلب المدينة النابض.

ولكنه وإن كان يدرّس بلغة فولتار التي طوعها وأجادها واختص فيها، فقد كان يرتاد مكتبة نهج العطارين ويغوص في أعماق كتبها وكنوزها المترجمة أو المكتوبة بلغة قريش، باحثا عما كان يدور في هذه الرقعة في الأزمنة الغابرة، متشبعا بتاريخها وثقافات مختلف الحضارات والدول التي تعاقبت عليها. كان لابن خلدون موقعه المفضل كما كان للقيرواني ابن أبي دينار ومحمد الصغير بن يوسف والحاج حموده بن عبد العزيز و ابن أبي الضياف الذين أغرم بمطالعة أثارهم وتواريخ الحقب الماضية التي كانوا لها شهود عيان. كما كان لوجوده بين الطلبة في المكتبة وفي مطعم البالماريوم ثم مطعم ابن خلدون، لاحقا، ومع الشعراء والأدباء والفنانين في مقاهي المغرب وباريس والروتوند ومن سكن معه وعاشره

عن قرب، أثره من كل شيء وخاصة ثراء المناقشات الأدبية الطازجة التي كان أصدقاؤه الطلبة يستوعبونها من أساتذتهم في الجامعة التونسية، في كلية 9 أفريل، ويتناقشون حولها وهي مواضيع أدبية متنوعة جذورها في مختلف المدارس الشرقية كبدر شاكر السياب العراقي و حنّا مينا السوري ومحمود درويش الفلسطيني و أحمد زكي أبو شادي المصري و غيرهم ... ولم يلبث صاحبنا أن انخرط في الحراك السياسي ودواليبه وتتبع تاريخه و غربلة أفكاره و مذاهبه و تسجيل أثره على و اقع حياة الناس وحرية تفكيرهم وعقيدتهم... على رأي أبو العلاء المعري " كل يعزز دينه يا ليت شعري ما الصحيح ! "

وظل صديقنا، بين نهج مرسيليا وسوق البلاط، تكتب خواطره المرهفة على عارضة وجدانه في اكتشافات مضيئة له ومشبعة لتطلعاته الفكرية والثقافية وحتى السياسية منها وهو الذي تؤجج فترات تاريخ بلاده بمختلف مراحلها ما في قلبه الطري الطازج من حب لموطنه ووطنه بكل الأبعاد الإنسانية. لكنّه وقف بصفة استثنائية معمقة على ناصية عقدي الستينات والسبعينات لما فيها من ثراء أحداث الدولة الوطنية في بداية تركيزها وتأثيثها وما تطلب ذلك من مو اقف سياسية مثيرة سجلها التاريخ وأسالت حبرا كثيرا...

تقديم الشاعر محمد عمار شعابنيه
تداخل المكان والزمان في كتاب
"بين نهج مرسيليا وسوق البلاط"
حديث الوجدان
للأمجد العثماني

في المرحلة المتقدمة من العمر يحتاج كل إنسان إلى أن يبوح بأسراره ويستعرض جوانب من أحداث عاشها أو عايشها في حياته ورآها جديرة بأن يطلع عليها الناس، ويلجأ أهل الفكر والفن والأدب والسياسة والحرب وبعض المهن المؤثرة على حياة الغير أو الخادمة لهم كالطب والتربية والقضاء والطيران مثلا إلى سرد وقائعها ليؤكدوا على أنهم قد مارسوها لأجل الإسهام في توفير ظروف عيش لائقة لفئات من البشر.

وقد حصل ذلك عند نشر السّيَر الذاتية التي كانت فرنسا سبّاقة إليها بما حبّره بعض رجالاتها كالتي شرع الأديب والسياسي شاتوبريان في كتابتها سنة 1811 تحت عنوان " ما وراء القبر"

ونذكر أن كثيرين من كتاب مصر وفي مقدمتهم من زاولوا دراساتهم

العليا بفرنسا كطه حسين وتوفيق الحكيم قد تركوا لنا سيَرهم الذاتية شاهدة على مراحل بارزة من ظروف حياتهم.

وبين السيرة الذاتية والمذكرات فرق واضح يمثل، كما هو معروف، في أن الأولى تسرد قصة حياة الكاتب وتستعرض أنشطته وتحركاته بينما تركز المذكرات على التذكير بأحداث قام بها الكاتب أو عايشها في فترة زمنية معينة من حياته.

وعادة ما تكون تلك الفترة هي المحوَر الأساسي في حياة المؤلف لما لها من تأثير على بقية مراحل عيشه أو لأنها فترة عيش توّجت سنوات سبقتها من العمر.

وقد اختار الأمجد العثماني . الكاتب ورجل التربية والثقافة بالنشاط والمهنة التي امتدت لسنوات طويلة اختتمت ببلوغه سن التقاعد . أن تكون الأعوام الأولى من انخراطه في العمل هي الفضاء الأوفر لسرد ذكرياته وتأملاته و انطباعاته وملاحظاته لأجواء جديدة انخرط للعيش فيها بحكم تعيينه في بداية حياته المهنية للتدريس بمدرسة نهج مرسيليا الابتدائية التي " يدرس فيها أولاد الأكابر من أبناء تجار المدينة وكبار رؤوس أموالها ، ويظهر ذلك جليا من هيئة التلاميذ ولباسهم ومحافظهم وكتبهم واهتماماتهم بالدراسة والرحلات وأعياد الميلاد ..."

لا ينتظر القارئ من المؤلف أن يركّز حديثه على هذه المدرسة ومن يؤمها أو لقص أحداث تخصه لأنه لم يلتفت إليها .رغم عمله فيها للتدريس بلغة فولتير. إلا بفقرة صغيرة للإشارة إلى مديرتها التي قال عنها " السيدة الفاضلة كلثوم الميلي امرأة قوية صلبة ومديرة محنكة و ناجحة بما ربطته من علاقات طيبة جعلت الأجواء في المدرسة بين الزملاء والزميلات ممتعة، منسجمة ودافعة إلى تعليم تلك الأجيال بأريحية لا تنسى وود لا ينضب وضمير صادق شفاف "

فما الذي أراد الأمجد العثماني قوله من خلال تواجده لمدّة ليست بالطويلة بتونس العاصمة التي انتدب للعمل فيها في مجال التعليم الابتدائي وهو ابن القرية الهادئة التي تسير فيها الحياة رتيبة ومثقلة بمعاناة ساكنيها لأجل الوجود ؟

استنتجت بعد قراءة المخطوط:

1) أن للكاتب رغبه في ألا تمر المرحلة الأولى من حياته المهنية طي النسيان لأنها تعتبر. ربما . أثرى فترة في عمره المليء بالتجارب والأعمال وقد استطاع فيها أن يكتشف أشياء جديدة ومثيرة ويطلع على مو اقع وممارسات وتحركات و أنشطة ويربط فيها صداقات جديدة ومفيدة ويستقري فيها التاريخ والجغر افيا والعادات والتقاليد والتحركات السياسية والاجتماعية وتداعياتها السريعة والمتلاحقة..

فالمدينة التي احتضنت مساره المهني الأول هي أم المدن في بلاده وقد توفر له فيها ما لا يتوفر في غيرها من محفّزات على تعميق المعارف واكتساب الخبرات وتجديد أسلوب الحياة.

2) انبهاره بكل ما أحاط به في المدينة العاصمة وما أحاله فيها على فضاءات و أفعال لا يرغب في ألا يعرّف بها كالمعالم التي استوقفته وأسرت لبّه بمعمارها الأندلسي والتركي والعربي الإسلامي والأسواق والأنهج والحرف التقليدية والبناءات القديمة التي تنبض بسحر الماضي وكذلك المنشآت الحديثة المتمثلة فيما أضافه الاستعمار الفرنسي من أحياء راقية وشوارع واسعة وحدائق جذابة ومترفة ومسرح رائع وبعض من حضارته وتاريخه القادم معه من وراء البحار.

3) تكثيف الإشارات والأوصاف وسرد الأحداث ورصد التحركات بفطنة وإسهاب تجعل القارئ يستفيد من المعلومات المقدمة في شأنها بدقة واستناد إلى مراجع ومصادر موثوق بها وهي كثيرة، ولا أشك في أن المؤلف لم يجهد فكره وعينيه للبحث عنها وتقديمها في سياقات مترابطة ومتواترة وهي تتصل بمجالات مختلفة أحصرها في :

أ: ذكر أسباب وغايات وظروف وأوقات بناء بعض المنشآت المعمارية كالمساجد والقصور والبيوت السكنية والأسواق والأماكن الثقافية والترفيهية والدور التي تحمل أسماء أصحابها.

ب: تقديم أسباب تسميات بعض الشوارع والأنهج التي ارتبطت بوظائف وظواهر مختلفة جعلتها تتسربل بمدلولاتها " ولا يسمح تغييرها إن لم يستسغها بعض الناس لأنها تراث إنساني عميق متجدرفي أعماق المدينة العتيقة " كأنهج الكبدة والمشنقة والظلام والمحروق وصباط العجم.

ج :التطرق إلى بعض المعتقدات البالية التي يحملها بعض الناس عند توجههم إلى حوانيت وأماكن تبيع بعض الحشائش و الحشرات والزواحف التي يظن البعض وبالخصوص منهم النساء أنها تذهب السحر وتعجل بزواج العازبات والعوانس وتعالج الأمراض العسيرة الخ ...وكأن الكاتب يريد أن يثبت لنا أن التطوّر التعليمي والثقافي والسياسي والمعماري والمعيشي لم يؤثر على بعض سكان العاصمة للتخلص من الأوهام التي لا تتماشى ومتطلبات الحياة العصرية

د: الإحالة على المكتبات ودورالثقافة والفرق المسرحية والحركة الأدبية النشيطة واستعراض بعض منجزاتها وتقديم شواهد كتابية حول مضامينها وتوجهاتها الجديدة .

هـ: تقصي الأحداث السياسية البارزة في البلاد منذ سنوات استقلالها كمقتل الزعيم صالح بن يوسف والأحكام الصادرة ضد

الأزهر الشرايطي وجماعته وتجربة التعاضد والحركات الطلابية وممارسات بورقيبة وحزبه ومعركة الجلاء ببنزرت و انتفاضات الاتحاد العام التونسي للشغل وأحداث 26 جانفي 1978.

هذا دون التغافل عن استعراض تجارب الوحدة والاندماج الكونفدرالي بين تونس وليبيا، ومصر وسوريا، والعراق والأردن، وليبيا والمغرب، وغيرها، وقد تبخرت جميعها لأنها تفتقر إلى قواعد الاندماج الصلب والاستراتيجي والموضوعي.

ولم يغفل صديقنا عن التعريج عن العلاقات المتينة التي ربطته بالشاعر عبد الحميد خريف والعم عمر بائع الجرائد ونادل المقهى وزميله في السكن وجميعهم ممن جاؤوا إلى العاصمة من خارجها فتأثروا بها و أثروا فيها.

لقد أثبتت لي القراءة أن صديقي الأمجد العثماني قد وفق في الربط بين المكان والزمان في هذا المخطوط رغم تواتر الحقب التاريخية وتعدد المكوّنات المدنية، إلى درجة شعوري بتداخل الظرفين تداخلا يصعب حصوله في غير تلك المدينة، وكأنما أراد أن يقول لقرائه إن مكان تونس هو زمانها وزمانها هو مكانها.

و أثير في نهاية هذا العرض السريع إلى اعتبار الأمجد العثماني قد سجّل في ثنايا " حديث الوجدان " رحلة بطوطية قصيرة المسافة

وسريعة ومحدودة الزمن لكنها كثيفة المشاهدات والتأملات والمسك الصحيح بخيوط الأحداث، لذلك برزت لي من خلال قراءة المخطوط مرّتين. وهو كتابة متماسكة غير موزعة على نصوص أو فقرات . عدة استنتاجات وملاحظات ومقترحات أسوقها في ما يلي :

1. يعتبر " حديث الوجدان" وثيقة هامة للتعريف بجوانب مضيئة من مدينة تونس منذ تأسيسها إلى العصر الحالي الذي كثّف فيها التحركات المختلفة ، وأؤكد على أن سكان هذه البلاد وربما الأغلبية العظمى من سكان العاصمة المتجذرين فيها بالإقامة والانتساب يجهلون عن مدينتهم الكثير مما سرده الكاتب الذي أقام فيها مدة قصيرة للعمل.

2. أرى أن جمعية صيانة مدينة العاصمة وبلديتها مطالبتين باقتناء مجموعات هامة من الكتاب بعد نشره ليظل مرجعا فيما يتعلق ببعض الجزئيات التي ذكرها الكاتب عن الحاضرة.

3 . أعتقد أن وزارة السياحة والصناعات التقليدية مطالبة بأن تعزز مكتبة إشهارها بهذا التأليف وإمكانية ترجمته إلى لغات أخرى ليكون دليلا للسياح وبالخصوص منهم الذين يرغبون في معرفة ماضي

وحاضر العاصمة لا من الناحية التاريخية والأركيولوجيا فحسب بل كذلك من الناحيتين الأنتروبولوجية والسياسية والاجتماعية.

بقلم: محمد عمار شعابنية

حديث الوجدان

وهو يتأبط محفظته خارجا من أحد الأنهج المحاذية لسوق البلاط، حيث يسكن هو وصديقه الطالب، في طريقه إلى مدرسته بنهج مرسيليا عبر نهج جامع الزيتونة، كانت تعتمل بداخله أفكار متناغمة، متطابقة ومتنافرة أحيانا حول تجذر المدينة أو "البلاد العربي" في أعماق التاريخ وحول مكوناتها قبل أن يضيف لها الاستعمار أحياءه الر اقية وشوارعه الواسعة وحدائقه الجذابة المترفة ومسرحه الر ائع وفضاءاته الثقافية وأسماءه اللامعة وبعضا من حضارته وتاريخه القادم معه من وراء البحار.

كان يمر بشوارعها و أنهجها وأزقتها فتدغدغ خياشيمه رو ائحها العطرة وعبق تاريخها المعتق فيمشي رويدا رويدا ليملأ رئتيه بهذا الهواء المشحون بما يبثه سوق العطارين من رو ائح ويملأ عقله وقلبه وعينيه بما يشاهده من بقايا هنا وهناك من بصمات خالدة لتاريخ مجيد أخذ زمنه ووقته وبقي شامخا للأوقات والأزمنة الأخرى...

كان المشوار مشيا على الأقدام عبر نهج جامع الزيتونة المزدحم دائما مرورا بباب بحر العصري الواسع، حيث القوس الشامخ، من بقايا آثار بني الأغلب، يحتسي قهوته في مقهى المغرب، قرب مكتبة النجاح قبالة

الأقواس، هذه المقهى التي لم يعد لها أثر منذ التسعينات ثم يمرّ أمام الكنيسة الشاهقة ومنها إلى الكوليزاي العصري على المنوال الأوروبي. ولم يكن النصب التذكاري لابن خلدون قد حل بالمكان بعد ولا تمثال الزعيم بورقيبة قد قدم من حلق الوادي ولا النزل منتصبا كما هو الآن. يسلم على بائع الصحف في بهو البناية ثم يمر أمام مقهى "الروتوند" وضجيجه ومتعة الجلوس فيه، ومنها يسارا إلى نهج مرسيليا الجميل جمال الشارع الطويل حيث المدرسة والمعهد وكثير من المنشآت والمؤسسات وعمارات السكنى أوروبية المعمار.

وخلال هذه الفسحة الزمنية القصيرة كان صديقنا الخارج لتوه، في صيف ذلك العام، من أسوار المبيتات حيث قضى ثلث عمره هناك، ينظر يمنة ويسرة إلى مختلف البناءات، معجبا بمختلف مدارسها العمرانية، الفرنسية والايطالية والعربية الاسلامية، خاصّة، مأخوذا، مشدوها بعظمة الكاتدرائية و أقواس باب بحر وحتى بذلك الإسفلت اللزج لأنهج المدينة العتيقة وأزقتها. كانت تتعايش بداخله كل الفنون بأنواعها ومدارسها وألوانها، كانت تتصارع في جيناته ودمائه وتدفع به أحيانا إلى أروقة الفنون المتواجدة بالشارع الرئيسي قرب وزارة الإعلام آنذاك حيث كان يلتقي بصديقه الشاعر عبد الحميد خريف بين حين و آخر، كما تدفع به إلى ارتياد دور الثقافة و مراكزها المتواجدة بالمكان،

في جنوب الشارع الكبير و شماله... ولم يكن صديقنا مبهوتا فقط بل مأخوذا و مدهوشا بما بدأ يكتشفه وهو خارج أسوار المبيت الذي أخذ سنوات من عمره في إحدى مدن السباسب العليا دون أن يشفي غليله وكأنما الأقدار كافأته على صبره وجلده فأرسلته إلى قلب العاصمة كهدية ربانية...

كان يدرّس أولاد الأكابر من أبناء تجار المدينة وكبار رؤوس أموالها ويظهر ذلك جليا من هيئة التلاميذ ولباسهم ومحافظهم وكتبهم واهتماماتهم بالدراسة والرحلات وأعياد الميلاد وأشياء أخرى كثيرة لا تتوفر لغيرهم. إذ كانت مدرسة نهج مرسيليا بمعية مدرسة نهج روسيا ومدرسة نهج الهند من أهم المدارس المتواجدة غير بعيد عن شارع الزعيم بورقيبة والثقل الر ابض في قلب المدينة النابض. كان يدرّس صباحا ويدرس بعد الظهر. كانت مديرة المدرسة السيدة الفاضلة كلثوم الميلي امرأة قوية صلبة ومديرة محنّكة وناجحة بما ربطته من علاقات طيبة جعلت الأجواء بين الزملاء والزميلات ممتعة، منسجمة ودافعة إلى تعليم تلك الأجيال بأريحية لا تنسى وود لا ينضب وضمير صادق شفاف، لا كالضمائر الظاهرة والمستترة، المعروفة لدى الكثيرين، الملتوية والمتلونة والمشبوهة. كان يفترض أن يكون صاحبنا في تلك السنة بالمعهد الأعلى لعلوم التربية ولكن بسقوط أحمد بن صالح وسياساته سقطت كل

اختياراته وتوجهاته وثقله وقوّته وزالت الأسباب التي جعلت صديقنا يختار شعبة علوم التربية ولم يستطع أن يكمل مرحلة التعليم العالي بدار المعلمين العليا وذهب الجمل بما حمل كما يقال وذهبت معها أحلام وأمنيات كثيرة بينما التحق زملاؤه ورفاقه من تلامذة الشعبة الفنية بالاتحاد السوفياتي للتخصص في هندسة البترول ومشتقاته... رضي بما كتب له ونظر أمامه متناسيا ما وراءه وتلك الفترة ومطباتها السياسية ولكنه وإن كان يدرّس بلغة فولتار التي طوّعها واختصّ فيها، فقد كان يرتاد مكتبة العطارين المتواجدة قرب السوق المعروف باسمها، في مقر ثكنة إنكشارية قديمة، ويغوص في أعماق كتبها وكنوزها المترجمة أو المكتوبة بلغة قريش، باحثا عما كان يدور في هذه الرقعة في الأزمنة الغابرة، متشبعا بتاريخها وأمجادها وثقافات مختلف الحضارات والدول التي تعاقبت عليها. كان لابن خلدون موقعه المفضل كما كان للقيرواني ابن أبي دينار ومحمد الصغير بن يوسف والحاج حموده بن عبد العزيز وابن أبي الضياف الذين أغرم بمطالعة أثارهم وتواريخ الحقب الماضية التي كانوا لها شهود عيان. كما كان لوجوده بين أفواج الطلبة في المكتبة الوطنية وفي مطعم البالماريوم في بداية شارع قرطاج ثم مطعم ابن خلدون، لاحقا، وفي المقاهي والمدرجات ومن سكن معه أثره من ثراء المناقشات الأدبية الطازجة التي كان هؤلاء الطلبة

يستوعبونها من أساتذتهم في الجامعة التونسية، في كلية 9 أفريل بالذات، ويتناقشون حولها و هي مواضيع أدبية متنوعة جذورها في مختلف المدارس الشرقية كبدر شاكر السياب العراقي و حنّا مينا السوري ومحمود درويش الفلسطيني و أحمد زكي أبو شادي المصري وغيرهم من الشعراء والكتاب و الأدباء المنتمين للشرق بلا استثناء...

لم يكن بقريته إلا مسجدا يتيما وحيدا، ليست له جذور قديمة و على قدر أهل العزم تأتي العزائم، ولم يكن في المدينة التي درس بها مساجد كثيرة تذكر وتنهل من المعمار القديم ولا يعرف من هذه المساجد إلا مساجد القيروان التاريخية العتيقة التي كان والده يحدثه عنها كلما زار أخواله ورآها هو فيما بعد مارا بالمدينة كمسجد عقبة ومقام الصحابي أبي زمعة البلوي ومقام سيدي عمر عباده وجامع الأبواب الثلاثة وغيرها أو مساجد مدينة سوسة التي كان يقضي بها عطلته كل صيف ويتجول في أرجائها و أرجاء مدينة المنستير، منقبا و مكتشفا وباحثا عن أشياء مفقودة في جهته و لم يرها في محيطه قط كالجامع الكبير ومسجد بورقيبه المثير..

في العاصمة استوقفته هذه المعالم وأسرت لبه بمعمارها الأندلسي والتركي والعربي الإسلامي وهو الذي يعشق الجمال والجمالية وقيمها في كل شيء يشد نفسه ويأخذ بمجامع عقله وقلبه. فكان غير بعيد عن مقر

سكناه في سوق البلاط جامع الزيتونة المعمور الذي أمر ببنائه حسان بن النعمان في أواخر القرن السابع الميلادي وجامع القصبة الذي بني في العهد الحفصي في القرن الثالث عشر وجامع حموده باشا وهو يحمل اسم صاحبه وعهده وجامع الصباغين الذي أمر ببنائه الحسين بن علي في بداية القرن الثامن عشر وتزامن مع حربه ضد ابن أخيه فيما عرف بالحرب الأهلية ثم جامع صاحب الطابع وهو المعلم الوحيد الذي لم يأمر حاكم أو باي ببنائه بل بناه الوزير صاحب الطابع وخلد به اسمه. هنالك الكثير من المساجد الأخرى كمسجد الإشبيلي قرب سوق البلاط ومسجد القبة في تربة الباي وقد درس فيه العلامة عبد الرحمان بن خلدون والجامع الجديد في نهج الصباغين ومسجد القصر في حي باب المنارة وغيرها ولكن تلك أشهرها رسخت بذاكرته ومخيلته ونالت إعجابه واستحسانه فلكل منها تاريخ معين ومعمار مميز ومرحلة زمانية بذاتها وخلفياتها وهي معالم لها شهرتها وقيمتها ومدلولاتها التاريخية العميقة.

"صنفت المدينة العتيقة في تونس العاصمة منذ عام 1979 لدى منظمة اليونيسكو بصفتها تراثا ثقافيا للإنسانية. فهي حافظت على طابعها الحضاري منذ تأسيسها عام 698 ميلادية حول جامع الزيتونة. وتحوي المدينة العديد من المساجد والأسواق والمقامات والقصور والبيوت

والمدارس التي تروي لزائريها قصة مدينة يعود تاريخها إلى ما قبل ثلاثة عشر قرنا. هنا لهذه المعالم والقصور ذاكرة لا تنطفئ، تفوح منها عطور المغرب القديم الذي سحر كل من مر من هذه المنطقة" تكتب روعه قاسم.

وإن كان صديقنا يدرّس في المنطقة العصرية خارج أسوار المدينة بأبهتها وجمالها و مغازاتها ومطاعمها ومقاهيها ومسرحها الشهير وحدائقها الغناء فإنه كان مجذوبا لداخل الأسوار حيث تربض المدينة العتيقة بكلكلها بتربة باياتها، بنهج الباشا ونهج القرانه ونهج الصباغين ونهج دار الجلد ونهج سيدي بن عروس ونهج لاغه ونهج الكبده ونهج عنق الجمل ونهج سيدي سريدك ونهج المشنقة ونهج الجرابه والحفصية وباب سويقه والحلفاوين وباب جديد ونهج الجزيرة وباب الخضراء وكلها أسماء تاريخية ثمينة والقانون لا يسمح بتغييرها إن لم يستسغها بعض الناس لأنها تراث إنساني عميق متجذر في أعماق المدينة العتيقة.

كذلك دار حسين ودار الأصرم ودار رمضان باي والمدرسة الشماعية والمدرسة المرادية والمدرسة السليمانية والمدرسة الباشية كتراث خالد... وهي تختزل فترات تاريخية متجذرة في أعماق المدينة وتزيدها جمالا وبهرجة وأبهة وعمقا... وأهل المدينة من "البلدية" يتجذرون فيها

وفي الصناعة والتجارة والعلوم والأعمال وما لزم من سياسة وكياسة لرخاء حياتهم وتواصل حلقاتها...

"إنّ المتجوّل في شوارع وأزقة مدينة تونس العتيقة يكتشف أسماءً غريبة وطريفة لها، وأحياناً مستهجنة ومنافية للذوق السليم على غرار شوارع تحمل أسماء «المشنقة» أو «الظلام» أو «الكبدة» أو «المحروق» أو «صبّاط العجم»، و «الصباطّ في اللهجة التونسيّة هو الحذاء». تكتب مجلة سيدتي.[1]

ويسمّى الشارع غير الرئيسي بـ«النهج»، وهناك مثلاً نهج «عنق الجمل»، و«نهج السيّدة الشبعانة»، ونهج «العرّاك» و«زنقة الهرج» و«نهج العسل» و«زنقة الحرب» وغيرها، وقد تقدّم بعض سكّان هذه الشوارع بعرائض لبلديّة تونس العاصمة؛ لاستبدال أسماء بعض الشوارع، وانزعاجهم من إجبارية تسجيل هذه الأسماء الغريبة والمضحكة على بطاقات هويّتهم الرسميّة باعتبارها عناوين لمقرّات إقامتهم، وقالت ابتسام -وهي شابّة جميلة- إنها تخجل وتتضايق من اسم الشارع الذي تسكن به مع عائلتها وهو «نهج المشنقة»، وتضيف مبتسمة: «أرجو أن لا يتمّ التنصيص على عنواني في عقد زواجي الذي سأوقّع عليه قريبا». تضيف مجلة سيدتي.

[1] https://www.sayidaty.ne 2014/01/12

وترفض البلديّة استبدال هذه الأسماء، وهي متمسّكة بضرورة المحافظة عليها بحجّة أن تلك الأسماء القديمة تحمل دلالات تاريخية، وأنها إرث ثقافي وحضاري تماماً كالتراث الهندسي والمعماري، فنهج «المشنقة» مثلاً يحمل هذا الاسم اعتباراً؛ لأنه كانت توجد في هذا الشارع في القرن السابع عشر معصرة زيت مهجورة؛ اتخذتها السلطات في ذلك العهد لوضع المشنقة بها بعد تنفيذ أحكام الإعدام، التي كانت تقام في ذلك الزمان علناً، وفي الساحات العامّة، كما توجد في مدينة تونس العتيقة «زنقة القلش»، والقلش هو نوع من السيوف برع الحدّادون في ذلك الشارع في صنعه.

أمّا شارع «عنق الجمل» فاسمه مطابق لطوله والتوائه، وقد قبلت البلديّة في وقت سابق باستبدال اسم شارع يحمل اسم «الحلّوف» -وهو في اللهجة التونسية يعني الخنزير- وكان الفرنسيون زمان الاستعمار يبيعون الخنازير بهذا الشارع. وبعض أسماء الشوارع مرتبطة بقصص شعبيّة وحكايات ضاربة في القدم. تضيف المجلة.

والملاحظ أنّ اللوحات الزرقاء المكتوبة عليها أسماء هذه الشوارع تمّ جلبها من فرنسا في السنوات الأولى للاستعمار الفرنسي لتونس، وتم وضعها منذ عام 1885." وهي تؤرخ لتلك الفترات وما قبلها ثم أرخت لما بعدها حتى أن بعض أسمائها غريبة عجيبة وكتبت بلغة ركيكة...

عشق صديقنا التاريخ ونبشه منذ نعومة أظفاره، منذ كان والده يقص عليه تلك القصص الأسطورية المتوارثة والمألوفة والتي تكاد تكتسب قداسة من كثرة ما أحيط بها من هالة أبطالها وقوتهم وقدرتهم وتقمص لتاريخ مثير وقصص شعبية تنبع من أعماق القرون الوسطى، فيها من البطولة وعزة النفس ما لا يستهان به. ومنذ سنو اته الأولى في المدرسة كان يمر كل يوم سوق إلى حلقة الحكو اتي الذي يتخذ دائما ركنا استر اتيجيا في مفترق الشوارع ومازال صوته الرقيق الذي يخشوشن شيئا فشيئا تبعا لمراحل القصة وتكوّن عقدها يرن في أذنيه وهو مشدوه مع جملة المشدوهين فينهل ما شاء له من خيال منمق وحركات مثيرة وقصص تروى من أعماق الدياجير لأناس نزلوا من أريافهم للتسوق واشتراء الملح والشاي والوقيد وعلب النفه وبعض الخضر. بعضهم باع حيو انا أليفا وبعضهم الآخر باع ما اقتلعه من حلفاء وما جمعه من حطب والقليل منهم باعوا حبوبا وزيتا وثمرا وغلالا. وها هو اليوم يقف مبهوتا ومشدوها أمام تاريخ آخر يفرض نفسه ويقرأ ويشاهد بالعين المجرّدة...

كان الحكو اتي بما منحه الله من ذكاء لا يتورع عن ابتزازهم كلما أحس بهم فاغري الأفواه تنم أعينهم عن حالة من الارتخاء و الاندهاش والانتشاء و خمدت فيها عقولهم وتاهوا في متاهات صحاري أبي زيد

الهلالي فيمد لهم مظلته التي لا تفارقه حتى في "الليالي البيض" محرجا إياهم بما له من تجربة في علم النفس التطبيقي على وضع ملاليمهم القليلة داخلها وعندما يكتمل النصاب ويضع النقود من يضع ويذهب من استحى ويدير ظهره من أدار يواصل قصته بمزيد من الأريحية والانفراج إلى أن يصفق الجميع ويكبر بعضهم و يهلل وكأنهم انتصروا في معركة و انصهروا في أخرى خيالية دونها بيد وراء بيد... هذا التكبير والتصفيق يستفيق إثره بعضهم فيذهب "الجافل و يأتي الغافل" ويستمر الحكواتي في " ترييشهم" واحدا بعد الآخر ومظلته تدور على الجمهور الحاضر كلما استدارت الدائرة وحبكت الحبكة وفرضت العقدة نفسها...

هنا أيضا، في العاصمة وفي المدينة العتيقة، تشتهر الحلفاوين بهم خاصة في ليالي شهر رمضان المعظم كما تشتهر باب سويقه بأجوائها العطرة وسهراتها المميزة في هدا الشهر ويتقاطر الناس عليها من كل حي عتيق...

شتاء العاصمة ممطر، قارس له نزواته فلا تعرف متى تشمس ومتى تمطر ومتى يشتد صقيعها ومتى يعتدل جوّها فهو الآخر يلعب مع المتساكنين لعبة الحكواتي والمنصتين له غير أنه لا يمد مظلته بل يمدها من في الشارع فهي تلازمه في هذا الفصل ملازمة بطاقة التعريف وإن

صادف ونسيها تصيبه الحيرة ويمضي يومه في النظر إلى السماء والابتهال إلى خالقه وملاحظة الأحوال الجوية بكل دقة وانتباه كلما عنّ له سحاب أسود أو أبيض خفيف أو هبوب رياح أو ضباب كثيف.

في قرية صديقنا القابعة في أسفل الهضاب، وسط البلاد، كانت تقام لوليه الصالح الزردة والولائم وتوقد الشموع وكان لكل فريق شيخه ووليه. لكن أولياء قريته لم يصلوا في علو الهمة والشأن ولم يبلغ صيتهم الآفاق كما ما وجد عليه أهل الحاضرة في تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم إذ لهم من الأولياء من مازال يتحدث عن صيتهم وكراماتهم التاريخ والشيوخ والكتب بكثير من التقدير والإجلال فها هو سيدي محرز في باب سويقه قلب المدينة العتيقة وهو الذي ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق وقد أطردهم الخليفة أبو العباس من مكة المكرمة فالتجأوا إلى تونس وهو من مواليد أواسط القرن العاشر الميلادي بأريانة. كان عالما ورجلا صالحا حمى اليهود والنصارى ودافع عن كل مظلوم التجأ إليه في مجلسه بجامع الزيتونة. كان يمنع على اليهود، في ذلك الوقت، البقاء داخل أسوار المدينة والمبيت فيها فيخرجون كل مساء إلى منطقة الملاسين فآواهم قرب جامعه وأحدث لهم حارة سميت باسمهم وسمي لكل هذا بسلطان المدينة. و أبو الحسن الشاذلي القادم من المغرب ويعتقد مريدوه في انتسابه إلى علي بن أبي طالب وقد ولد في أواخر القرن

الثاني عشر للميلاد وقد يكون تتلمذ على يدي أبي سعيد الباجي وتتلمذت على يديه السيدة عائشة المنوبية. ثم سيدي بن عروس وهو من مواليد أواخر القرن الرابع عشر، أما الولي سيدي ابراهيم الرياحي فهو من مواليد أواخر القرن الثامن عشر بمدينة تستور. اشتهروا بعلمهم ونسبت لهم كرامات ومقالات اختلط فيها الواقع بالأسطورة ومازال ذكرهم على أفواه سكان المدينة وقد اعتنى البايات كثيرا بمراقدهم لتعلقهم بكل ولي صالح أو من يقال له ولي صالح...

يقول صديقه ابراهيم الفريضي: " "عن مقولة الهدا يا بن عروس"

حالة من الفوضى والمجاعة وتدهور الاخلاق عمّت أحياء تونس الحاضرة، في فترة معينة من حكم الحفصيين، مما دعا بالولي الصالح المتصوف سيدنا احمد بن عروس إلى أن يصعد الى مئذنة الجامع في نوبة غضب ويبتهل إلى الله ان يلقي بهذا البلد واهله في اليمّ،

وإذا بالمدينة تغوص شيئا فشيئا في البحر والهلع يصيب الأهالي الذين تجمعوا أمام الجامع مرددين دعوة: " الهداوة يا بن عروس.. الهدا يا بن عروس " إلى أن هدأ باله ونزل من أعلى المئذنة وعادت مياه البحر إلى وضعها الطبيعي..

ومن هنا توارثنا في تونس إطلاق عبارة "الهدا يا بن عروس.. " ...كلما هاج أولو الأمر فينا وماجوا..

وهو ينبش في تراث المدينة التي حملته الأقدار إليها وفي ارثها المادي واللامادي تراءت له حقيقة هذه اللهجة الدارجة "البلدية" الجميلة ترشح بسبع لغات في مكوناتها الأساسية من العربية والبربرية والتركية واليونانية والايطالية والفرنسية والاسبانية نظرا لهذا التمازج الذي شهدته خلال مراحل حياتها فأصبحت مصدرا لثرائها وحلاوتها وجمال النطق بها. و انتعش وهو يكتشف حقبات تاريخها و أثارها خاصة من مؤرخي العصور الحديثة لقرون 17 و18 و19 ومخطوطات مؤرخي المدينة. فاللغة المتعامل معها والمستعملة رسميا هي اللغة العربية والمتكلم بها لدى عامة السكان هي ما عرفت بتسميتها باللهجة الدارجة هذه المزخرفة بكلمات شتى من سبع لغات تنطق القاف فيها في المدن الساحلية لدى البلدية وتنطق "الڤاء" في المدن والقرى والمداشر والأرياف الداخلية. وهناك أقطاب أجادوا هذه اللهجة كعبد العزيز العروي وعبد القادر مقداد كل في مجاله وعرفوا بها عبر الإذاعة والمسرحيات والمسامرات التي تذاع عبرها كمسامرات العروي وأحاديثه ومسرحيات حمه الجريدي وعمار بالزور والبرني والعطراء وفيران الداموس...

قرب مدرجات المسرح البلدي توقفت سيارة عسكرية ففر أغلب من كان بها كما يفر الحمام في ساحات الشارع الطويل من الر ائحين والغاديين.

قد تكون حملة من هذه الحملات العادية أو تلك التي تحدث فجأة في أي مكان وزمان بحثا عمن لم يقم بالخدمة العسكرية. كان هذا "الر افل" رغم بعض محاسنه، يرعب الكثيرين ويسبب لهم مرضا مزمنا تصعب معالجته وأزمات نفسية تعيش معهم لسنوات. كلمة "ر افل... ر افل" تطير العقل وتشل من جاء من بعيد بحثا عن العمل، عن قوته وقوت من تركهم وراءه هذا الذي يطلق عليه بعض أهل المدينة هناك في بلدته وريفه "قعر" ويطلق عليه هنا بينهم "نزوح" وإن هاجر إلى ما وراء الحدود "مازقري".. فحتى الألقاب التي منحوها له فيها الكثير من الدونية والحيف والاحتقار ناهيك عن التتبعات إن صادف وتشبث بحقه... حتى وإن عاد بسيارة فارهة بعرق جبينه من الخارج FCRإلا وقالوا نكاية فيه "فد كرّزروح أو finalement le con est revenu "

لم يمر هذا الحدث دون أن يتذكر ذلك اليوم الذي نقش في أعماقه وهو في قريته صحبة ابن خاله وقد عادا للتو من مدينة السباسب العليا في عطلة من هذه العطل الجميلة الر ائعة بعد عذاب الأسر داخل أسوار المعهد فإذا بهما أمام اجتماع عام في ساحة البلدة يشرف عليه مسؤول من هؤلاء الذين لا يجوز الكلام بقربهم ولا حتى تدقيق النظر فيهم وكأنهم قادمون من كوكب آخر أو من جنات عدن تسكنهم النباهة وتعلوهم

هالة القداسة وعلينا بالتصفيق والسمع والطاعة لإكسابهم المزيد من المناعة...

يذكر أنه همس لابن خاله: "مازال هؤلاء يصفقون لكل من يأتيهم من بعيد ويقول لهم كلاما معسولا لا يفهمون منه شيئا." ضحك ابن خاله وعلق: " تلك هي حالهم منذ قرون وسيبقون هكذا تبّعا لا تقام لهم قائمة." وضحكا ضحك طفلين معا ولم يشعرا إلا بهذا الرجل القوي العملاق المختفي في "قشابيته" الداكنة ولباسه المدني، متجهما حانقا، يمسك كل منهما من كتفه ويهمس: "انسحبا أمامي إلى مركز الحرس." أصابتهما الدهشة وتجمدت الدماء في عروقهما وتشتت الكلام بل غاب في الأعماق مع ما كان يردده العون نحوهما من اتهامات تذهب بهما إلى الجحيم أو وراء الشمس كما كان يقول وليس لهما أي اختيار ولا حول لهما ولا قوة. كان الشرر يتطاير من عينيه ويرفض الكلام معهما وكأنه وجدهما في منزله يفتحان خزانة أدباشه أو يتقاسمان مدخرات عمله. في المركز، يتذكر ذلك بوضوح تام، وكأنه بالأمس، ألقي بكل منهما في زنزانة فردية في بحر من الأفكار السوداء والهواجس القاتلة، تتلاطم أمواجه وتتكسر على صخور الجحيم الأحمر. خيالات مبهمة تتجاذبهما من كلّ ركن، لم تفتح لهما الأبواب إلا بعد ست ساعات من الألم النفسي الشديد والعذاب المرهق. وبعد انتهاء الاجتماع وبعد أن أكل

الضيف "الكسكسي والمسلان" وشرب اللبن الطازج بزبدته وتحمد وتشكر، كعادة المسؤولين القادمين إلى هناك، وأخذ طريق العودة إلى مكمنه. وبعد أن قدم والداهما من منزليهما بعد أن وصل لهما الخبر اليقين وتمّ إمضاء التزام ربطهما طوال حياتهما على عدم مغبة التواجد في ساحات السياسة ومتاهاتها أو التفكير في النقد أو الانتقاد لمسؤول أو وضع من الأوضاع... وشم أبدي، نقش على عارضة وجدانه ولن يمحي... يتذكر هذه الحادثة كلما شاهد مثلها أو حملة من هذه الحملات المسعورة الكثيرة. سكنت في أعماقه ولازمته كمرض عضال مزمن طوال سنوات. ومنذ ذلك الحين قرر أن يهتم بهذا الشأن، الذي يخيف الحاكم ويهدد وجوده ويرعبه حد التشريد والسجن والتعذيب، ويقتحم أسواره الشاهقة الخطيرة ويطلع على أسراره، هذا الذي تخيفه كلمة حق قيلت لحق... في العاصمة وفي السبعينات وجد المجال فتتبعه...

يقول الشيخ محمد الغزالي: "أنا لا أخشى على الإنسان الذي يفكّر لأنه سيعود إلى الحقّ وإن ضلّ، ولكنّي أخشى على الإنسان الذي لا يفكّر وإن اهتدى، لأنّه سيكون كالقشّة في مهب الريح." هذا ما كان يؤمن به. وهو بهذا كان يعتمد على تفكيره والعقل الذي خلقه الله له ويميز به الغث من السمين والحق من الباطل والشريف من الحقير ويحتقر الإمّعة وأمثاله...

وغاص صديقنا في أعماق الستينات والسبعينات معتمدا على ما توفر لديه من مراجع ورقية أو الكترونية، حتى لا يعتمد فقط على ذاكرته المنهكة المكدودة في مثل هذه الأحداث التي تتطلب الدقة، لإبراز مكانة تلك الفترة لمن لم يعشها أو لم يقرأ عنها... ففي الستينات والسبعينات محطات رئيسية بسلبياتها و ايجابياتها لبناء قاعدة قوية ترتكز عليها تونس الحرة المستقلة، تونس الثمانينات والتسعينات وما بعدها... كتب عنها الكثير...

في الستينات

" سعى بورقيبة[2] عام 1961 إلى إجبار فرنسا على إجلاء ما تبقى من قواتها من البلاد إلا أن استراتيجية الضغط المباشر عبر محاصرتها ادّى إلى رد عسكري فرنسي عنيف في بنزرت تسبب في مقتل المئات من المدنيين، ولم تخلي باريس آخر جنودها من تونس إلا في 15 أكتوبر 1963 بعد سلسلة من المباحثات الديبلوماسية. في خضم ذلك اغتيل في أوت 1961 صالح بن يوسف في ألمانيا بتدبير مباشر من وزارة الداخلية التونسية، وفي ديسمبر1962 كشف عن محاولة

[2] ويكيبيديا الموسوعة الحرة

انقلابية تورطت فيها مجموعة من العسكريين والمدنيين قدموا للقضاء العسكري وحكم على اغلبهم بالإعدام. ادت المحاولة الفاشلة إلى حظر الحزب الشيوعي التونسي وحلّ ما تبقى من الحزب الدستوري القديم واصبحت المعارضة تقتصر في الستينات على بعض الشخصيات في الخارج وبعض التنظيمات اليسارية والقومية الصغيرة. في الجانب الاقتصادي سببت مغادرة المعمّرين الفرنسيين وخروج رؤوس الأموال من البلاد وضعف الاستثمار الخاص إلى تحقيق مؤشرات دون المأمول عجلت بإقناع الرئيس بورقيبة ضرورة تغيير التوجه التنموي ليعلن الحزب في 23 مارس 1962 تبنيه الاشتراكية وفي أكتوبر1964 اعلن عن تغيير اسمه إلى الحزب الاشتراكي الدستوري وعهدت مهمة تنفيذ البرنامج الاشتراكي لأحمد بن صالح الذي اسندت له ما لا يقل عن 6 حقائب وزارية. سعى بن صالح إلى تطبيق نظام تعاضدي أولا في القطاع الفلاحي ثم في القطاع التجاري إلا أن التجربة ما لبثت أن باءت بالفشل مع تراكم الديون والعجز المالي لمشاريع التعاضديات الناشئة. رغم التطور الذي زامن تلك الفترة في قطاعات اخرى كالتعليم والصحة والبنية التحتية والتنظيم العائلي سبب فشل تجربة التعاضد وتدهور المستوى المعيشي وغضب المالكين إلى إضعاف الحكومة التي غيرت تركيبتها عام 1969 بإحداث وزارة أولى شغلها لأقل

من عام الباهي الأدغم قبل أن يترك مكانه للهادي نويرة الذي نجح على رأس البنك المركزي فيما ألقي القبض على بن صالح وحكم عليه بالسجن.

في السبعينات

نجحت حكومة الهادي نويرة في النهوض بالاقتصاد بفضل جملة من الإجراء ات ذات الطابع الليبرالي من اهمها قانون أفريل 1972 الداعم للمؤسسات المصدرة لتبلغ نسبة النمو مالا يقل عن 12% سنة 1972. حزبيا تكتلت حول الوزير أحمد المستيري مجموعة نادت بتحرير النظام السياسي واستطاعت بكسب الأغلبية أثناء مؤتمر الحزب الاشتراكي الدستوري إلا أن بورقيبة رفض نتائجه ونظم مؤتمر ثان عام 1974 وقع فيه رفت عدد منهم فيما استقال آخرون. في جانفي 1974 فجر بورقيبة مفاجأة مدوية بإمضائه على وثيقة إعلان وحدة تونس وليبيا لكن سرعان ما تراجع عنها مما أدّى إلى توتر علاقته بالقذافي .وفي عام 1975 وقع تغيير الدستور لتمكين بورقيبة من الرئاسة مدى الحياة فيما أصبح الوزير الأول هو خليفته الدستوري. في النصف الثاني من السبعينات وفي ظل تدهور عرضي لصحة الزعيم بورقيبة برز إضافة للهادي نويرة وزير الدفاع عبد الله فرحات ومدير الحزب محمد

الصيّاح كرجال الحكم الأقوياء في مقابل شق ضم الحبيب عاشور أمين عام الاتحاد العام التونسي للشغل ووسيلة بورقيبة وبعض الوزراء المقربين منها. في خضم هذا التنافس وفي ظل ظهور توترات اجتماعية، اندلعت أحداث 26 جانفي 1978 اثر إعلان إضراب عام اسفر عن تدخل الجيش وسقوط عشرات الضحايا. شهد عام 1979 إضافة إلى انتقال مقر الجامعة العربية إلى تونس تنظيم مؤتمر العاشر للحزب الذي ادّى إلى تدعيم موقع نويرة في حين أقيل فرحات من مو اقعه السياسية على خلفية اسناده للقوات المسلحة مهمة الإشراف التحضير المادي للمؤتمر ممّا اغضب بورقيبة المتمسك بمبدأ عدم إشراك العسكر في السياسة.."

كان الحزب الاشتراكي الدستوري مهيمنا فهو الحزب الأوحد يقوده المجاهد الأكبر بقبضة من حديد خوفا أن تعاد مثل أحداث الأمانة العامة وغيرها من صروف السياسة فهو لا يثق، في أعماقه، إلا في نفسه والمقربين المقربين من حاشيته ولا يثق في "العسكر" والوحيد الذي وثق به أحاله ذات 7 نوفمبر على المعاش ... وهو الذي يقود الدولة ببرامجها ومناهجها و آفاق تطورها وأدق تفاصيلها وخلفه مناضلين من الرعيل الأول من الذين قدموا له الولاء وصدق الانتماء...

فيما بعد، يكتب الدكتور سالم لبيض عن الحزب الدستوري التونسي في موقع العربي:[3] وهو الحزب الذي أسسه الثعالبي على أنقاض دستور عهد الأمان وبوحي إصلاحي منه... فيقول:

"نهاية سنة 2020، يكون الحزب الحر الدستوري التونسي الذي قرّر الشيخ عبد العزيز الثعالبي، ومجموعة من رفاقه، في حركة الشباب التونسي، وفي التيار الإصلاحي، تأسيسه سنة 1920، قد تخطّى القرن، فكان ثمرة لقاء جمع خرّيجي جامع الزيتونة الأعظم، بنزعتهم المحافظة والحاصلين على دبلوم المدرسة الصادقية منبت النخبة العصرية، أفضى إلى بعث حزب وطني، يرمي إلى استرجاع تجربة دستور عهد الأمان لسنة 1861، ويكون بمثابة الأداة السياسية التي سترعى الفكرة الوطنية وتنشرها، وتخوض معركة مقاومة الاستعمار الفرنسي الذي قام في تونس، مستندا إلى اتفاقية 12 ماي (مايو/ أيار) سنة 1881. نشأ الحزب الحر الدستوري على الطريقة الأوروبية في تأسيس الأحزاب السياسية، و انتظم على قاعدة قانون أساسي، أو نظام داخلي، يضبط هيكلته ومؤسساته وشروط الانتماء إليه بالنسبة للتونسيين المسلمين منهم واليهود، تشرف عليه لجنة تنفيذية، تتركب من أمين عام وأمينين

[3] www.alaraby.co.uk سالم لبيض بتاريخ 2020/12/30

مساعدين وأمين مال عام وأمين مال مساعد، ومجلس يماثل المجلس الوطني في أحزاب اليوم.

يقول الباحث: " وضع الحزب برنامجا يهدف في مجمله إلى "تحرير البلاد التونسية من نير العبودية حتى يتمكن الشعب التونسي من التمتع بالحقوق والحريات التي تتمتع بها كل الشعوب الحرّة"، وفق ما دوّنه المؤرخ التونسي، على المحجوبي، في كتابه "جذور الحركة الوطنية التونسية"، الذي فصّل القول في مختلف المطالب الوطنية والصيغ التنظيمية والممارسات النضالية وتضحيات هذا الحزب وقياداته. ولكن الحزب الدستوري سيشهد موجةً من الانشقاقات، أهمها انشقاق جماعة العمل التونسي، بقيادة الحبيب بورقيبة الذي التحق بالحزب في مايو/ أيار1933، ومغادرته في شهر سبتمبر/ أيلول من السنة نفسها، وتأسيسه، في شهر مارس/ آذار 1934، الحزب الدستوري الجديد أو النيو- دستور كما هو مسوّق في الصحافة والوثائق الأمنية والاستعلاماتية الاستعمارية وفي اصطلاحات المؤرخين، وذلك كله في غياب زعيم الحزب ومؤسسه، عبد العزيز الثعالبي، الذي نفته سلطات الاحتلال الفرنسي إلى بلدان المشرق العربي والإسلامي 1923-1937، ولم تفلح عودته ومحاولته رأب الصدع وتوحيد الشقين، قبل أن يعتزل

السياسة، ويتفرّغ للكتابة والتأليف، واستكمال فكره الإصلاحي."
يكتب الدكتور سالم الأبيض.

ويواصل: "استفاد حزب النيو- دستور من أحداث 9 أفريل (إبريل/ نيسان) 1938، المطالبة ببرلمان تونسي، على الرغم من طابعها المأساوي، ومن اندلاع الحرب العالمية الثانية، فقد كان لتلك الأحداث كبير الأثر على تجربة المجتمع السياسي التونسي ككل، لكنها عرفت تراجعا و انكماشا وربما اندثار الحزب الحر الدستوري القديم، المعروف باللجنة التنفيذية. في حين أصبح الحزب الجديد هو من يرمز إلى العمل الوطني ويقود الحركة الوطنية، خصوصا وأن تلك الفترة عرفت تولي الزعيم صالح بن يوسف خطة الأمين العام، ما أدّى إلى تنظيم الحزب على أسس جديدة، تتجاوز الطابع النخبوي الذي ميّز العمل السياسي التقليدي إلى الامتداد الشعبي في مختلف المدن والقرى والأرياف، هذا زيادة على دوره التأسيسي في انبعاث بعض المنظمات الوطنية، كاتحاد الصناعة والتجارة بقيادة الفرجاني بلحاج عمار، والاتحاد العام للفلاحة التونسية بزعامة الحبيب المولهي، والاتحاد العام لطلبة تونس الذي تولى أمانته العامة منصور معلى، وكسب دعم الاتحاد العام التونسي للشغل بقيادة فرحات حشاد والشيخ الفاضل بن عاشور. وبعودة الحبيب بورقيبة من المشرق العربي سنة 1949، سيخوض حزب

النيو- دستورتجربة الحوارمع المستعمرالفرنسي، والمشاركة في حكومة محمد شنيق التفاوضية، لكن هذه التجربة انتهت سريعا، بسبب تمسّك فرنسا بالسيادة المزدوجة، وسجن أغلب القادة الدستوريين، ولجوء الوزيرصالح بن يوسف إلى القاهرة التي تعيش على وقع ثورة 23 يوليو (1952)، قبل أن يشارك في مؤتمر باندونغ سنة 1955 الذي سيعرف ظهور منظمة عدم الانحياز، وتشكل العالم وفق نتائج الحرب العالمية الثانية، ويعود إلى تونس شهر سبتمبر/ أيلول 1955. وفي تلك السنة، سيشهد الحزب الدستوري الجديد تصدّعا عميقا و انقساما حادّا سيتحول إلى صراع دموي، وحرب تصفيات واسعة بين شقين، الأول يقوده الحبيب بورقيبة ويعرف بالديوان السياسي، والثاني يمثله صالح بن يوسف و أنصاره، ويعرف بالأمانة العامة، وذلك على خلفية الموقف من توقيع اتفاقيات الاستقلال الداخلي التي وقّعها رئيس الحكومة التونسية، الطاهر بن عمار، في باريس في 1 يونيو/ حزيران 1955، واعتبرها بورقيبة خطوة إلى الأمام، بينما اعتبرها بن يوسف خطوة إلى الوراء، داعيا المقاومة الوطنية المسلحة التي قام بتنظيمها في حزب جديد، يدعى حزب الأمانة العامة، إلى مواصلة الكفاح من أجل الاستقلال التام، معتبرا أن لا استقلال لتونس بدون تحرير بقية أقطار

المغرب العربي، وأن اتفاقيات الاستقلال الداخلي والاستقلال التام هي خيانة للثورة الجزائرية."

يقول الدكتور: "انتهت هذه المعركة بتصفية أغلب مناضلي الحركة اليوسفية، أو سجنهم، أو تهجيرهم بعد تجريدهم من أسلحتهم وممتلكاتهم، وتنفيذ حكم الإعدام في قادتهم، بمن فيهم صالح بن يوسف نفسه الذي نُفذ فيه الحكم اغتيالا سنة 1961، بعد محاكماتٍ صوريةٍ تولتها محكمة استثنائية، هي محكمة القضاء العليا، ليستفرد الحزب الحرّ الدستوري الجديد الذي غيّر اسمه سنة 1964 إلى الحزب الاشتراكي الدستوري بالحكم، بعد أن فاز ضمن الجبهة القومية التي ضمّت الاتحاد العام التونسي للشغل بجميع مقاعد المجلس القومي التأسيسي في الانتخابات التي جرت في إبريل/ نيسان 1956. وقد تولى بورقيبة رئاسة الحكومة، بتكليف من الأمين باي، لكنه أنهى بسرعة حكم البايات الحسينيين يوم 25 يوليو/ تموز 1957، وأعلن الجمهورية التي تولى رئاستها قبل أن يضع حدا سنة 1963 للتعدّدية الحزبية والحياة الديمقراطية الفتية وحرية الصحافة، بحظره نشاط الحزب الشيوعي التونسي، وما تبقى من الحزب الحر الدستوري القديم، كمقدمة لإقرار الرئاسة مدى الحياة بداية من 1975. ولكن تلك الإجراءات التسلطية لم تحل دون ظهور تياراتٍ معارضةٍ من داخل

الحزب النيو- دستوري أو من خارجه، كحركة الوحدة الشعبية التي أسسها الزعيم النقابي والوزير أحمد بن صالح، وحركة الديمقراطيين الاشتراكيين التي انبعثت على يد أحمد المستيري ورفاقه، وحركة التجمع القومي العربي بقيادة البشير الصيد، وحركة الاتجاه الإسلامي بزعامة راشد الغنوشي، وحركتي آفاق والعامل التونسي، وحزب البعث العربي الاشتراكي. وقد عرفت عشرية الثمانينيات أرذل الأيام في عمر الحزب الاشتراكي الدستوري، بتزوير الانتخابات التشريعية سنة 1981 وإعفاء الوزير الأول محمد مزالي من منصبه، وهروبه إلى الخارج، واشتعال حرب خلافة الرئيس بورقيبة، وانهيار الدولة الاقتصادي والمالي سنة 1986، وهي الظروف التي تهيأت تلقائيا، أو بفعل فاعل، ليتولى الرجل القوي، زين العابدين بن علي، مقاليد السلطة سنة 1987. وكان بن علي مخيّرا بين بعث حزب جديد باقتراح من عالم الاجتماع، عبد الباقي الهرماسي، أو إعادة هيكلة الحزب الدستوري مع تغييرات طفيفة في التسمية والقيادة والبرمجة والمقاربة. اختار بن علي الخيار الثاني، بتأثير من قيادات الحزب النافذة ومراكز قواه، لينعقد مؤتمره الأول سنة 1988، بمسمّى التجمّع الدستوري الديمقراطي، ويعود به كما كان سنة بداية من سنة 1956 الحزب الواحد الذي يهيمن على الحياة السياسية، ويتولى تسيير الدولة، ويراقب المجتمع ضمن

مقاربة أمنية شاملة. أما بقية الأحزاب والتنظيمات المختلفة والمعارضة والرافضة، فلا يتعدّى دورها الديكور السياسي أو النشاط الثقافي والنقابي والحقوقي، وإذا هي حاولت تجاوز المساحة المرسومة لها، فسيكون مصيرها التتبع الأمني والسجون والمعتقلات والمحاكمات الصورية، وحتى القتل والتشريد والتجويع، والأمثلة على ذلك كثيرة من مقرّبي النظام ومناوئيه." يدوّن سالم لبيض. وهي تقريبا، ما عدا بعض الجزئيات، ما تمت دراسته ضمن الحركة الوطنية وما يعرفه أغلب الناس عن الحزب ومسيرته وبنائه وما أزيل من طريقه بالقوّة خلال سنوات تواجده بقبضة من حديد على الساحة السياسية وفي كرسي الحكم هذا الكرسي الدوار الذي لا يستقر له قرار إذ سرعان ما يزيح جالسه مهما كانت فخامة اسمه...

أما عن الزعيم بورقيبه ذاته فقد كتبت الموسوعة الحرة ما يلي: "ولد في منزل أمام ساحة 3 أغسطس/أوت بمدينة المنستير الساحلية، من عائلة من الطبقة المتوسطة (أبوه ضابط متقاعد في حرس الباي)، وكان أصغر ثمانية إخوة وأخوات، تلقّى تعليمه الثانوي بالمعهد الصادقي فمعهد كارنو بتونس، ثم توجه إلى باريس سنة 1924 بعد حصوله على الباكالوريا و انخرط في كلية الحقوق والعلوم السياسية وحصل على الإجازة في سنة1927 ، وعاد إلى تونس ليعمل بالمحاماة.

تزوج للمرة الأولى من الفرنسية ماتيلد وكانت تبلغ من العمر عندما تعرفت عليه 36 عاماً، وكانت أرملة أحد الضباط الفرنسيين الذين ماتوا في الحرب العالمية الأولى، كانت تكبره بحوالي 12 سنة، وهي التي أنجبت له ابنه الوحيد الحبيب بورقيبة الابن، وتطلقا بعد 22 عاماً من الزواج لكنه استمر على صلته بها كما قام بتوسيمها في أواخر حياتها قبل وفاتها سنة 1976.

تزوج للمرة الثانية من وسيلة بن عمار رسمياً في 12 أبريل العام1962 وهي تونسية، في احتفال كبير بقصر المرسى. وسيلة بن عمار الثائرة التونسية التي قادت عدداً من عمليات النِضال الوطني ضد الاستعمار، حتى أُلقي القبض عليها عام 1948 وسُجنت.

انضم إلى الحزب الحر الدستوري سنة 1933 واستقال منه في نفس السنة ليؤسس في 2 مارس 1934 بقصر هلال الحزب الحر الدستوري الجديد ر افقه محمود الماطري والطاهر صفر والبحري قيقة.

تم اعتقاله في 3 سبتمبر 1934 لنشاطه النضالي و أبعد إلى أقصى الجنوب التونسي ولم يفرج عنه إلا في مايو.1936

ثم سافر إلى فرنسا وبعد سُقوط حكومة الجبهة الشعبية فيها اعتقل في 10 أبريل من العام 1938 إثر تظاهرة شعبية قمعتها الشرطة الفرنسية بوحشية في 8 و9 أبريل1938 ، ونقل بورقيبة

إلى مرسيليا وبقي فيها حتى 10 ديسمبر 1942 عندما نقل إلى سجن في ليون ثم إلى حصن "سان نيكولا" حيث اكتشفته القوات الألمانية التي غزت فرنسا، فنقلته إلى نيس ثم إلى روما، ومن هناك أعيد إلى تونس حراً طليقاً في 7 أبريل1943

قرر السفر إلى المنفى الاختياري إلى القاهرة في 23 مارس1945 ، وزار من هناك الولايات المتحدة قبل أن يعود إلى تونس في 8 سبتمبر 1949 وسافر من جديد إلى فرنسا سنة 1950 ليُقدم مشروع إصلاحات للحكومة الفرنسية قبل أن يتنقل بين القاهرة والهند و اندونيسيا و إيطاليا وبريطانيا والولايات المتحدة والمغرب قبل أن يرجع إلى تونس في 2 يناير/جانفي 1952 معلنا انعدام ثقة التونسيين بفرنسا ولما اندلعت الثورة المسلحة التونسية في 18 يناير1952 ، اعتقل الزعيم الحبيب بورقيبة وزملاؤه في الحزب وتنقل بين السجون في تونس وفرنسا ثم شرعت فرنسا في التفاوض معه فعاد إلى تونس في 1 يوينو/جوان 1955 ليستقبله الشعب استقبال الأبطال ويتمكن من تحريك الجماهير، لتوقع فرنسا في 3 يونيو/جوان 1955 المعاهدة التي تمنح تونس استقلالها الداخلي. وهي الاتفاقية التي عارضها الزعيم صالح بن يوسف واصفا إياها أنها خطوة إلى الوراء مما أدى إلى

نشأة ما يعرف بالصراع "البورقيبي اليوسفي" ويتهمه خصومه السياسيون بالتهاون والتخاذل.
في 20 مارس1956 ، تم توقيع وثيقة الاستقلال التام وألف بورقيبة أول حكومة بعد الاستقلال." وانطلق حثيثا في بناء الدولة الوطنية الحديثة العصرية وتأسيس ركائزها على أسس صلبة متينة وكان لا بد من صعوبات ومشاكل وعراقيل أمام التجاذبات الدولية والاقليمية وفي مجتمع مازال يخيم عليه الماضي ويقبع الجهل فيه بكلكله...

في جولاته وحيدا أو مع رفيق السكنى كانا يعتمدان من سوق البلاط، نهج القصبة ليمرا منه إلى نهج سيدي السريدك عبر الحفصيه وبناءاتها القديمة المتهالكة إلى نهج أحمد بيرم وعبر باب سويقة وبمحاذاة معهد باب الخضراء يسلكان شارع الطيب المهيري ليصلا إلى حديقة البلفدير ويكونا بذلك قد قاما بجولة رياضية وترفيهية عبر "البلاد العربي" وما تزخر به من عبق تاريخي وأسواق قديمة وتراث لا يندثر، ليجلسا حول إحدى الطاولات قبالة تلك البحيرة الجميلة بوزها وبطها وطيورها المختلفة. هناك يستمتعان بالحديث والموسيقى الهادئة وأغاني نجاة الصغيرة وفائزه أحمد وفريد الأطرش وأم كلثوم وعبد الحليم والعزبي

وبجمال المناظر الخلابة والخضرة الدائمة والأشجار الباسقة المحيطة بالمكان.

كانت حديقة البلفيدير حديقة ذائعة الصيت بجمالها وهدوئها فهي محط العائلات ومتنفس المدينة يرتادها الناس من كل الأعمار والمناطق فتزيل ما بهم من كلل وملل وتراكمات الزمن كما كانت حديقة "الباساج" أيضا.

فقد" تم أحداث منتزه البلفيدير سنة 1892 بقرار من المجلس البلدي. وتم اختيار ربوة تحتضن غابة زيتون في طريق أريانة.[4] يقول موقع البلدية.

.تم توفير الأشجار من الحديقة التجريبية التي بعثت بتونس سنة 1891.

. تم الانتهاء من أعمال التهيئة والزراعة في سنة 1897. وبقي منتزه البلفيدير مغلقا أمام العموم لمدة عشر سنوات من أجل ضمان أفضل الظروف لنمو كساءه النباتي. وفي سنة 1910 وقع تدشين المنتزه بصفة رسمية. أشرف على تصميمه "جوزيف دو لافوركاد"[5] المهندس والأخصائي في تجميل الحدائق بمدينة باريس. يعد منتزه البلفيدير أول منتزه حضري يقع تركيزه بالعاصمة. وهو لا يزال إلى اليوم أكبر المنتزهات

[4] / http://www.commune-tunis.gov.tn

[5] Joseph *DE LAFORCADE* architecte-paysagiste

الحضرية وأكثرها أهمية في البلاد. منذ أن تم فتحه للعموم، صار منتزه البلفيدير المكان المفضل للنزهة والتجوال بالنسبة لسكان العاصمة." وحتى لغيرهم القادمين من سكان الداخل لما فيه من مكونات. " منذ افتتاحه أمام الجمهور أصبح منتزه البلفيدير مكان التجوال المفضل لدى التونسيين، يشهد السفح المشرف على كامل المنتزه أيام الآحاد والعطل تدفق العائلات لتناول الغداء في الهواء الطلق وممارسي رياضة الكرة الحديدية وبالرغم من منافسة فضاءات ترفيهية أخرى فإن منتزه البلفيدير يظل الفضاء الأكثر تميزا والأكثر جذبا للزوار الذين يزورونه بالآلاف يوميا" ومن جميع الأماكن والأصقاع.

كان يستكشف محيطه ويتفاعل معه ويدون كل ما يشاهده ويستهوي عيونه كسائح غريب رسا مركبه على شواطئ هذه المدينة الجميلة.

أما "الڤرانة" هذا الاسم المتداول فسكنها اليهود القادمون من البرتغال وخاصة من "ليفورن"[6] الايطالية، (فهي في الحقيقة تسمى "الvرانه") وكان يباع في هذا السوق المنتوجات المستوردة مثل ريش النعام ومسحوق الذهب والسكر والتوابل والمنتوجات المحلية وتكتب ناجية المالكي في جريدة الشروق[7].

---

[6] Livourne la ville italienne.

[7] ناجية المالكي نشر في الشروق يوم 13 - 08 - 2011

"هو وجهة النساء فيه كل أنواع الملابس والأقمشة والأحذية والحقائب وكذلك الإكسسوارات ولوازم الأفراح إنه سوق القرانة القلب النابض لأسواق المدينة العتيقة. هذا السوق كغيره من أسواق المدينة العتيقة له تاريخ ضارب في القدم وشهد عدة تحولات ولكنه ظل على امتداد العصور الخوالي مركزا لأسواق المدينة العتيقة ومن أكثرها استقطابا للحرفاء والسياح. وبالعودة إلى تاريخ سوق القرانة يذكر انه أنشئ في نهاية القرن الخامس عشر عندما هاجر المسلمون واليهود الذين أطردوا من إسبانيا والبرتغال. وقد استقر معظمهم -خاصة أولئك الذين قدموا من الأندلس ببلدان شمال إفريقيا «تونس، المغرب، الجزائر وليبيا» - واستقر بعضهم في إيطاليا في مدينة قرنه، حيث مكنهم الدوق الكبير فرديناند الثاني من تسهيلات لتعاطي الأنشطة الاقتصادية والتجارية، وعند موت الدوق هاجر أغلب هؤلاء. إلى تونس فسكنوا بحي «الحارة» وتعاطوا التجارة بسوق القرانة فكانوا يصدرون المنتوجات الزراعية والحيوانية والمصنوعات التقليدية: أغطية شاشية.. والمواد المتأتية من القوافل الصحراوية كريش وشحم النعام، والعاج والتبر «قراضة الذهب». ويوردون مواد أولية وملونات والمنتوجات الصناعية كأغطية الأسرة والحرير والأقمشة الرفيعة والقصدير والسكر والتوابل. حركية

7

كبرى وكما ذكرنا سابقا فان سوق القرانة يعتبر من أهم الأسواق التجارية بالمدينة العتيقة ويستقطب يوميا آلاف الحرفاء وكل من يزور تونس من التونسيين المقيمين بالمدن الداخلية إلا وتكون له زيارة إلى سوق القرانة للتبضع و اقتناء الملابس والأحذية والأقمشة وغيرها من لوازم تجهيز المنزل من مفروشات وأغطية. .. ويرجع سبب هذا الإقبال والحركية المكثفة التي تشهدها سوق القرانة يوميا وخاصة يومي الجمعة والسبت من كل أسبوع وخلال النصف الثاني من شهر رمضان إلى تنوع البضاعة المعروضة فيها حيث تجد ربات البيوت والفتيات المقبلات على الزواج وطالبات الجامعة كل ما يحتجنه من أغراض شخصية وملابس واكسسوارات متنوعة. ويقول أحد التجار صحيح أن سوق القرانة يعتبر من أكثر الأسواق حركية إلا انه يشهد خلال بعض فترات السنة ركودا اقتصاديا كبيرا يهدد مصدررزق التجار ويضطر الكثير منهم إلى تسريح العمال وخاصة خلال فصل الشتاء. وعادة ما يعود الانتعاش إلى السوق خلال فصل الصيف وفي موسم الذروة أي خلال شهري جويلية وأوت من كل سنة بسبب ارتفاع عدد الزيجات و إقبال الفتيات على إتمام جهاز العرس" و فيما يخص "الحفصيه " فالعهد الحفصي من أشهر العهود التي مرت على البلاد التونسية إذ اعتنوا بالمال و الأعمال والاقتصاد واحتضنوا القادمين

من الأندلس وعمروا هذا الجزء من المدينة الذي لا يزال يسمى باسمهم ويوجد من أشهر هذه الأسواق "سوق الحفصي" ويسمى سوق الشواشين حيث تخدم فيه صناعة الشاشية وهي من الصناعات الأندلسية التي اختص بها أكابر أعيان تونس، وكان لها رواجا عظيما في جميع ممالك العالم الإسلامية وبها أثري أهالي تونس ويليه شهرة سوق العطارين وهو من الأسواق المعتبرة بتونس وجميع تجاره من أعيان البلاد فيه تباع أنواع المياه الطيبة كماء الياسمين وماء الورد والعنبر والعود القماري والحناء والشمع والمسك والكافور. أما حي باب سويقه الذي يتوسط الحلفاوين والحفصية وباب الأقواس والرابطة، فقد عرف بمناضليه وشعبية مقاهيه وقاعات الفتح وغيرها مما عرفت بـ «الكافيشانطه"[8] وأجوائه وسهراته الرمضانية و"أوتيل العياشي" وجامع سبحان الله الذي بنته الجالية الأندلسية بعد طردها من اسبانيا وعرف أيضا بفريقه الترجي الرياضي التونسي والكثير من المعالم وأهمها على الأطلاق زاوية سيدي محرزويقال هو أول من أمر ببناء الحي وعمل على الاهتمام به وبالجاليات المتواجدة به ومنها الجالية اليهودية التي بعث لها حارة هناك. ومن الأحياء الشعبية في قلب تونس النابض حي الحلفاوين العتيق، هذا الحي الذي توسطه جامع صاحب الطابع

[8] café chantant de bab souika

جميلا شامخا. هنا في هذا الحي تنبع الثقافة الشعبية من أعماق التاريخ. يتكاثر الحكواتيون في ليالي رمضان المعظم ومحترفو الألعاب السحرية. هنا أيضا يشدك البائع المتجول صاحب "الدنقري والكوفية والمشموم "معنقر الكبوس" متفائلا بما كتب الله له. هنا أيضا تجد "حليب الغولة"... يقول كبارهم أن بالحي كانت تباع الحلفاء في زمن قديم فسميت بـ "الحلفاوين" على غرار الأسواق الأخرى السراجين والعطارين والنحاسين والشواشين والصباغين وسوق السكاجين أيام كانت الأسواق تسمى بما يمتهنه أصحابها... يمر بك كل هذا و أنت تمر من هذه الأماكن أو قربها فيغمرك عبق التاريخ وعطره وتنتشي بتجذر بلادك في أعماق القرون الماضية... وكيف لا وجذور المدينة بربرية عتيقه وعربية عريقة، ثم تركية، أندلسية ومن بقايا المرابطين وعسكر زواوه الأمازيغ و الكراغله على مرّ تاريخها الطويل... وهم من يقال لهم "بلديه"...

كان كلما مرّ بباب سويقه إلا وتراءت له في أعماق ذاته مجموعة تحت السور وهي تتناقش وتتفاعل كما كانت في بداية الثلاثينات فهذا عبد الرزاق كرباكه وهذا عبد العزيز العروي وهذا على الدوعاجي وهذا الطاهر الحداد وهذا خميس ترنان وهذا أبو القاسم الشابي وقد اختلط

ضجيج شعرهم وألحانهم وأصواتهم بضجيج المقهى والشارع وأسواق المكان وهم في انتظار محمد العربي والهادي العبيدي والصادق ثريا...
أما في سوق البلاط، حيث مقر سكناه هو ورفيقه، فيختلف كل شيء ولكل مجاله، هنا تعيش كل حقب التاريخ وتخال نفسك في العهد الحفصي أو ما قبله وما بعده، إذ "يعتبر «سوق البلاط» [9] الواقع في قلب مدينة تونس العتيقة أشهر سوق لبيع الأعشاب الطبية في البلاد، فجولة صغيرة بين أرجاء المكان العابق بالأسرار والغموض تعيدك إلى زمن الأساطير واللاهوت، ولا غرابة، فهناك تنشط تجارة الأعشاب بزخم رهيب صباحا مساء ويوم الأحد وهو ما يعكسه ازدحام المواطنين اللافت خاصة من كبار السن والنساء على عتبات المحلات المترامية هنا طلبا للشفاء من أمراض وأدواء مستعصية وقف الطب أمامها عاجزا وفق تقديرهم. زقاق ضيق تدب فيه الحركة منذ بزوغ الشمس... يقصده من كل صوب النساء والرجال والشباب والسياح الأجانب. هذا يقف على باب أحد الدكاكين مستفسراً عن نبتة جبلية وآخر يتساءل بقاع الدكان عن قيمة حشائش ما وأخريات تبحثن عن خلطة أعشاب تصلح لأمور "التابعة " و"التعطيل" و"السعد". وغيرهم كثيرون. بـ «التجربة" ثبتت جدوى ما يقدم للزبائن في "سوق البلاط"، أشهر سوق

[9] موقع المساء بتاريخ 2017/01/27 محمد أمين العباسي

مختص بتونس في بيع النباتات الطبيعية، والأعشاب والزواحف التي تساعد على علاج الأمراض المستعصية مثل العجز الجنسي وحالات العقم والسرطان وإزالة السحر ورفع العر اقيل... يقع هذا السوق في أعماق المدينة العتيقة، ولا يتيه قاصده مع ذلك عنه. فإذا كنت قريباً من جامع الزيتونة المعمور الكائن في قلب المدينة يمكن أن يدلك عليه "أبناء البلد" بسهولة أما إذا كنت في العاصمة فيمكن أن تدخله من " نهج الصباغين" أو عبر ما يعرف بمكان "مدق الحلفة". ويحمل "سوق البلاط" خبايا وأسراراً منها ما يعلنه التجارومنها ما يخفينه... آخر الطب الأعشاب. ويرتاد السوق التونسيون من مختلف الطبقات الاجتماعية والمستويات العلمية بغرض اقتناء بعض الأعشاب والعقاقير والمواد الأخرى سواء للتداوي أولأغراض أخرى... وتعتبر الأمراض الأكثر شيوعاً: روماتيزم المفاصل والجهاز التنفسي والحلق والحنجرة والأعصاب والسكري والأمراض الجلدية والكلى وضغط الدم إلى جانب أمراض العقم والعجز الجنسي. كما يباع في السوق البخور ومواد الصباغة وتصبير اللحوم. تعمل السوق بالحيوية نفسها على مدار السنة، يقول "عبد الرزاق بحر" لا تكف طلبات الحرفاء من الجنسين صيفاً وشتاءً ففي شهر رمضان المعظم يطلب فيه الزبون أعشاب علاج أمراض المعدة وفي الموسم الصيفي يقصد البعض من أفراد الجالية التونسية المقيمة

بالخارج السوق للتزود بأعشاب يحملونها عند العودة إلى بلد الإقامة. ويشترى السياح الأجانب غالباً «جوز الطيب " و" الزهور المجففة" لاستعمالها في طبخ بعض الأطباق الشرقية. وتوجد في السوق المواد التي تستعمل للسحر و إبطاله من ذلك "عش العصفور" و" أم البوية" (الحرباء) و"القنفد" و"السلحفاة" و"طائر التبيب" و"الهدهد" و "الشفشة" (السنجاب ذو الرائحة الكريهة). وهي مواد تستعمل عادة لأغراض سحرية أو للتخلص من "التابعة" ودرء الحسد والعين الشريرة. وعادة ما يكون استعمالها مثلما جاء في دراسة علمية بحثية (اختصاص تراث و آثار) أعدت حول تجارة الأعشاب الطبية في سوق البلاط مرتبطاً بممارسة طقوس معينة كسكب الماء وراء المسافر أو من يخرج لقضاء حاجة هامة أو ذرِّ الملح فوق الرأس سبع مرات ثم حرقه أو رميه لتخليص صاحبه من "التابعة" أو تعليق "ذيل السمكة " و"الخمسة" و"السبحة" و"صفائح الخيل" و"قرون الخروف" أو تربية السلحفاة درءاً للحسد والعين أو طلاء كعب الطبي بدم الحرباء بعد ذبحها حتى لا يؤثر فيه السحر طوال حياته وتجفيفها وتعليقها في شبابيك البيوت حتى لا يدخلها السحر وغير ذلك . وتروج في السوق خلطة بخور لإبطال مفعول السحر تسمى "البطول" تتكون أساساً من "الداد" و"الملح" و"التابل" و "حب الرشاد" و"جلد الحرباء" و"جلد

السلحفاة" وغيرها. وهناك من "العشّابة" من يتعامل مع العرافين فيما يرفض البعض الآخر بيع أعشاب السحر وهم من مناصري مسألة تطهير السوق من المشعوذين والدجالين .وكثيراً ما يستظهر وفق تصريحات مختلفة لعدد من "العشابة " الحرفاء بوصفة حاضرة في قائمة في العقاقير طلبها عرّاف، أو ورقة سجل عليها الحريف بنفسه أو أحد أقربائه بعض أسماء الأعشاب والنباتات. ويُعتبر سوق البلاط سوقًا للمواطن الزوّالي بهذه الكلمات كانت افتتاحيّة إحدى الزّائرات في صفٍّ طويلٍ أمام عيادة الدّكتور"سمير بن يوسف"، مختصّ في جميع أنواع الأعشاب الطبيّة، تنتظرُ حُلول دورها لمباشرة العلاج مُواصلةً أنّ من غرائب ما يحصُل في السّوق أنّ حتّى الأطبّاء يزورون المكان بين فترةٍ وأخرى للاطلاع وللاستفادة من خبرة التجّار الّذين تحوّل كثيرٌ منهم بمرور الزمن إلى ما يشبهُ الأطبّاء من دون أن يُدركُوا أهميّة ما يُقدّمونه من معلومات حول الاعشاب ومفعولها الصحّي. اراء البائعين الحاج محمد وهو مختص في بيع الأعشاب الطبية قال إنه يعمل في هذا الميدان منذ 48 سنة، مضيفا أنه امتهن هذه الحرفة التي يحبها كثيرا منذ الصغر. وتابع بأنه يقوم بتحضير الأعشاب بنفسه للزبائن الذين يتوافدون على محله بغاية البحث عن علاج للأمراض المستعصية كالسرطان والروماتيزم و "البوصفير" وموانع الحمل وغيرها. ولاحظ أن محلّه

يعرض الأعشاب الطبية بالتفصيل والجملة وأن زبائنه من كل الفئات الاجتماعية، فبينهم البسطاء والأغنياء وبينهم المتعلم المثقف وغير المتعلم ومحدود المستوى الثقافي أيضا، مبينا في الإطار نفسه أن عددا من النساء والفتيات يتو افدن على محله كذلك لإنهاء العر اقيل التي تقف حاجزا دون الزّواج وفق اعتقادهن. وأشار الحاج محمد إلى أن الأعشاب الطبية جيّدة وشافية ولكن يبقى كل ذلك رهن الإرادة الإلهية ورهن نو ايا الزبائن وتوفر إرادة الشفاء لديهم، مؤكدا أن العامل النفسي يلعب دورا محوريا في هذا المجال. وعن الأعشاب الطبية التي تطلبها النساء والفتيات لجلب الحظ أو العثور على زوج، أوضح الحاج محمد أنها عديدة، منها «عرق تبعني» و «الحب استحباب» و «روامة الغزالة» و «روامة الناقة» وغيرها، مستطردا أن الرجال كذلك يأتون إليه بحثا عن وصفات أو أعشاب تستعمل لجلب الرزق. الحاج الصادق وهو بائع متخصص في بيع الأعشاب الطبية بدوره أشار إلى أن كل الفئات الاجتماعية تقصد محله بحثا عن الأعشاب الطبيعية المداوية من الأمراض، مؤكدا أن الطلبات على أعشاب علاج الأمراض المستعصية تحوز على نصيب الأسد من مجموع طلبات زبائنه. كما بيّن أن محله بمثابة الصيدلية التي تؤمها كل الشر ائح الاجتماعية بحثا عن الشفاء، مضيفا أن كل الأعشاب الطبية متوفرة في «صيدليته

الطبيعية» لعلاج أمراض المعدة والروماتيزم وعديد الأمراض الأخرى، مبيّنا أن هناك العديد من كبار السن يزورون محله بحثا عن حلول لأمراض الروماتيزم وكذلك الفتيات اللاّتي تقدمن في السنّ بحثا عن الزواج. أعشاب نادرة ومن أغرب ما يباع في "سوق البلاط" ما يعرف بعشبة "الحية والميتة" فإذا سحرت امرأة رجلاً مثلاً وجعلته يتناول - دون علم منه -ما يسمى بالعشبة "الميتة" فإنه يصبح عاجزاً جنسياً، ولا بد له أن يتناول ما يسمى بالحبة "الحية" من العشبة نفسها ليعود طبيعياً. ويروى أن عدداً من النساء انتقمن من أزواجهن بعد ثبوت خيانتهم لهن بدس الحبة الميتة لهم في الطعام أو الشراب ولا يمكن العثور على هذه العشبة الباهظة الثمن بيسر بل تباع فيما يشبه السرية و"تحت المعطف" كما يقال لمعرفة التجار بأغراض استعمالها. وفي الأخير يبقى هذا السوق العريق غاية في الغموض رغم ما يحوم حوله من أحاديث منها ما هو منطقي ومنها ما هو خيالي ولكن تبقى علاجاته وأعشابها بحاجة الى مزيد الدراسة والتعمق."

هكذا يصف هذا السوق، الباحث محمد أمين الحباسي، بكل جزئياته ودقائق تفاصيله وعمق خدماته التي قدمها ويقدمها للناس في كل مراحل التاريخ...

هذا الضجيج لا يسمعه صديقنا ليلا لأنه لا يأوي، في أغلب الأحيان، إلى هذا المكان نهارا فوقته يمضيه بين العمل والمطعم الجامعي ومكتبة العطارين ودور الثقافة وجولات رائقة كلما كان الطقس جميلا. لكن عطر المكان يظل يفوح بروائح متعددة "للشيح والحرمل والكليل والزعتر والعرعار وعنب الذيب وكل مشتقات الحليب وروائح أم البوية والداد والتبيب..."

أحداث كثيره اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية شهدتها السبعينات على الصعيد العالمي وتحدثت عنها صحف ذلك الوقت بإطناب وأرخها المؤرخون بمزيد من الدرس والتحليل واطلع عليها صاحبنا بل عاش تأثيراتها وتطوراتها عبر مثقفي بلاده وكتاباتهم وندواتهم.

في القرن الحادي والعشرين، تكتب الموسوعة الحرة " تزايد اعتبار المؤرخين لعقد السبعينيات على أنه "ذروة التغيير" في التاريخ العالمي، مركزين بشكل خاص على التقلبات الاقتصادية التي تلت نهاية فترة الازدهار الاقتصادي العالمي التالي للحرب العالمية الثانية في العالم الغربي، استمرت الأفكار التقدمية الاجتماعية التي بدأت في أواخر الستينيات -مثل ازدياد الوعي السياسي والحرية الاقتصادية للمرأة- بالنمو في المملكة المتحدة، أدت انتخابات عام 1979 إلى انتصار الزعيمة

المحافظة مارغريت تاتشر أولى رئيسة وزراء امرأة في تاريخ بريطانيا العظمى والمملكة المتحدة. عانت جميع الدول الصناعية -باستثناء اليابان- من فترة كساد اقتصادي نتيجة أزمة نفطية سببها مقاطعات من قبل منظمة الدول العربية المصدرة للنفط. في ظل هذه الأزمة ظهر مفهوم جديد هو الركود التضخمي الذي بدأ حركة سياسية و اقتصادية استبدلت بالنظرية الاقتصادية الكينية[10] نظرية الاقتصاد النيو ليبرالي، وذلك بإنشاء أولى الحكومات النيو ليبرالية في تشيلي حيث حدث انقلاب عسكري بقيادة أوغست بنوشيه في عام 1973 .أطلق الروائي توم وولف على هذا العقد اسم "عقد الـ 'أنا'" في مقاله "عقد الـ 'أنا'والصحوة العظمى الثالثة" مشيرا إلى عقد السبعينيات. يصف المصطلح الذي نشرته مجلة نيويورك ماغازين في أغسطس عام 1976 توجهًا جديدًا سلكه الأمريكيون نحو الفردية الذرية الاجتماعية وبعيدًا عن الفكر الجماعي، بشكل مناقض تمامًا

[10] لعنصر الأساسي الذي تقوم عليه فكرة النظرية الكينزية، هو أن الاقتصاد الكلي يمكن أن يكون في حالة من عدم التوازن لفترة طويلة.

لذلك تدعو هذه النظرية التي وضعها "جون مينارد كينز" إلى تدخل الحكومة، للمساعدة في التغلب على انخفاض الطلب الكلي، وذلك من أجل الحد من البطالة وزيادة النمو.

للتوجه السائد في عقد الستينيات. في آسيا، تغيرت الأوضاع المتعلقة بجمهورية الصين الشعبية جذريًا بعد اعتراف الأمم المتحدة بالجمهورية وموت ماو تسي تونغ وبداية تحرير السوق من قبل الرؤساء اللاحقين. على الرغم من مواجهة أزمة نفط نتيجة حصار أوبيك، شهد الاقتصاد الياباني ازدهارًا ضخمًا في هذه الفترة متخطيًا اقتصاد ألمانيا الغربية ليصبح ثاني أكبر اقتصاد في العالم. سحبت الولايات المتحدة قواتها العسكرية من مو اقع انتشارها السابقة في حرب فيتنام والتي أصبحت موضع استهجان عام من قبل المجتمع الأمريكي. في عام 1979، اجتاح الاتحاد السوفييتي أفغانستان، مما أدى إلى حرب طويلة استمرت لعشر سنوات. شهدت بداية عقد السبعينيات تصعيدًا للعنف في الشرق الأوسط إذ أعلنت مصروسوريا الحرب على إسر ائيل، لكن وفي نهاية السبعينيات تغير وضع الشرق الأوسط بشكل جوهري عندما وقعت مصر اتفاقية السلام المصرية الإسر ائيلية. لعب الرئيس المصري أنور السادات دورًا محوريًا في هذا الحدث وبالتالي أصبح مكروهًا إلى حد كبير في العالم العربي والعالم الإسلامي بشكل عام. تفجرت التوترات السياسية في إيران بحدوث الثورة الإير انية عام 1979، التي أطاحت بالدولة البهلوية وأسست الجمهورية الإسلامية في إيران تحت قيادة آية الله الخميني .شهدت أفريقيا تز ايدًا في حركة إنهاء

الاستعمار، إذ حصلت كل من أنغولا وموزمبيق على الاستقلال من الإمبراطورية البرتغالية عام 1975 بعد إعادة الديمقراطية في البرتغال. وقعت القارة الأفريقية ضحية وباء من الانقلابات العسكرية، وذلك مع إسقاط الإمبراطوري الإثيوبي هيلا سيلاسي الذي حكم لفترة طويلة، و انتشار الحروب والمجاعة. استمرت اقتصادات كثير من الدول النامية باتخاذ خطوات ثابتة نحو الأمام في بداية عقد السبعينيات بسبب الثورة الخضراء. كان من الممكن لهذه الدول أن تزدهر وتصبح أكثر استقرارًا بالشكل ذاته الذي تعافت به أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية من خلال خطة مارشال، لكن نموها الاقتصادي تباطأ بسبب أزمة النفط، ثم عاد للازدهار بعد ذلك مباشرة." كل هذه المتغيرات في العالم كانت لها ظلالها الكثيفة في تونس المتلاطمة أمواجها...

كان صديقنا يمرّكل صباح على "العم عمر" بائع الجرائد بجانب قوس باب بحر، وهو شيخ مسن من سكان الضواحي، كثير الصمت، لا يسلّم ولا يتكلّم ولا يعرف له سرّ، يختزل هموم الدنيا ومآسيها في عينيه. يقتني جريدته المفضلة منه، تلك "الصباح" الكبيرة العريضة، يطالعها في مقهى المغرب بنهم وهو يترشف قهوته ثم يواصل مشواره، يسلم على "العم علي" بائع الجرائد والمجلات المنتصب بجانب مدخل الكوليزاي، يمازحه ويسأله عن آخر الأخبار وهو رجل ضامر، محنك، كثير الحديث

والنكتة، جمع فأوعى. ثم يمر أمام مقهى "الروتوند" ويواصل سيره في الشارع الجميل، إلى حيث مدرسته الشهيرة. هذه الجريدة رغم كل شيء كانت هي الوحيدة التي تربطه بما يعتمل رسميا في البلاد أما إذاعة البي بي سي "هنا لندن" التي يلتقطها على موجات مذياعه ليلا فهي الصديقة التي تمده بالأخبار الصحيحة الطازجة رغم عيون النظام وتكتمه واستماتته في تقطير ما ينشر من أخبار خاصة و أنه منذ اغتيال صالح بن يوسف واعدام مجموعة ما يسمى بالانقلاب ومعركة بنزرت وقضية أحمد بن صالح أصبح الوضع على غاية من الخطورة والنار تشتعل بقوة تحت رماد داكن، تحس ولا ترى تؤججها قوى معارضة من مختلف التوجهات والاتجاهات اغتنمت سلبيات الحكم هذه واستثمرتها بذكاء. و حالما يخرج مباشرة من مدرسته ينطلق صاحبنا إلى المطعم الجامعي" البالماريوم" فيجلس مع الطلبة ويتحادث مع من يعرفهم منهم حول أوضاع أدبية واجتماعية وسياسية شتى... و أجواء الطلبة وهمومهم و انتماءاتهم السياسية و أفكارهم وما يعتمل داخلهم، هو الوضع الصحيح الذي لا يصل الجرائد ولا تتجرّأ هذه على ذكره ما عدا "هنا لندن" وفي بعض الأحيان "Jeune Afrique" وتعيش على وقعه و نبضه الحياة بكل تفاصيلها ولذلك كان النظام يخشى هذه الأماكن فيشدد عليها الخناق ويقوم أعوانه من المدنيين بحملات روتينية، فجئية و

سرية من حين لآخر بحثا و تفتيشا، وتنقيبا في الهويات والكتب و الأمتعة ويغيب بعض من كانوا معه عن الأنظار كمن عاد إلى حيّه و ربعه أوغاب في أعماق الدوار. فما في أعماق البحار، أكثر بكثير مما يطفو على سطحها...

وبعد معرفة المكان واستكشافه وفهم بعض غموضه التاريخي بدأ صاحبنا يتحسّس الأفكار والآراء المنتشرة في أجواء الدائرة المتواجد فيها، بين نهج مرسيليا وسوق البلاط، سياسية كانت أم ثقافية واجتماعية واستقراؤها وغربلتها وسبر أغوارها... أحداث تأثر بها ونقشت على عارضة وجدانه...

ومنها ما يتداول عن معركة بنزرت فتشوبه الاتجاهات والتوجهات لكل راو بين معتدّ بها وبقوة الموقف فيها وبين من يعتبرها مغامرة لم يُقرأ لها حساب ولم تدرس جيدا لعدة أسباب. تكتب هيفاء مزلوط في الموقع[11] "حلقت الطائرات الفرنسية على مستوى منخفض في سماء بنزرت. كنت في وسط المدينة وكانت النو افذ تنفجر والناس يهرعون! كان ذلك أشبه بزلزال. لم يكن أحد يفهم ما يحدث"، هكذا يروي طارق دربال، وهو عسكري متقاعد، ما عاشه لمّا كان في سن المراهقة آنذاك. لم يكن

[11] https://inkyfada.com/ar/2020/10/27

يعلم، حينها، أن الطائرات التي شاهدها لتوه كانت تقل مظليين فرنسيين استعدادًا للمعركة القادمة .

بدأت المواجهات في 19 جويلية 1961. تونس وفرنسا تتنازعان من أجل بنزرت. على الرغم من استقلال تونس منذ 1956، لا يزال الجنود الفرنسيون يحتلون القاعدة العسكرية بالمدينة ويحافظون على تواجدهم أيضًا في جنوب البلاد. إذ كانت بنزرت تمثّل نقطة استر اتيجية في البحر الأبيض المتوسط بالنسبة لفرنسا، لا سيما في سياق الحرب الجز ائرية. وكانت تأوي آلاف الرجال وتشكل مركزا لوجستيا ونقطة إمداد أساسية للجيش الفرنسي. تضيف هيفاء مزلوط.

من ناحية أخرى، حرصت تونس على استعادة كل أراضيها واسترداد سيادتها بالكامل. أمّا على الصعيد الدولي، تناقض دور الرئيس الحبيب بورقيبة بين الاصطفاف مع الغرب ودوره في حركة عدم الانحياز. ومن خلال معارضته للجيش الفرنسي، أعاد بورقيبة تأكيد موقفه كزعيم للاستقلال.

بين 19 و22 جويلية 1961، واجه أحد أقوى الجيوش في العالم القوات التونسية حديثة التشكيل. واحتمى المواطنون بمنازلهم هربًا من القتال بينما كانت الجهتان تخوضان المعركة في الشوارع.

تونس، سنة 1961. تمّ تجنيد عبد الحميد الرياحي، البالغ بالكاد من العمر 22 سنة، للقتال في بنزرت، مدينة لم يكن يعرفها في ذلك الوقت. حول القاعدة العسكرية، تتواصل منذ عشرة أيام أعمال حفر الخنادق بلا هوادة. في الميدان، عبد الحميد الرياحي مسؤول عن فيلق كامل من الجنود استعداداً للقتال. يتذكر المحارب القديم " :تلقيت الأمر بفتح النار. قمت بإطلاق النار على مروحية فرنسية بواسطة مدفعي ."ينجح في إصابة هدفه لكن ليس لديه الوقت الكافي للتأكد مما إذا كانت المروحية قد سقطت بالفعل، ويستمر القتال دون انقطاع.

هذه الاشتباكات هي نتيجة شهور بل سنوات من التوتر حول ملف بنزرت. ولم تفلح المفاوضات ومحاولات الضغط العديدة في إقناع أي من الطرفين بالتنازل. تسارعت الأمور خلال صيف عام 1961 حيث أطلق الحبيب بورقيبة إنذارًا نهائيًا: على الفرنسيين المغادرة قبل منتصف ليل 19 جويلية. في المقابل، أعلن الجنرال ديغول أنه " مجبر " على اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية القاعدة.

في الليلة الفاصلة بين 19 و20 جويلية، باشر الجنود والمتطوعون التونسيون العدوان وحاصروا القاعدة العسكرية و أقاموا الحواجز وعرقلوا حركة المرور ليشنوا الهجوم بعد ساعات قليلة. كان الجيش

الفرنسي قد تلقى أوامر واضحة في وقت سابق من نفس اليوم: في حالة حدوث عدوان، يجب على الجنود الرد.

يصف الجندي السابق توفيق عياد " :في الساعات الأولى من يوم 20 جويلية، هاجموا المواقع التونسية مباشرة في الحفر التي كانوا يختبؤون فيها. لقد وقعت مجزرة حقيقية ."كان الجيش الفرنسي أكثر تدريبًا وجاهزية وبالتالي سرعان ما كانت له الغلبة على تونس التي تكبدت خسائر فادحة .

يواصل توفيق عياد حديثه، وهو باحث في معركة بنزرت " :لم يكن الجنود جاهزين على الإطلاق من وجهة نظر عسكرية. كان ذلك خطأً فادحًا."! وجد الجنود الذين لم يتلقّوا ما يكفي من التدريب، أنفسهم في مواجهة " أسطول من حاملات الطائرات ."قصفت القوات الجوية الفرنسية الجنود بشكل مباشر وسيطرت على جزء كبير من المدينة .

انتقلت المعركة مع مرور الأيام إلى شوارع بنزرت. يبذل عبد الحميد الرياحي قصارى جهده لمواجهة هجمات العدو. ومن حوله تتناثر الجثث والجرحى على الأرض. تواصل هيفاء مزلوط.

عندما علم بإصابة عدة جنود من فيلقه، استقل سيارة إسعاف وعَبَر المدينة لنقل الضحايا. تمكن من تفادي الطلقات وإعادتهم إلى الثكنات تحت قصف الطائرات الفرنسية .

يروي عبد الحميد الرياحي " :كان الأمر مرعباً والجرحى في كل مكان والناس يصرخون ويبكون. عدد القتلى أكثر من الأحياء. كنت محظوظا للغاية بنجاتي من هذه المعارك". تكتب هيفاء مزلوط.

وتقول الموسوعة الحرة "ويكيبيديا": "في 19 جويلية 1961، قامت قوات الجيش التونسي صحبة آلاف من المتطوعين بحصار القاعدة و سارت المعركة في البداية لصالح التونسيين إذ تم اقتحام مركز التموين الفرنسي بالمصيدة، كما نجحت المدفعية التونسية في تحطيم سبع طائرات فرنسية في مدارج مطار سيدي احمد و مقتل وجرح العديد من المظليين الفرنسيين القادمين من الجزائر وجرت محاولات لاقتحام ترسانة ثكنة منزل بورقيبة، فأبرق الأميرال موريس أمان، إلى القيادة الفرنسية بباريس يطلب المساندة فأرسل الجيش الفرنسي معدات مدرعة و آليات مزنجرة و فرق هندسة ميدانية ومدافع بعيدة المدى وبطريات هاون و حوصرت المياه الإقليمية التونسية بالبوارج الحربية و حاملة الطائرات كليمونسو[12] والبارجة الثقيلة جورج ليق و الوحدات المظلية

المنضوية تحت لواء ليجيون ايترونجار(légion étrangère) و قامت القوات الفرنسية بشن هجوم معاكس كاسح مستندة على تعزيزات

[12] *Clemenceau* (porte-avions)

إضافية من الجزائر و تمكنت من احتلال جزء كبير من المدينة فتعرّض بورقيبة لانتقاد شديد من معارضيه و اتهموه بالغرور لعلمه المسبق بعدم تكافئ موازين القوى بين جيش تونسي ناشئ لم يمض على تأسيسه سوى خمس سنوات و بين ثالث أكبر قوة عسكرية في العالم بعد الولايات المتحدة و الاتحاد السوفيتي." تقول الموسوعة الحرّة.

وكانت هذه المعركة بكل ما أسالته من حبر سببا مباشرا في الجلاء التام وخروج آخر جندي فرنسي من التراب التونسي يوم 15 أكتوبر 1963.

كان "عم علي" بحكم تواجده في مكانه الاستراتيجي أمام مبنى الكوليزاي، تحفة ذاك الزمن، حيث مداخل المبنى ومقاهيه وبازاراته وقاعة السينما وحيث يؤدي إلى شارع باريس ونهج مرسيليا واحتكاكه بالناس على مدار اليوم ملما بما يحدث بأدق التفاصيل إذ يحادث الجميع ويأخذ من الجميع. وكأنه يملك أرشيفاتهم، كان يعرف كل كبيرة وصغيرة عن رجالات الفن والسياسة والثقافة آنذاك.

ومن أشهر رجالات النظام الحاكم في عقدي الستينات والسبعينات وحتى الثمانينات محمد الصياح وهو من مواليد سنة 1933 ببلدة بوحجر بالساحل التونسي. في أوت 1962 عينه بورقيبة مديرا مساعدا للحزب الحر الدستوري الجديد وكلفه بإدارة جريدة لاكسيون لسان حال الحزب بالفرنسية .عين عام 1964 مديرا للحزب الاشتراكي

الدستوري (الاسم الجديد للحزب) الذي أصبح الحزب الواحد منذ عام 1963 خلفا لعبد المجيد شاكر. ساند من خلال منصبه سياسة التعاضد التي قادها الوزير أحمد بن صالح إلا أن علاقته مع هذا الأخير ما لبثت أن تصدعت. عيّن في نوفمبر 1969 بعد فشل التجربة التعاضدية كاتبا للدولة للأخبار في حين عوضه على رأس إدارة الحزب حسيب بن عمار ذي التوجهات الليبرالية.

بقي على رأس قطاع الإعلام حتى جوان 1970 تاريخ خروجه من الحكومة إثر ضغوط من زعيم التيار الليبيرالي في الحزب أحمد المستيري .عين على إثرها سفيرا لتونس لدى مكتب الأمم المتحدة في جنيف .عاد إلى تونس في أكتوبر 1971 كوزير للأشغال العامة بعد تجميد بورقيبة لنشاط أعضاء المجموعة الليبرالية داخل الحزب بعد مؤتمر المنستير، ثم عين في جوان 1973 وزيرا للشباب والرياضة .أعيد تعيينه في نوفمبر 1973 مديرا للحزب ووزيرا معتمد لدى الوزير الأول. أصبح الصيّاح أحد أقطاب التيار المحافظ داخل الحكومة إلى جانب الوزير الأول الهادي نويرة ووزير الدفاع عبد الله فرحات وقد كان الحزب ومديره في الواجهة الأولى أثناء المواجهات الدموية بين السلطة والاتحاد العام التونسي للشغل بقيادة الحبيب عاشور .

في جانفي 1978 أضعف موقفه بعد الأحداث خصوصا أن خصومه

اتهموه باستعمال ميليشيا حزبية لقمع معارضيه، وفي مؤتمر الحزب لعام 1979 كان على ذيل قائمة المنتخبين في اللجنة المركزية إلا أن بورقيبة أصر على قراءة اسمه في رأس اللائحة.

هكذا عرف محمد الصياح، وهكذا كتبت الموسوعة الحرة وسجلات التاريخ عن أحد رجال الزعيم بورقيبة في العقود الثلاثة الأولى للاستقلال، بورقيبة الذي اختزل الدولة في شخصه والنضال في شخصه والحزب في شخصه ولا وجود للدولة بدونه وبدون حزبه ونضاله رغم ثقافته وشجاعته وعلومه ومناهله وخصاله ومآثره في بناء الدولة العصرية ومقوّماتها... هذه التي خلدته في أذهان معاصريه ومن جاء بعدهم خاصة في ميادين الصحة والتعليم والدبلوماسية والشؤون الاجتماعية...

وما أكثر ما يقال عن انشقاقات مؤتمر 1955 وعن وقائع الستينات والسبعينات وهموم مخلفاتها كمعركة بنزرت واغتيال صالح بن يوسف وإعدام مجموعة الأزهر الشرايطي وأحداث تعاضد أحمد بن صالح وبيان جربه والخميس الأسود وأحداث قفصه وأحداث الخبزوغيرها... وهذه تولد عنها حراك ثقافي وسياسي واجتماعي كبير أثر على مسيرة الحكم ولم يحرك ساكنا في الرؤية السياسية المتبعة لماسكي دفته... وطوال عقدي الاستقلال وقف الاتحاد العام التونسي للشغل بكلّ

قوّته مع نظام الزعيم بورقيبة إلى أن تضاربت المصالح وتراكمت المشاكل وتأزمت الخلافات وسقطت الأرواح.

من رجالات تلك الفترة أيضا أحمد المستيري[13] "الذي ولد بضاحية المرسى في عائلة ثرية من كبار الملاكين العقاريين المرتبطين لمدينة تونس، وتعود بجذورها إلى مدينة المنستير .وهو ابن الطاهر المستيري .انتمى منذ مطلع شبابه في عام 1942 إلى الشعبة الدستورية بالمرسى صحبة الطيب المهيري .ثم درس الحقوق بالجزائر فيما بين 1944 و1948 ، ثم بمعهد الدراسات السياسية وكليّة الحقوق بباريس حيث أحرز على الإجازة. ومنذ عام 1948 انخرط في مهنة المحاماة بتونس العاصمة

أصبح أحمد المستيري عضو جامعة تونس للحزب الحر الدستوري الجديد عام1950 ، وأصبح يتعاون مع كل من الباهي الأدغم و الهادي نويرة في جريدة ميسيون الأسبوعية الناطقة بالفرنسية. وفي جانفي 1952 دخل الديوان السياسي السري للحزب الذي أصبح يقوده فرحات حشاد والصادق المقدم .ودافع كمحام عن المناضلين الوطنيين أمام المحاكم المدنية والعسكرية الفرنسية، وقد تعرض آنذاك إلى محاولة اغتيال من قبل المنظمة الإرهابية المسماة اليد

[13] ويكيبيديا الموسوعة الحرّة

الحمراء .وفي أوت1954 ، أصبح مدير ديوان وزير الداخلية المنجي سليم . وفي أول حكومة شكلها الحبيب بورقيبة بعد الاستقلال، في 14 أفريل 1956 سمي المستيري على رأس كتابة الدولة (أي وزارة) العدل، حيث ساهم في تونسة الجهاز القضائي، وفي تحرير القوانين الجديدة ومن ضمنها مجلة الأحوال الشخصية .ثم بعد فترة وجيزة أصبح ممثلا لبلاده في مجلس الأمن للأمم المتحدة إثر النزاع مع فرنسا في إطار قصف ساقية سيدي يوسف في 8 فيفري 1958 وفي 10 ديسمبر 1958 ، أسندت إليه حقيبة المالية والتجارة، وكان من أولوياته آنذاك إبرام سلسلة من الاتفاقيات مع فرنسا، وإصدار عملة جديدة هي الدينار التونسي .وفي عام1960 ، سمي سفيرا في الاتحاد السوفييتي ثم في الجمهورية العربية المتحدة عام1961 ، ثم في الجزائر عام .1962 وفي 24 جوان1966 ، عاد إلى تونس ليتولى وزارة الدفاع. وبعد أن عبر علنيا عن معارضته لسياسة التعاضد الفلاحي والتجاري لأحمد بن صالح، طُرد من الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم في 29 جانفي .1968 وكان عليه أن ينتظر إزاحة أحمد بن صالح، حتى تقع إعادته إلى الديوان السياسي للحزب في 23 أفريل .1970 وفي 12 جوان سمي وزيرا للداخلية. غير أنه استقال في 21 جوان 1971 نظرا لعدم الوفاء بالوعود التي قطعها الرئيس بورقيبة بخصوص الانفتاح

السياسي. وخلال مؤتمر الحزب المنعقد في أكتوبر من نفس السنة، وقع انتخابه في اللجنة المركزية خلف الباهي الأدغم. وإزاء التخوف من سيطرة الليبراليين على الحزب، علق بورقيبة نشاط أحمد المستيري، ثم طرده منه نهائيا في 21 جانفي .1972 وفي 20 جويلية 1973 طُرد من البرلمان الذي كان عضوا فيه منذ الاستقلال .

في جوان1978 ، أسس أحمد المستيري حركة الديمقراطيين الاشتراكيين وتولى أمانتها العامة. وفي عام 1981 شارك حزبه في أول انتخابات تعددية انتهت بالإعلان عن فوز ساحق للحزب الحاكم. وقد كشف أكثر من مسؤول فيما بعد أن تلك الانتخابات وقع تزويرها. وفي أفريل1986 ، وقع إيقافه وسجنه ثم أخضع للإقامة الجبرية إثر مشاركته في مظاهرة منددة على العدوان الأمريكي على ليبيا .و انسحب طوعيا من الأمانة العامة لحركة الديمقراطيين الإشتراكيين، ووضع حدا لكل نشاط سياسي."

أما المناضل النقابي الحبيب عاشور فقد عرفته أيضا هذه الفترة وترك فيها بصماته سواء أكان جنبا إلى جنب مع النظام أو معارضا له ولسياساته. وقد تولى عاشور[14] الأمانة العامة للاتحاد العام التونسي للشغل في ثلاث مناسبات مختلفة خلال ثلاثة عقود من 1963 إلى

[14] التراتونس 14 مارس 2019

1965، ثم من 1970 إلى 1978 وأخيرًا من 1984 إلى 1989 ليكون أكثر الأمناء العامين قيادة للاتحاد منذ تأسيسه. كما كان نائبًا في البرلمان في عديد الدورات عن الحزب الدستوري الحر قبل الانسلاخ عنه عام 1978، عدا عن توليه منصب نائب رئيس الجامعة العالمية للنقابات الحرة.

وعُرف عاشور بتبنيه لرؤية نقابية تعطي الأولوية للاجتماعي المهني على حساب السياسي، وهي رؤية متخفّفة من المحدد الأيديولوجي والسياسي في تحديد خيارات الاتحاد العام التونسي للشغل، وهو الذي قاد من أجل ذلك معركة استقلالية المنظمة الشغيلة على الحزب الحاكم ما كلفه الاعتقال والسجون في أكثر من مناسبة. وبات يُعرف عمومًا هذا الخط داخل المنظمة الشغيلة باسم "الخط العاشوري" نسبة إليه .

وُلد الحبيب عاشور بتاريخ 25 فيفري/شباط 1913 بقرية العباسية في جزيرة قرقنه التي أنجبت بعد سنة أيضًا الزعيم فرحات حشاد. تحصل على الشهادة الابتدائية عام 1928 ثم استكمل مشواره الدراسي في اختصاص الكهرباء في المعهد الفني.

انضم عام 1935 للحزب الحر الدستوري الجديد بعد عام من مؤتمر قصر هلال، كما انضم نقابيًا للكونفيدرالية العامة للشغل ولكنه

انسلخ منها مع رفيه دربه فرحات حشاد بعد أن وجدا أنفسهما وسط الصراع والتجاذبات بين الشيوعيين من جهة والاشتراكيين من جهة أخرى وذلك بما لا يتفق مع مصالح التونسيين.

انسلخ الرفيقان من الكونفيدرالية ليؤسسا عام 1944 اتحاد النقابات المستقلة بالجنوب عام 1944، ثم كان تأسيس صرح الاتحاد العام التونسي للشغل في 20 جانفي/كانون الثاني 1946 وتولى خطة كاتب عام الاتحاد الجهوي بصفاقس.

خاض الحبيب عاشور خلال هذه الفترة نضالات ضد المحتل الفرنسي إذ آوى في منزله الحبيب بورقيبة في مارس/آذار 1945 قبل تهريبه إلى ليبيا ومنها إلى المشرق العربي. نقابيًا، ساهم في إضراب 23 جانفي/1946 بعد استبعاد السلطة الفرنسية الاتحاد من لجان العمال، وثم الإضراب العام 4 أوت/أغسطس 1947 للمطالبة بالزيادة بالأجور، ليشهد يوم 5 أوت/أغسطس 1947 مصادمات عنيفة بين المحتل الفرنسي والعمال المضربين ما أدى لاستشهاد 29 تونسيًا وتسجيل ما لا يقل عن 150 جريحًا من بينهم كاتب عام الاتحاد الحبيب عاشور. وقد أُلقي القبض عليه وجند الحزب الدستوري ثلاثة محامين للدفاع عنهم هم صالح بن يوسف والهادي نويرة ومحمد مقني، لكن

صدر حكم ضده لمدة 5 سنوات سجنًا و10 سنوات إبعادًا قبل إلغاءه لاحقًا.

ألقت قوات الاحتلال القبض على الحبيب عاشور مجددًا بتاريخ 19 جوان/يوليو 1947 بتهمة حمل السلاح والإعداد لثورة ليُنفى بجهة زغوان مع وضعه تحت الإقامة الإدارية. عاد في أواخر عام 1954 إلى صفاقس ليتولى من جديد الكتابة العامة للاتحاد الجهوي للشغل، وكان قد اغتيل رفيق دربه فرحات حشاد في ديسمبر/كانون الأول 1952 وقبله القيادي في الحزب الدستوري الحر الهادي شاكر في سبتمبر/أيلول 1953.

عودة عاشور للاتحاد الجهوي بصفاقس تزامنت مع تصاعد الخلاف وثم الصراع بين رئيس الديوان السياسي للحزب الدستوري الحر الحبيب بورقيبة والأمين العام صالح بن يوسف على خلفية الموقف من اتفاقيات الاستقلال الداخلي.

كان الحبيب عاشور داعمًا وحليفًا للحبيب بورقيبة داخل الحزب الدستوري الحر خاصة منذ مؤتمر صفاقس 55، وتواصل التحالف بين الرجلين بعد الاستقلال لفترة طويلة امتدت إلى غاية أواسط السبعينيات قبل تصدّعه.

ساهم عاشور، في البداية وبصفة نشطة، في تعزيز كفة الحبيب بورقيبة على حساب صالح بن يوسف تحديدًا عبر مؤتمر الحزب الحر الدستوري في صفاقس في نوفمبر/تشرين الثاني 1955 الذي قامت عناصر الاتحاد العام التونسي بالشغل بحمايته. وقد تحالف إثره اتحاد الشغل الذي كان يتولى أمانته العامة أحمد بن صالح مع الحزب الدستوري في إطار الجبهة القومية في انتخابات المجلس القومي التأسيسي عام 1956.

لكن أبرز عاشور لاحقًا تحفظه على توجهات بن صالح الذي كان يخطط لتكوين حزب عمالي، وقد انعقد المؤتمر السادس للمنظمة الشغيلة في سبتمبر/أيلول 1956 ودعم الشق البورقيبي الحبيب عاشور الذي كان عضوًا في اللجنة المركزية للحزب الدستوري غير أن عاشور مُني بهزيمة قاسية. إذ حصل أحمد بن صالح على 1278 صوتًا مقابل 537 صوتًا فقط للحبيب عاشور الذي رفض هذه النتائج وانسلخ من الاتحاد ليؤسس منظمة نقابية جديدة تحمل اسم "الاتحاد التونسي للشغل" الذي قال إنها تهدف للعودة إلى مبادئ حشاد، وذلك بدعم من بورقيبة.

أُبعد أحمد بن صالح، في الأثناء، ليعوضه أحمد التليلي على رأس الأمانة العامة للاتحاد العام التونسي للشغل، ثم انعقد لاحقًا مؤتمر توحيدي

بين الاتحاد والمنظمة التي أنشأها عاشورفي سبتمبر/أيلول 1957. عاد، إذن، الحبيب عاشورللمنظمة التي أسسها مع حشاد في خطة أمين عام مساعد قبل أن يصعد للأمانة العامة لأول مرة في مارس/آذار1963 بدل أحمد التليلي وذلك إلى حدود 1965. وقد طُرد سنتها أيضًا من الديوان السياسي للحزب الاشتراكي الدستوري على خلفية قضية "البابور" بعد احتراق الباخرة التابعة لشركة إحياء جزر قرقنة التي كان عاشور يتولى خطة الرئيس المدير العام لها، ليودع السجن في جويلية/يوليو 1965 ولم يطلق سراحه إلا عام 1967. وهي قضية يؤكد نقابيون ومؤرخون أنها مفتعلة على خلفية رفض عاشورلمخرجات مؤتمر الحزب عام 1964 التي قضت بتبني النهج الاشتراكي ووضع اليد على المنظمات الوطنية.

لكن لم ينفض التحالف بين عاشور وبورقيبة، إذ عاد الزعيم النقابي لقيادة المنظمة الشغيلة بعد مؤتمر خارق للعادة في ماي/آيار 1970 متحالفًا مع الحزب الاشتراكي الدستوري ومستعيدًا عضويته في اللجنة المركزية للحزب، ورفض عديد الإضرابات العمالية بداية السبعينيات، كما هاجم الطلبة اليساريين في اجتماع للحزب على خلفية أحداث فيفري/شباط 1972 قائلًا: "إننا نقول للرّئيس بورقيبة وللشّعب التّونسي من جديد بأن البلدان الشّيوعية لها حرس أحمر سُمّي في الصّين الحرس الأحمر الماوي وفي روسيا الحرس الأحمر اللّينيني ونحن في

تونس الحرس الرسمي لبورقيبة وللنّظام التّونسي ونقول لك إن العمّال اليوم معك أكثر من أيّ وقت مضى، بل واُختير عاشور من أعضاء اللجنة العليا للحزب التي كلّفت بتنقيح الدستور والاعداد للمؤتمر القادم للحزب.

بدأ مسلسل الصدام والمواجهة لينهي تحالف الحبيبين، الحبيب عاشور والحبيب بورقيبة، في النصف الثاني من السبعينيات بعد إبداء اتحاد الشغل رفضه للسياسات الاقتصادية للوزير الأول الهادي نويرة بعد فترة تعاون أشبه بالتحالف كانت مع نويرة نفسه بداية السبعينيات. تُرجم التصدع عبر تصاعد وتيرة الإضرابات في أواسط السبعينيات ومن ذلك تسجيل 372 إضرابًا عام 1976، بل بلغت ساعات العمل الضائعة أكثر من 1.2 مليون ساعة عمل عام 1977.

أدى الاحتقان والتراشق بالتهم بين الحكومة و اتحاد الشغل لاستقالة الحبيب عاشور من الحزب بداية جانفي/كانون الثاني 1978 معتبرًا أن وجوده في الحزب والاتحاد كان متناقضًا مع مسؤولياته النقابية، وهو ما جعله عرض لحملة من صحافة الحزب الحاكم معتبرة أسباب استقالته واهية وتحمل نزعة دخيلة وهدامة.

شهد ذلك الشهر المشؤوم أحداثًا دامية ظلت ورقة سوداء في تاريخ تونس المعاصر. إذ اعتمدت السلطة في صدامها مع النقابيين على

مليشيات تابعة للحزب الحاكم، وقد بلغت هذه الصدامات أوجّها يوم 20 كانون الثاني/يناير 1978 في ذكرى تأسيس المنظمة الشغيلة التي ردت بإعلان الإضراب العام يوم الخميس 26 من نفس الشهر.

واجهت السلطة بالقمع والاعتقال المحتجين يوم الإضراب وحصلت صدامات عنيفة ما أدى لإعلان حالة الطوارئ ونزول الجيش للشارع لأول مرة منذ الاستقلال. وقد خلف "الخميس الأسود" مئات القتلى والجرحى وامتلأت السجون بآلاف من العمال والنقابيين والطلبة وغيرهم. تحدثت الحكومة لاحقًا عن 52 قتيلًا و325 جريحًا، فيما تحدّث المعارض أحمد المستيري عن 140 قتيلًا وتتحدث تقارير مستقلة عن 300 قتيل، ولا يزال التضارب حول العدد النهائي لضحايا ذلك اليوم الأسود.

دفعت السلطة لانعقاد مؤتمر استثنائي لاتحاد الشغل في فيفري/شباط 1978 داعمة النقابيين الداعمين للتحالف بين الاتحاد والحزب الحاكم، ليقع إسقاط الحبيب عاشور من الأمانة العامة، وكان قد اعتقل وحوكم الحبيب عاشور بالسجن لمدة 10 سنوات مع الأشغال الشاقة، قبل أن يقع إطلاق سراحه بعد عام واحد.

ثم لم يعد الزعيم النقابي الحبيب عاشور إلى المنظمة الشغيلة إلاّ في أواخر سنة 1981 في خطة رئيس التي لم يسبق أن تولاها إلا

الشيخ محمد الفاضل بن عاشور فجر تأسيس الاتحاد قبل إلغائها لاحقًا. وقد جاءت هذه العودة المتجددة في فترة تصاعد الصراع داخل السلطة لخلافة بورقيبة وبعد تشكيل حكومة محمد مزالي، ليواكب وقتها أحداث الخبز عام 1984، وقد عاد في نفس العام لتولي خطة الأمين العام.

ولكن ما لبث أن زُجّ به مجددًا في سجن الناظورسيء السمعة بداية عام 1986 في قضية "كوسوب" المفتعلة وهو بعمر 73 سنة في حالة صحية متدهورة وذلك بأمر شخصي من الحبيب بورقيبة بعد بزوغ نجم عاشور والحديث في الكواليس عن سعيه لخلافته. وروى الوزير الأول محمد المزالي في مذكراته أن عاشور وجه من سجنه رسالة إلى بورقيبة شرح فيها وضعيته الصحية الصعبة غير أن رئيس الجمهورية مزقها ورماها في سلة المهملات، وقد نُقل عاشور إلى المستشفى العسكري بسبب تعكر صحته داخل السجن قبل الاضطرار لإطلاق سراحه مع وضعه رهن الإقامة الجبرية التي رُفعت عنه بعد انقلاب الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي .

غادر ابن قرقنة تباعًا الاتحاد الذي أسسه في ظل تحالف الرئيس الجديد مع قيادات نقابية أدارت ظهرها لزعيمها بعد انقلاب 1987، ليعتزل "أسد البطحاء" العمل النقابي، ويتوارى عن الانظار

ويؤلف عام 1989 مذكراته بعنوان "حياتي السياسيّة والنقابيّة 1944-1988.. حماس وخيبات."

كانت الحركة الثقافية على أشدها في تلك الفترة وتشهد دور الثقافة ابن خلدون و ابن رشيق (التي كانت تسمى في الخمسينات تباعا دار الثقافة الفرنسية ودار الثقافات الخاصة بالجالية الإيطالية) والنادي الثقافي الطاهر الحداد خاصة أنشطة ثقافية مميزة من ندوات فكرية وأمسيات شعرية ومعارض تشكيلية ومسارح ومنتديات تنبع من وجدان الشعب وتتحدث عن آماله و أحلامه و طموحاته ويتبناها المبدعون والمثقفون ويتهافتون على دعمها ونشرها و انجاحها ... ناهيك عما يدار في الفضاءات الجامعية سرا و علانية من مخاض جديد غير معترف بالسائد والموروث وغير مرحب به من طرف النظام القائم و أعوانه ومريديه. مسرح جديد وموسيقى جديدة وفن ملتزم وحركات سياسية يمينية ويسارية تتصارع على الزعامة و افتكاك المقود ممن يحكم بيد من حديد وممن أمضى شبابه في مقارعة المستعمر والمنافي والسجون و اكتسب أبجديات الحكم والقانون...

وثقافة أوساط المجتمع الطالبي في السبعينات، هي ثقافة يغلب عليها الطابع الثوري "[15] هي عبارة عن ظاهرة ثقافية مضادة للنظام المؤسسي تطورت في البداية ضمن المملكة المتحدة والولايات المتحدة ثم انتشرت حول معظم العالم الغربي بين أوائل ستينيات ومنتصف سبعينيات القرن العشرين، ولعبت كل من لندن ونيويورك وسان فرانسيسكو دوراً مركزياً لأنشطة الثقافة المضادة. اكتسبت الحركة الإجمالية زخماً في أوان تزايد أثر حركة الحقوق المدنية للأميركيين الأفارقة، وأضحت ثورية في مواجهة توسع حرب الحكومة الأميركية على فيتنام... ولدت كثير من الحركات المحورية المرتبطة بهذه القضايا في ثقافة الستينات المضادة أو تطورت فيها ." تضيف الموسوعة.

"اعتناق الروح الخلاقة هذا كان ملحوظا خاصة في أعمال فرق من جيل الاحتلال البريطاني مثل البيتلز وصناع الأفلام الذين تمتعوا بتقليص الرقابة على عملهم. وبالإضافة إلى البيتلز المبتكرين فالكثير من الفنانين والكتاب والمفكرين من عبر طيف المجالات والتخصصات ساهموا في تحديد الحركة المضادة.

هناك عناصر عديدة ميزت حركة الستينات المضادة عن حركات معاداة للسلطوية من الفترات السابقة. طفرة الإنجاب بعد الحرب العالمية

---

[15] تقول عنها wikipedia

الثانية، أي البايبيبوم"baby-boom" ، أدت إلى عدد غير مسبوق من الشباب الذين يحتمل أن يكونوا ساخطين ويشاركوا في إعادة فهم وتحديد توجيه الولايات المتحدة ومجتمعات ديموقراطية أخرى. وثروة فترة ما بعد الحرب أتاحت للكثير من جيل الثقافة المضادة الفرصة لأن يتخطوا التركيز على توفير الموارد المادية الضرورية للمحافظة على الحياة التي كان والدوهم من جيل الكساد الكبير يكافحون لأجلها. ومن الملاحظ كذلك أن نسبة كبيرة من طائفة سلوكيات و"قضايا" حركة ثقافة الستينات المضادة تبناها التيار العام من المجتمع، وخصوصا في الولايات المتحدة، مع أن نسبة المشاركين في الثقافة المضادة مثلت أقلية اجتماعية بوضوح.

ابتدأت فترة الثقافة المضادة أساساً باغتيال جون ف. كينيدي في نوفمبر 1963. واُستوعب في التيار العام من الثقافة الشعبية مع إنهاء مشاركة الولايات المتحدة العسكرية في جنوب شرق آسيا وإلغاء عملية التجنيد الإجباري في 1973، ونهائياً بعد استقالة الرئيس ريتشارد نيكسون في أغسطس 1974 ." تكتب الموسوعة الحرة...

"بأوسع معانيها، انبثقت ثقافة الستينات المضادة من التقاء ناس و أفكاروقضايا وظروف وتطورات تقنّية وهو ما لعب دور المحفز للتغيير الاجتماعي والتفكيري السريع بصورة استثنائية في تلك المرحلة."

"الحركة الطلابية جزء لا يتجزأ من الحركة الشعبيّة"[16]، هذا أحد الشعارات المركزيّة للاتحاد العام لطلبة تونس منذ حركة 5 فيفري 1972" ومن أهم أبجدياته.

ويعود تأسيس الاتحاد العام لطلبة تونس إلى بداية الخمسينات، حيث انعقد مؤتمره التأسيسي في جويلية 1953 في باريس. هذه المنظّمة الطلابيّة شهدت منذ ذلك التاريخ انعقاد 25 مؤتمرا لعلّ أهمّها المؤتمر الاستثنائي سنة 1972 الذي شهد عزل الدستوريّين الذين سيطروا على الاتحاد منذ التأسيس وانقلبوا على نتائج مؤتمر 1971، فكانت ما يسمّى "حركة 5 فيفري 1972. تعود أهميّة هذا المؤتمر إلى كونه مثّل منعرجا حاسما في تشكيل الطبيعة الإيديولوجية للاتحاد وظهور الشعارات المركزيّة للمنظّمة الطلابيّة:

– من أجل جامعة شعبية وتعليم ديمقراطي وثقافة وطنية

– الحركة الطلابية جزء لا يتجزأ من الحركة الشعبية

– القضية الفلسطينية القضية المركزية لحركة التحرر الوطني العربية

– من أجل مساندة حركات التحرر الوطني ومعارضة الامبريالية العالمية

– من أجل القطيعة السياسية والتنظيمية مع السلطة.

---

[16] nawaat.org/2014/03/13

فقد مثلت الانتفاضة الطلابية[17] في فيفري 72 ذروة التعبير عن رفض الحركة الطلابية واستنكارها الشديد لاختيارات السلطة وممارساتها، فكانت بحق لحظة فارقة في تاريخ الحركة الطلابية، لحظة اقترن فيها انبجاس الفكر بتحرر الإرادة. إنّها فعل إبداع في مستوى الرؤية والممارسة وتعبير عن عبقرية الجماهير الباسلة حينما تختار طريق الهمة والفتوة والمساهمة بقوتها ووحدتها في تدبير شؤونها ورفض كل أشكال المهانة والمذلة." يقول الباحث منير العيادي.

"هناك حدثان مباشران مهدا لحركة فيفري 72:

. الأوّل هو طرد الطالب فريد بن شهيدة المرسم بالسنة الأولى بكلية العلوم بتونس لمدة سنة، بعد مثوله أمام مجلس التأديب بسبب "موقفه الماس من كرامة أستاذة تونسية". وقد شنّ طلبة كلية العلوم يوم 21 جانفي 72 إضرابا عاما عن الدروس للمطالبة بإرجاعه فورا.

.والثاني هو البدء في محاكمة المناضل أحمد بن عثمان الرداوي وزوجته سيمون للوش. وكان أحمد بن عثمان قد وقعت محاكمته سنة 1968 في إطار قضية" تجمع الدراسات والعمل الاشتراكي التونسي" من قبل "محكمة أمن الدولة" ثم أطلق سراحه عام .1970

[17] https://nawaat.org/2010/04/08/ بقلم الأستاذ منير العوادي

وقد دفع هذان الحدثان أغلبية الطلبة إلى إعلان إضراب عام في كافة المؤسسات الجامعية يومي الاثنين 31 جانفي والثلاثاء 1 فيفري 1972. ويوم محاكمة أحمد بن عثمان تظاهر الطلاب أمام قصر العدالة بشارع باب بنات وساحة باب سويقة حتى وصلوا إلى قلب العاصمة بشارع بورقيبة." يكتب الباحث منير العوادي.

ويواصل "رغم أهمية هذين الحدثين، إلا أنّ المحرك الأساسي لحركة فيفري هو ما جدّ في المؤتمر الثامن عشر للاتحاد العام لطلبة تونس الذي انعقد في الفترة المتراوحة ما بين 12 و20 أوت 1971 بمدينة قربة بولاية نابل. كان المؤتمر مبرمجا لأن يدوم أربعة أيّام، ولكن نتيجة للصراع القوي حول البرامج وخاصة في لجنة السياسة العامة حول استقلالية الاتحاد وآليات تكريس ذلك، بادرت إدارة الحزب وميليشياته في اليوم التاسع من المؤتمر إلى التدخل السافر وإلغاء اللائحة السياسية العامة ووضع حد لأشغال المؤتمر وتنصيب قيادة صورية قابلة للانصياع لإرادة الحزب الحاكم.

وقد أدّى ذلك إلى انسحاب أغلبية النواب وتعبيرهم في لائحة تضمّ 105 إمضاء على رفضهم للانقلاب وتفويض لجنة إعلامية تتكون من: رشيد مشارك وخالد قزمير وعيسى البكوش وعياض النيفر ومصطفى بن ترجم، لتوضيح ما حدث في هذا المؤتمر لكلّ الأطراف.

منذ هذه الواقعة تفجرت معركة مفتوحة بين الحزب الحاكم وأجهزته من جهة والحركة الطلابية وقواها المناضلة من جهة أخرى.
هذا هو السبب الأقوى الذي جعل حركة فيفري تتخذ نسقا تصاعديا، وتتحوّل من حركة احتجاج إلى انتفاضة طلابية وشبابية شملت كافة أنحاء
القطر." كما يذكر صاحب المقال.
"فلقد تجمع يوم الأربعاء 2 فيفري 1972 بكلية الحقوق حوالي 4000 طالب (من أصل 11 ألف طالب مرسّمين بالجامعة التونسية) للتنديد بقمع السلطة الحاكمة وللتأكيد على عزمهم على عقد المؤتمر 18 الخارق للعادة.
وبالفعل انطلقت أشغال المؤتمر يوم الخميس 3 فيفري 1972 بمشاركة آلاف الطلاب، حيث تكوّنت 5 لجان تحضيرية: اللجنة السياسية العامة، لجنة الشؤون الداخلية، لجنة الشؤون النقابية، لجنة الشؤون الثقافية ولجنة الصحافة والإعلام، وشارك في بعض اللجان (اللجنة السياسية العامة) أكثر من ألف طالب. وقد أفضت أشغال هذه اللجان إلى إقرار شعارات مركزية أو مبادئ أساسية موجهة، أهمها:
. النضال من أجل اتحاد عام لطلبة تونس ديمقراطي وجماهيري ومستقل.

.النضال من أجل ثقافة وطنية وتعليم ديمقراطي وجامعة شعبية.
.اعتبار الحركة الطلابية جزء لا يتجزأ من الجماهير الشعبية.
.مساندة حركة الكفاح الوطني العربية والعالمية.

من أهمّ النتائج التي تمخضت عنها حركة فيفري إعادة طرح قضية الشرعية. وتعتبر هذه المسألة لب العمل السياسي والنقابي إذ من خلالها تتحدد مكانة الهياكل والقرارات والنتائج.

بالنظر لذلك شكلت حركة فيفري 72 منعطفا في تاريخ الحركة الطلابية، إذ رفضت الجماهير الطلابية الموقف الإنقلابي للسلطة، المتمثل في تنصيب هيئة إدارية موالية، وتشبثت بحقها الشرعي في إيجاد هياكل ممثلة.

هناك صدام وتعارض إذن في تصور الشرعية: ما تعتبره السلطة شرعيا هو في نظر الجماهير الطلابية غير شرعي، وما تعتبره السلطة غير شرعي هو في نظر الجماهير الطلابية شرعي." يكتب الباحث منير العوادي.

"هذا التعارض المبدئي سيقع ترجمته في الو اقع الحي، وسيسعى كل طرف إلى تكريس رؤاه وتوجهاته عبر كل ما يمتلك من قوّة ووسائل وأدوات.

شرعيتان متعارضتان: واحدة ترتكز على استعمال حق القوة، والأخرى تعتمد على قوة الحق، وكان لواحدة أن تنكسر ولأخرى أن تنتصر، مهما تنوعت أساليب التشويه والتزوير.

لأوّل مرّة في تاريخ القطر منذ سنة 1956 على الأقل يحدث هذا الأمر: حركة اجتماعية، بجماهيرها وقياداتها، تعلن رفضها لكل أشكال الحجر والوصاية من جهة، وسلطة "أبوية" غاشمة لا تتورع عن استعمال كل أساليب الإكراه والبطش والترويع من جهة أخرى.

لقد حولت حركة فيفري 72 قضية الحرية من مطلب إلى حاجة ضرورية وحيوية وإلى ممارسة اجتماعية، إذ أصبحت كلية الحقوق بتونس في بحر بضعة أيام فضاء حرا ليس فقط لنقد الاختيارات الأساسية للسلطة، بل وضعت وطنية هذه السلطة في الميزان.

لقد كانت حركة إنتليجنسيا. بأتمّ معنى الكلمة. حضر فيها الفكر الثوري بقوة بما هو فكر يقوم على نقد البديهيات وخلخلة القيم السائدة وتفكيك الأراجيف والثوابت المزعومة (السلم الاجتماعية . الوحدة القومية . الفتنة اليوسفية ...). يضيف الأستاذ منير العوادي عبر موقع نواة بتاريخ 7 أفريل 2010 ...

"وقد تدخل في نفس اليوم وزير التربية "القومية" آنذاك محمد مزالي في "مجلس النواب"، وكان مما قاله حول التحركات الطلابية: "إنّ هؤلاء

(ويقصد من قاد التحركات) لا همّ لهم إلا القضاء على جميع ما لهذه البلاد من مكاسب ومن قيم دينية وروحية"، كما أضاف قائلا: "إنّ هذه الأحداث تبيّن بوضوح أنّ أغلبية الطلبة ليسوا مكونين تكوينا تونسيا، لذلك كما قالت الحكومة من قبل، يجب مراجعة محتوى التعليم وبرامجه". (جريدة الصباح التونسية. الأربعاء 9 فيفري 1972. ص 3).

وفي إطار نفس هذه الحملة المسعورة، انعقد تجمع "حاشد"، شاركت فيه. إضافة إلى الحزب الحاكم. كل المنظمات "القومية"، أي المنظمات التي تدورفي فلك السلطة، يوم الجمعة 11 فيفري 1972 بقصر الرياضة بالمنزه، حيث تناول الكلمة الوزير الأوّل آنذاك الهادي نويرة، الذي ذكّر الحضور بالشعارات التي رفعها الطلبة، وهي كما يقول هو: لا ديمقراطية إلا للطبقة الكادحة. الوحدة القومية خزعبلة بورجوازية. الجامعة ليست معملا لتخريج إطارات الدولة. بعتم تونس بالدقيق. ثم أضاف قائلا: "وتوجد شعارات أخرى يخجل الإنسان عند قراءتها، والمؤسف أنّها تتردد في مواطن مكتظة بالفتيات، .... مثل "حرية الصلات الجنسية"، أي حرية الغريزة والإباحية والشهوة الحيو انية". (جريدة الصباح التونسية. السبت 12 فيفري 1972. ص 4).

وفي نفس هذا الاجتماع تدخل الحبيب عاشور الأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل الذي قال هو الآخر: "وكما أنّ الصيني في وطنه

ماويست والروسي في بلده لينينيست والكوبي كاستريست فنحن في تونس بورقيبيست".

ويواصل عاشور: "إننا نقول للرئيس بورقيبة وللشعب التونسي من جديد، بأنّ البلدان الأجنبية الشيوعية أو التي تنسب إلى الشيوعية لها حرس أحمر يسمّى في الصين الحرس الأحمر الماوي وفي روسيا الحرس الأحمر اللينيني وفي كوبا الحرس الأحمر الكوبي، ونحن في تونس الحرس الرسمي لبورقيبة وللنظام التونسي، ونقول له إنّ العمال اليوم معك أكثر من أيّ وقت مضى حتى تضع حدّا لجرائم أعداء الشعب، وتخدم وطننا حتى يكون وطنا عصريا ينعم بالحرية والاستقرار". (جريدة الشعب التونسية. العدد 190. 16 فيفري 1972. ص 7).

وكان الحبيب عاشور قد صرّح يوم الأحد 6 فيفري 1972 لدى إشرافه على اجتماع الإطارات النقابية بولاية نابل: "إنّنا لا نقبل تنظيم إضراب من أجل امرأة صهيونية وإثارة الاضطرابات من أجلها، وإذا لم يدرك الطلبة هذه المعاني، ولم يردّوا الجميل بالمثل، فإنّ الحكومة مضطرّة لاتخاذ تدابير تحفظ بها ناموسها". (جريدة الشعب التونسية. العدد 190. 16 فيفري 1972. ص 10) ...

".. إنّ الجامعة التونسية كما تشكلت في بداية الستينات هي مجمع لمدارس عليا وكليات مبعثرة تخضع لتسييربيروقراطي سلطوي، وليست مؤسسة حرّة ومستقلة تنهض على أساس تشريك الأطراف الفاعلة في رسم تصور لمهامها ووظائفها في مجالي التدريس والبحث وتوفير الإمكانيات الضرورية لذلك.

في فترة الستينات تمكنت الجامعة ـ بما هي عليه ـ من تخريج الأطر، بعد الفراغ الناجم عن رحيل الفرنسيين و أفراد الجالية اليهودية، وخاصّة في مجالات التعليم والوظائف الإدارية والخدمات (البنوك ـ المحاماة ـ وفي فترة لاحقة الطب...). أمّا في السبعينات فقد تقلص هذا الاحتياج وبدأت ظاهرة جديدة في البروز، وهي بطالة خريجي التعليم العالي."

يضيف الأستاذ منير العوادي.

"منذ تلك الفترة بدأ النظام يسلك إزاء الحركة الطلابية سياسة مزدوجة تقوم على تناوب القمع الاحتوائي والقمع المفضوح: الترغيب والترهيب، في محاولة لتلجيمها وجرّها إلى ركابه.

فقد أعلنت الهيئة الإدارية المنصبة عن استقالتها في ديسمبر 72. ووافق وزير التربية آنذاك محمد مزالي على برنامج 73 بمنشور مؤرخ في 15 فيفري 1973.

وبعد شهر من إصدار هذا المشروع سحب النظام اعترافه باللجنة الجامعية المؤقتة، ونظم في أفريل 73 محاكمات سياسية تحت غطاء مجلس التأديب، وأخضع العديد من الطلبة للتجنيد الإجباري. ثم رجع النظام من جديد إلى سياسة الترغيب، إذ أقام حوارات مع "اللجم" في أوت. سبتمبر 73، تمخضت عنها إيقافات جديدة وقمع شرس للطلائع المناضلة. ثم حاول النظام تنظيم أيام ثقافية لتطبيق برنامج مزالي (خلق هيئات في كلّ المؤسسات في الجامعة التونسية ذات طابع إداري بحت كبديل عن الهياكل النقابية المؤقتة). وأمام رفض الطلبة لهذا المشروع رجع النظام إلى أسلوب الترهيب، إذ نظم محاكمتين للطلبة استهدفت 41 طالبا (أفريل 74). وفي ماي 74 سنّ النظام قانون الفيجيل (تنصيب فرق جديدة من البوليس المدني في المؤسسات الجامعية).

وفي 74. 75 رجعت الدوائر الحكومية والحزبية إلى محاولة المناورة من جديد من خلال بعث ما سمي بـ"مشروع الرابطات"، والذي يعني بعث رابطات على نطاق الكليات تكون مستقلة الواحدة عن الأخرى ولكلّ منها مؤتمرها الخاص مع إمكانية الانضمام للهيئة الإدارية المنصبة.

وفي نفس السياق بعث النظام بالاعتماد على الهيئة المديرة المزعومة ما أسماه الهياكل النقابية خارج الكلية. وأمام رفض الطلبة لجأ النظام

إلى بديل آخر تمثل في المؤتمر الصوري بالمنستير (ما سمي بالمؤتمر 19) في صائفة 1975، قوبل بالرفض الجماهيري. وكانت ردة فعل النظام القيام بهجوم شرس تمثل في الطرد التعسفي والجماعي في كل الأجزاء الجامعية (1976). ثم عاد إلى التآمر مرّة أخرى من خلال ما أسماه مؤتمرا استثنائيا أو المؤتمر 20، الذي انعقد ببنزرت في ربيع 77 وقاطعته الجماهير الطلابية، فكانت حملات التجنيد والطرد.

ثم بدأت تحاك خيوط مؤامرة جديدة بداية من 1978 والتي اتفق على تسميتها في الحركة الطلابية "مؤامرة بن ضياء"، التي دعت إلى حلّ مشاكل الطلبة النقابية عبر مجالس الكليات. ولما اكتشف النظام فشل مثل هذه القنوات في تمرير سياسته رجع إلى الاستعمال المكثف للعنف، من خلال الزج بالعديد من الطلبة في المعسكرات.

فلقد تمكنت الجماهير المسحوقة من خلال الانتفاضة الشعبية العارمة في 26 جانفي 1978 من تجاوز القيادة النقابية التي كبّلت الطاقات النضالية للعمال لسنوات طويلة، والتي كانت تسعى إلى استغلال مشاعر السخط والغضب لدى الجماهير الكادحة ومحاولة توظيفها في صراع الأجنحة في السلطة من أجل الحصول هي وحلفائها على مناصب سياسية أعلى.

لكن رغم القمع الدموي ورغم و ابل الرصاص الذي حصد أرواح الكثير من الفقراء والجياع والمحرومين، ورغم تنصيب النظام لقيادة بوليسية على رأس الاتحاد، تمكنت بعض القوى الوطنية والوطنية الديمقراطية في السنوات 78 و79 و80 من الانصهار. ولو نسبيا . في الحركة العمالية. وقد بدأ هذا الانصهار يؤتي أكله في مستوى بعض الهياكل القاعدية للاتحاد العام التونسي للشغل، حيث تواصلت حركة الاحتجاج والرفض لسياسات النظام.

وقد أثار هذا الأمر ذعر السلطة الحاكمة والقيادة المنصّبة وحتى القيادة «العاشورية» (التي كانت تر اقب تطور الأوضاع عن كثب وبقلق بالغ)، فسارعوا جميعا إلى إجراء استباقي يتمثل في عقد "مؤتمر مصالحة"، قبل أن تتنامى "الجرثومة الثورية" داخل الحركة العمالية، وحتى لا يتكرر ما وقع تجريبه في الحركة الطلابية." يكتب الباحث منير العوادي في موقع نواة وإن كانت للسلطة القائمة آنذاك وجهات نظر أخرى.

أما حسام بوجره فقد كتب في موقع[18] انعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد في يوليو (تموز) 1953 بباريس تتويجًا لنضالات الشبيبة الطلابية

[18] www.sasapost.com حسام بوجره قراءة في تاريخ الاتحاد العام لطلبة تونس من 1952 إلى 1988 بتاريخ 2019/09/17

والتلميذية المنخرطة في الكفاح الشعبي ضد الاستعمار المباشر منذ 1881، واستكمالًا لمسار تكوين المنظمة السرية «الاتحاد العام لتلامذة وطلبة تونس» التي أحدثت في 1952 لتجاوز حالة التشتت التي أنتجتها السياسة التربوية الاستعمارية.

لم تعترف السلطات الفرنسية بالاتحاد العام لطلبة تونس لطرحه في لوائحه التأسيسية مقاومة نظام «الحماية» المنتصب في تونس منذ 1881. لاقى تأسيس الاتحاد التلميذي والطلابي دعمًا كبيرًا من القوى السياسية والنقابية الوطنية، وخاصة الاتحاد العام التونسي للشغل، وأمينه العام فرحات حشاد، وقد شارك الاتحاد العام لطلبة تونس في المعركة الوطنية ضد الاستعمار المباشر، وكانت الانطلاقة بإضراب 21 مارس (آذار) 1952 بكامل المعاهد والمدارس تنديدًا بالقمع الاستعماري الوحشي.

- منظمة صوت الطالب الزيتوني

انطلق المسار التأسيسي لمنظمة ناطقة باسم طلبة جامع الزيتونة في أواخر سنة 1949 حتى 10 أبريل (نيسان) 1950 تاريخ اجتماع طلابي كبير أفرز انتخاب «لجنة صوت الطالب الزيتوني» التي أكدت مقاومة

النهج الاستعماري الطامس للشخصية الوطنية، وطالبت بعدم حصر جامع الزيتونة في تعليم اللغة العربية.

هذه المنظمة جاءت أيضًا مناهضة للتوجه الطبقي للتعليم، الذي يخدم أساسًا أبناء المعمرين والطبقات المستثرية على حساب أبناء الشعب المفقر. وقد لخصت مطالبها أساسًا في عصرنة التعليم بجامع الزيتونة، وتحسين ظروف الدراسة والمعيشة، وفتح آفاق التشغيل أمام الزيتونيين عبر تنظير شهاداتهم مع الشهادات الحكومية. منظمة صوت الطالب الزيتوني اهتمت فقط بالمطالب الخصوصية لطلبة الجامع، ولم تطرح توسيع العمل الطلابي والتلميذي خارج إطار نشأتها.

بان الصراع «اليوسفي البورقيبي» فانحاز الزيتونيون لصالح بن يوسف، فلقي أغلبيتهم بعد اغتيال بن يوسف القتل والسجن والطرد، أما ما تبقى منهم فقد انضموا طواعية إلى الاتحاد العام لطلبة تونس عقب نداء «توحيد الصف الطالبي» الذي أطلقه الاتحاد في يوليو 1954.

- علاقة الاتحاد العام لطلبة تونس بالحزب الحر الدستوري الجديد

وجد الطلبة الدستوريون في مسار تأسيس الاتحاد بعد رفع حزبهم مطلب «الاستقلال» الذي بان بالكشف زيفه بعد صفقة 20 مارس

1956. تنامت مساعي الدساترة للهيمنة واحتواء المنظمة الطلابية، عبر الاستحواذ على المو اقع القيادية وتمويل المؤتمرات ورعايتها، وقد جاء المؤتمر 11 المنعقد بالكاف سنة 1963 بميثاق الطالب التونسي، الذي كرس وصاية حزب الدستورعلى الاتحاد العام لطلبة تونس، و أقر طرد 12 مناضلًا معارضًا من الاتحاد، وفي سنة 1965 أقر دمج الاتحاد العام لطلبة تونس والجامعة القومية للطلبة الدستوريين، وهو ما مثل توجهًا ممنهجًا لجعل المنظمة الطالبية بوق دعاية للسلطة القائمة في الوسط الجامعي.

تميزت هذه الفترة أيضًا بتصاعد الوعي الوطني الثوري المناهض للمد الدستوري في الجامعة، هذا الوعي المتأثر بالو اقع القطري والقومي والأممي، فكانت أولى المصادمات مع أجهزة السلطة وزبانيتها عقب تجمع عام ببورصة الشغل في اغتيال باتريس لومبا، ووقع إحياء اليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفيتنامي في نوفمبر (تشرين الثاني) 1967، واجتاحت شوارع العاصمة مظاهرات كبرى في فبر اير (شباط) 1968 ضد زيارة نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك في فبر اير 1970 ضد زيارة كاتب الدولة الأمريكي «روجرس.» " هذه وجهة نظر من أرخ لتلك الفترة برؤية المعارضة ومن زاويتها.

ومثل هذه الأوضاع والمواضيع كانت حديث أغلب الطلبة وبين مجموعاتهم الصغيرة. كانت هنالك أفكار تمررها التيارات المعارضة بينهم بعضها مستورد لكنها من رحم الو اقع التونسي تتطابق وتتجانس معه وتتماهى مع التحركات التحررية العالمية بعد حربين عالميتين وبعد استعمار غاشم بدأ يتقهقر وبعد ارساء دول مستقلة ومتحررة ضمنيا في حاجة إلى الاستماع إلى كل أبنائها لا إلى قمع أفكارهم وتعابيرهم كما حدث لصديقنا و ابن خاله في أوج احساسهم بالتفاعل وبضرورة حرية التعبير... وكما حدث للكثير منهم وهم في مقتبل شبابهم وأوج وعيهم و اكتمال شعلتهم...

عشيات الفسحة في أقواس باب بحر ونهج شارل دي قول ومغازاتها ومقاهيها كانت تعطيهم بعض الدفء وتغمرهم بأحاسيس الراحة والاطمئنان وإن كانت العاصمة تذوب فيها كل الطبقات وتطغى المادة على أغلب العلاقات. ونهج شارل ديقول يقع بين نهج الدانمارك ونهج جمال عبد الناصر ويشقه نهج اسبانيا ونهج ألمانيا ونهج انقلترا من بين أنهج كثيرة على مدى طوله وكثيرا ما يلتقي خلال هذه الجولات القصيرة ببعض أبناء البلدة الذين يعملون هناك أو الذين يدرسون بالجامعة أو التجار القادمين من تلك الجهات والمتمركزين في أغلب شوارع وشر ايين

العاصمة الهامة وأزقتها وأنهجها فأينما وجدوا متنفسا استغلوه للتجارة الموازية القادمة من وراء الحدود، همّشهم النظام، توزعوا في أنهج وشوارع العاصمة فتحدوه وهمّشوه ...

كان صاحبنا يتنفس ثقافة ويأخذ من كل شيء بطرف وتتصارع كل الفنون داخله من شعر وأدب ورسم ونحت ومسرح وسينما وفنون تشكيلية وكان يقسم أوقاته حسب أنشطة دار الثقافة ابن خلدون ودار الثقافة ابن رشيق والمسرح البلدي وخارج هذه المؤسسات تجده بالمركز الثقافي الفرنسي أو بمكتبة العطارين يتحرك في هذه الدائرة العتيقة العميقة بكل مكوناتها وتأثيراتها على نفسيته الهشة القادمة من أمكنة بعيدة هشة... وكان صديقه أيضا يتقاسم معه بعض هذه الهوايات ويشاطره الحضور والنقاش والابداع والامتاع...

ومن الاهتمامات الشبابية في السبعينات ولقرب العهد بالستينات ما فتئ الناس يتحدثون عن انقلاب 62 بوجهات نظر كثيرة، رسمية ظاهرة وشعبية خفية، متطابقة حينا ومتنافرة أحيانا تختفي وراءها أسرار كثيرة يصعب سبرها. عبر عنها بعضهم "بقضية اليوسفيين" وسماها بعضهم "بالانقلاب اليوسفي" وهي كما كتبت بسمه بركات:

" قضية اليوسفيين وانقلاب 1962، والتي حوكم فيها عشرات العسكريين والمدنيين من مختلف الانتماءات السياسية وأعدم 10 من بينهم.[19]

وتعود محاولة انقلاب 1962 إلى فترة الرئيس التونسي الأسبق الحبيب بورقيبة، حيث اشتركت مجموعة من العسكريين والمدنيين من مختلف التوجهات السياسية من مقاومين سابقين وعسكريّين ومدنيين معارضين للنظام حينها ومحسوبين على التيّار اليوسفي والقومي في محاولة الانقلاب على النظام البورقيبي.

وتم في 19 ديسمبر 1962 القبض على عديد الأشخاص ومحاكمتهم في 12 جانفي 1963، لتصدر المحكمة العسكرية بتونس في حقهم أحكاما تراوحت بين الإعدام والأشغال الشاقة والسجن."

ويقول أحد المحامين إلى أنه "تم إعدام 5 مدنيين و5 عسكريين دون توفر أي ضمانات للمحاكمة العادلة وفي ظرف سريع، وأن بقية المتهمين في القضية عوقبوا بالسجن وتعرضوا للتعذيب والتعليق في الجدران وتم إخفاؤهم عن أهاليهم الذين منعوا من الزيارات أوحتى معرفة مصيرهم، واستمر ذلك طيلة 8 سنوات لم تقدم فيها السلطات أي معطيات عن هؤلاء" تكتب بسمه بركات في العربي الجديد.

---

[19] 1962- https://www.alaraby.co.uk بتاريخ 2019/07/11 بسمه بركات

بعد اعدام صالح بن يوسف و أتباعه من كبار القواد وحاملي السلاح ضد الاستعمار وبعد السجن والتعذيب غاب بقايا هؤلاء في أعماق الشعب و انحسرت أعمالهم في التجارة والفلاحة أو التدريس وبقي انتماؤهم كانتماء الموريسكيين، أيام نهاية حكم الطوائف في الأندلس، في قلوبهم وأعماقهم و انصرفوا عن الحياة السياسية أو دخلوا ضمن ماكينة الحزب الاشتراكي الدستوري وصباط الظلام لايزال في كوابيسهم وهناك من مات وفي قلبه غصّة... وأصبح التخلص من أي كان اتهامه بالانتماء للأمانة العامة ليشار إليه على أنه "يوسفي" فينبذ...

يكتب الأستاذ خالد عبيد[20] "الظاهر أيضا أنّ هذه المجموعة الانقلابية خاصّة المدنية منها قد قامت باتّصالات مع قوى خارجية قصد الحصول على تأييدها، لكن آثرت المحكمة العسكرية أن يتمّ التطرّق إلى هذه المسألة في جلسة سرّية، وقد تحدّث المناضل علي المعاوي عن بعض هذه الاتصالات في كتابه «خواطر وذكريات» كما أقرّ الشيخ

---

[20] www.turess.com/alchourouk/181616 نشر بالشروق بتاريخ 2011/02/16 خالد عبيد (مؤرّخ جامعي مختصّ في التاريخ
السياسي المعاصر بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية بمنّوبة)

الرحموني بوجود هكذا اتّصالات، ومن المرجّح أنّ التركيز كان على المعارضة التونسية المستقرّة آنذاك في الجزائر ابراهيم طوبال وعبد العزيز شوشان الذي ينتمي إلى ذات بلدة عمر البنبلي وهي القلعة الكبرى كما أنّ طوبال يعرف البنبلي منذ مدّة طويلة في مصر، وذلك بقصد الحصول على دعمهما ولربّما دعم الجزائر لاحقا وكذلك مصر" ...

يواصل خالد عبيد "وقد استغلّ الحبيب بورقيبة هذه المحاولة الانقلابية ليطلب من الجزائر في خطاب 18 جانفي 1963 طرد المعارضين التونسيين من أراضيها وسَحَب السفير التونسي أحمد المستيري من هناك. ولم يتوان الرئيس أحمد بن بلّة في تفنيد ما أعلنه الرئيس الحبيب بورقيبة مذكّرا بأنّ الجزائر لا يمكنها أن تفكّر أبدا في القيام بعمل ما ضدّ الشعب التونسي.

على كلّ، ما لفت انتباهنا نحن في كلّ هذا هو السرعة الفائقة التي تمّت فيها عملية الاستنطاق والمحاكمة فإصدار الأحكام، إذ بدأت الاعتقالات مساء يوم 19 ديسمبر وأعلن رسميا عن المؤامرة يوم 24 ديسمبر وبدأت المحاكمة يوم 12 جانفي 1963، والتهم الموجّهة هي التآمر على أمن الدولة الداخلي ومحاولة الاعتداء على رئيس الدولة ومحاولة تبديل هيئة الدولة ..والمشاركة في حركة تهدف إلى تحطيم معنويات الجيش

الوطني والاستيلاء على أملاك الدولة، لتنتهي يوم 17 منه بصدور الأحكام القاضية بإعدام كلّ من عبد العزيز العكرمي والشيخ أحمد الرحموني والحبيب حنيني والهادي القفصي والأزهر الشرايطي وعمر البنبلي وصالح حشاني ومحمّد بركية ومحمّد قيزة والمنصف الماطري وعبد الصادق بن سعيد والمسطاري بن سعيد الذي هرب إلى الجزائر، بينما نال كلّ من البراطلي وساسي بويحيى الأشغال الشاقة المؤبّدة وتميم بن كامل وعلي كشك بن سالم وقدوربن يشرط والعربي العكرمي وأحمد التجاني 20 سنة أشغالا شاقة وعلي القفصي 10 سنوات....

وفي يوم 22 جانفي 1963 رفضت محكمة التعقيب الطعون التي قدّمها إليها بعض المتّهمين و أيّدت حكم المحكمة العسكرية الدائمة بتونس، وفي 23 منه رفض الحبيب بورقيبة مطالب العفو التي قدّمها محامو المتّهمين، وفي 25 جانفي صدربيان في الصحف يعلن عن إعدام المتّهمين فجريوم 24 جانفي مع استثناء المنصف الماطري ومحمد قيزة بعد إبدال حكمهما من الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبّدة ..."

يواصل خالد عبيد "وهكذا أُسدل الستارعلى هذه المحاولة أو أُريد لها هكذا في مدّة زمنية وجيزة قياسية، لم تتعدّ الشهرمن تاريخ الإعلان عن المؤامرة إلى تاريخ تنفيذ أحكام الإعدام، ومن البديهي، أنّ الملاحظ

العادي يمكنه أن لا يعتبر ظروف الاستنطاق الاستثنائية من حيث الوسائل المتّبعة فيه ولا جلسات المحكمة التي تواصلت لمدّة ستّة أيّام ! ولا رفض محكمة التعقيب المبرر لطعون المتّهمين من عِدَاد المحاكمة العادلة التي احترمت مبادئ القانون.. وإذا ما أضفنا إلى ذلك الحملات التشويهية والتأليبية على المتّهمين طيلة هذه الفترة وتصرّفات المحامين كما رئيس المحكمة الذي كان يذكّر المتّهمين ب «عقوقهم» الوطني و. فإنّ ذلك كلّه لن يساهم أصلا في توفير أجواء عادية لمحاكمة أُريد لها أن تكون استثنائية في كلّ شيء " يكتب الأستاذ خالد عبيد ثم يواصل: "والظاهر أنّ التعليمات صدرت من الحبيب بورقيبة كي يقع الانتهاء من كلّ شيء قبل يوم 18 جانفي 1963، حتّى يتسنّى له الاحتفال بالنصر على «أعداء» الوطن الداخليين والخارجيين في التحام متجدّد مع شعبه الذي زحف في جموع هدّارة في ذلك اليوم إلى ساحة القصبة للانتشاء مع رئيسه بالمعجزة الإلهية التي أنقذت تونس من شرّ مستطير وساقت «الخونة» إلى موتهم المحتوم!!

و يواصل "لكن، ألا يمكن أن تخفي هذه السرعة الكبرى في طيّ ملفّ « المؤامرة » أمرا آخر قد يكون مُحرجا للسلطة وللرئاسة على حدّ السواء؟ وهو احتمال أن تكون عناصر من داخل الحكومة على علاقة ما مع «المتآمرين»، حَمَتْهم في انتظار تجسيم العملية بالرغم من ورود تقارير لا

يشكّ في صدقيتها عن تحرّكاتهم، أُهملت عن قصد أو عن غير قصد لا ندري! المهمّ أنّ إدارة أمن الدولة والداخلية التونسية عجزتا عن كشف تحرّكات هذه المجموعات «البدائية» بالرغم من ورود تقارير في الغرض.. والمهمّ في كلّ هذا أنّه تقرّر يوم 7 جانفي 1963 إقصاء إدريس قيقة من إدارة الأمن وتعويضه بالباجي قايد السبسي، فهل أنّ عزل قيقة هو بمثابة «كبش فداء» لمسؤول آخر قد يكون «متواطئا » مع «المتآمرين» ربّما لوحده أو ثمّة من معه من المسؤولين، و اقتُرح اسمه في الحكومة التي كان «المتآمرون» يزمعون على تشكيلها بل وتربطه علاقات حميمية للغاية مع بعضهم، ونعني هنا ربّما الطيّب المهيري- الذي لم تتوصّل أجهزته الأمنية إلى هتْك هذه المؤامرة في حين يعود الفضل في ذلك إلى الشرطة العسكرية- لكن إعلان توريطه المحتمل قد يُربك توازنات الحكم الهشة في ظرف حرج للغاية، لذلك أُسرع في كلّ شيء وحتى عندما ذكر المتآمرون أسماء أخرى على صلة بهم، لم تستدعهم المحكمة ولم نسمع بهم أو نلاحظ أنّهم اعتقلوا لاحقا خاصّة داخل الجيش والنخب السياسية...

وممّا يحيّرني أكثر ويدفعني لعدم نفي ما ذكرناه آنفا بخصوص تورّط محتمل لمسؤولين في الحكم، هو ما تطرّق إلى علمي من أنّ كلّ الوثائق المتعلّقة بالمؤامرة قد أتلفت في حينها، وبالتالي، إن صحّت هذه المزاعم،

لا يمكن لنا وللأجيال القادمة أن ندرك حقيقة ما حدث إذّاك عندما يفتح الأرشيف و إنّي أرجو من كلّ قلبي أن يكون كلامي هذا مجرّد خيال وكذبة.

والأكيد أنّ هذه المحاولة «الانقلابية» الفاشلة كانت مناسبة للدولة التونسية كي تتخلّص وإلى الأبد من أناس باتوا يشكّلون عبئا عليها، ونعني هنا قادة المقاومين بدءا من الشرايطي والعربي العكرمي والساسي بويحيى والساسي الأسود وخاصّة هنا الشيخ حسن العيّادي الذي حُشر حشرا في تبعات هذه المؤامرة، واتُهم بأنّه كان على علم بها وحوكم في محكمة على جناح السرعة وصدر عليه حكم بالإعدام نفّذ على عجل، بالرغم من خدماته الجليلة التي قدّمها للنظام البورقيبي الناشئ بدءا بمآسي «صبّاط الظلام» الدامية وغيرها، لكن ما العمل؟ ما دام العيّادي بات محرجا للغاية للبعض!؟ أليس ثمّة أفضل من هذه المناسبة للإجهاز عليه كي يذهب هو وما يعرفه من أسرار إلى القبر ؟!

لكن ثمّة مسألة أخرى تتعلّق بأصول بعض المتورّطين في هذه «المؤامرة»، فمثلما ذكرنا آنفا صوّرتهم الدعاية الرسمية آنذاك على أنّهم «جراثيم» يوسفية وبقايا الرجعية والاستعمار و«جهلة مغرورين».. وهذا حتى ما يعتقده السفير الفرنسي في تونس في تقريره إلى وزير الخارجية الفرنسي بتاريخ 19 جانفي 1963 والذي خصّصه

للحديث عن المحاكمة والأحكام، إذ اعتبر أنّ نواة التآمر يوسفية كما ذهب إلى ذلك الباهي الأدغم.

و إنّي أعتقد أنّ نواة التآمر الصلبة هي من الدستور القديم أو بقايا الدستور القديم أو من المتعاطفين الموضوعيين معهم، وأعني هنا الشيخ أحمد الرحموني الذي يعدّ من عناصر الحزب النشطة بل ونجده عضوا في لجنته التنفيذية لسنة 1955 بالرغم من أنّه سيحشر ويحاكم في المؤامرة اليوسفية لسنة 1958 ويُسجن بمقتضاها، والهادي القفصي الذي ينتمي إلى عائلة وأب معروفيْن بانتمائهما إلى الدستور القديم، وعمر البنبلي الذي أعتقد أنّه كانت لديه ميولات للدستور القديم كما هو بارز في كتاب له أصدره في لبنان وكما تؤكّد ذلك المصالح الفرنسية في الشرق، ولا أدري حقيقةً إن كان عمر البنبلي قد اعتنق أفكار البعث السوري أم لا؟ بالرغم من احتمال ورود ذلك! والزيتوني عبد العزيز العكرمي أحد مؤسّسي لجنة صوت الطالب الزيتوني، الذي يلتقي موضوعيا مع طروحات الرحموني، إضافة إلى دستوريين جدد بعضهم تبنّى اليوسفية خلال الخلاف وبعضهم الآخر تبنّى البورقيبية.

«خانوا» الوطن أم بورقيبة؟

فهل كلّ هؤلاء «خونة»؟ «خونة» الوطن! انقلبوا بين عشيّة وضحاها

من خانة الوطنية والإخلاص الوطني إلى باحة العقوق واللاوطنية! أم أنّ تاريخهم النضالي سمح لهم وسمحوا لأنفسهم به أن يفكّروا هكذا تفكيرا ويعزموا على هكذا أمر بقطع النظر عن خطئه من صوابه؟ وبالتالي هل نعتبرهم «خونة» الوطن؟

أشكّ في ذلك كثيرا، فيكفيهم ما عانوا آنذاك من هذه اللفظة وأخواتها حتى نتجرّأ على مزيد نعتهم بها، أم أنّهم هنا هم خونة الحبيب بورقيبة بالمفهوم البورقيبي للكلمة؟ هنا ربّما يكون هذا صحيح! ولربّما هذا الوصف هو مدعاة لتفاخر بعضهم به! على كلّ نترك الكلمة للتاريخ للبتّ في هذا الأمر يوما ما إن قدر على ذلك!

مزايا الاطّلاع على الأرشيف الأجنبي إن فُقدت وثائقنا...
وهذا يدفعنا إلى التحدّث عن مصادر أخرى أرشيفية، قد تنيرنا في فهم بعض ما خفي عنّا كتقرير السفير الفرنسي الذي تحصّلنا عليه، والذي ذكرناه آنفا ويميط الستار عن تفاصيل دقيقة حول المحاكمة وما حولها، ممّا يعطي الانطباع بأنّ هذا السفير على اطّلاع كبير بمجريات المحاكمة وخباياها، وتبدو حتّى المعلومات التي يذكرها أحيانا دقيقة بفضل مصادره المعتمدة بالتأكيد، وقد شكّك السفير الفرنسي في

الرواية الرسمية المعتمدة للتصغير من شأن المتآمرين وتحقيرهم، بل وذكر حتّى ما ينفيها أحيانا، لكن يَخِزني سؤال مقلق هنا وهو هل سيصبح الأرشيف الأجنبي ملاذّ الباحثين الوحيد عن هذه المسألة في غياب أرشيف هذه الفترة بالذات؟ والذي أرجو مرّة أخرى ألا يكون قد أُتلف آنذاك كما قيل لي ومنذ عشرين سنة! !...

... هل يُكشف النقاب عن أماكن دفن « المتآمرين » حتّى يتسنّى لعائلاتهم الترحّم عليهم؟

وهذا يدفعنا إلى الحديث عن معاناة أهالي هؤلاء « المتآمرين » والذين ذاقوا من المضايقات والحرمان والخصاصة ألوانا ! أفلا تكفي «معاقبة» هؤلاء «المتآمرين» من خلال إعدام بعضهم أوحبْس البعض الآخرفي ظروف غيرإنسانية بالمرّة، كي يرتدع من تسوّل له نفسه «الأمّارة بالسوء» إلى التفكير مرّة أخرى في هكذا عمل «إجرامي»؟ وما ذنب عائلات هؤلاء «المتآمرين» التي عانت الحرمان والخصاصة والمضايقات وخاصّة منها من أعدم والده أوزوجه أوابنه أو.. حتى يتواصل حرمانها من الوقوف حتّى على قبورهم لتلاوة فاتحة الترحّم على أرواحهم! ألم «يعاقبوا» جزاء «غلطتهم» أو «جرمهم» لا يهمّ اللفظ؟ ألا يكفي أهاليهم حرمانهم منهم وإلى الأبد؟ أم أنّ لا بدّ من تواصل العقاب؟!!

فهل من لفتة كريمة تجاه نساء ترمّلت وأطفال تيتّموا وعائلات تفكّكت؟ أم لم يحن الأوان بعد للفتة إنسانية نبيلة كهذه؟!!" يكتب الباحث خالد عبيد.

وهي كذلك وجهة نظر الباحث المذكور بحججها ومؤيداتها...

وهذه الصفحات المريرة من أسرار الستينات وما خلفته في الحياة الاجتماعية العامة تابعها صديقنا ودونها وضمنها بكل تجرد وموضوعية، وبدون زيادة ولا نقصان، بعيدا عن كل التوجهات إذ تسلح بما يعرف من قيم كونية لا جدال فيها. فما ذنب من لا ذنب له غير القرابة ... تاركا للتاريخ إبرازوإظهار مزيدا مما خفي منها...

ومثل هذه المعلومات كانت تتداول بين جل الطلبة سرا. فهم من جميع أركان البلاد فلا توجد الكليات إلا في تونس العاصمة كما أن لكل منهم روايته التي تتداول شفاهيا في جهته وتتنقل من الأفواه إلى الآذان دون تعريضها للعلن فكانت الأفكار تتلاقح، تتصارع وتتجانس وتكون الحكاية الشعبية وأحيانا بعض الأساطير التي تنهل من الشجاعة والبطولة ورباطة الجأش. ومع أنه تأريخ لفترة ذهبت فقد بقيت بعض حلقات تسلسلها مفقودة في حاجة إلى أن تسلط عليها بعض الأضواء...

بهذه الآراء والأفكار وغيرها ونقيضها كانت ساحات الجامعة في السبعينات منقسمة يسارية وقومية واسلامية ودستورية بورقيبية

ويوسفية، وتيارات شرقية وغربية مختلفة تتصارع وتنبش في أذهان شباب مثقف يعتبر من خيرة ما في البلاد لا يركن للرأي الواحد ويقارع الحجة بالحجة ويفرض ما يراه و يعتقده ولو سرا وخفية وزاد من حجر بعض الكتب وحجزها زيادة تداولها سرا والحديث بإطناب عن محتوياتها و آرائها السياسية المرعبة والمخيفة لبعض الأنظمة وهكذا أي نظام تحيط به هالة من الأسرار وتخيفه الأفكار لا يعمر طويلا مهما كانت مرجعيته وجذور تاريخه.

فكان "الر افل" من بين الأسلحة المستعملة كما العمل في تعمير الصحراء. ويتذكر من أخذته مقاديره إلى "رجيم معتوق" هذه الحياة العسكرية في أعماق الصحراء التونسية والتي يعتبرونها ظلما وتكسيرا لأنفتهم لأنهم قالوا شيئا في النظام الحاكم أو عارضوه سرا أو جهرا ففي كلتا الحالتين كان هذا عقابهم والكثير منهم مازال يحتفظ بجرح أليم من سنوات "الر افل" وهم في سن الشباب الر افض وفي أوج فورته وتعنّته. "ومثل اكتشاف مائدة للمياه الجوفية سنة 1972 بمنطقة رجيم معتوق عاملا أساسيا لإجراء تجربة إنمائية بهذه المنطقة المتاخمة لشط الجريد. خاصة وأن المياه من شأنها أن تساعد على غراسه النخيل المثمر وإحياء الجهة. واعتبرت منطقة رجيم معتوق قبل الثمانينات

منطقة عسكرية نظرا لوجود معتقل بها." هذا المعتقل الذي كان يهابه ويخشاه الجميع...

كان صديقنا قد تجاوز العشرين من عمره بسنتين، في أوج فورة الشباب "تمشي على قلبه الحياة ويزحف الكون الكبير" كما يقول الشابي، يعتبر نفسه مثقفا، منفتحا على ثقافة عصره وطموحات جيله ينهل من تجارب ما بعد الحرب العالمية وانتصارات الشعوب المغتصبة على مستعمرها وجلادها وظهور حركات اصلاحية جديدة وليدة هذه النضالات خاصة لدى النخب المثقفة من خريجي كليات العاصمة أو العائدة من الخارج. ناهيك عن موقع القضية الفلسطينية في قلوبهم وعقولهم ولم تكن سنة 1948 بعيدة نسبيا ولا حتى حرب عام 1967 و1973 وضم القدس وبقية المناطق مما كان محل ندوات وتظاهرات ومظاهرات عديدة... لم يكن يمينيا ولا يساريا بل كان وطنيا وسطيا أخذ من كل شيء بطرف ويبحث جادا عما يريح هذا الوطن من التلف والانقسامات والفتن خاصة و أنه قادم من جبال وسباسب خارجة عن الحسابات منذ قرون وعانت الأمرين أو قل لا يُعترف بها إلا لماما لمصلحة الحاكم لا غير.

ذات يوم وهو يتجاذب أطراف الحديث مع "العم علي" بائع الصحف والمجلات بمدخل الكوليرا حدثه عن بعض زبائنه المعجب بحركتهم

الثقافية والمد التي أخذته في الاوساط كعزالدين المدني والطاهر الهمامي وصالح القرمادي وحركة الطليعة التي يقال عنها الكثير وهو بائع الصحف المسيس والمثقف والمتابع لكل الأحداث خاصة عزالدين المدني وأجزاء كتابه " الرجل الصفر" (حزب الفجر وحزب الصبح وحزب الظهر) الذي قيل فيه الكثير وأسال حبرا كثيرا. بحث عنها صاحبنا فيما بعد ليشحذ ذاكرته المرهقة، يكتب عنها الأستاذ الباحث محمد علي الحباشي في جريدة الشروق:

"ضمّنت أولى القصص[21] التّجريبيّة المعلنة إعلان الكتابة الجديدة التي جعل منها الرّاوي. البطل. الكاتب مادة بناء الوطن على أنقاض ما تقادم «سأبنيك يا وطني بالحروف البيّنات، بالكلمات النيّرات، بالعبارات المشرقات، بالمعاني البليغات» (عزّالدين المدني. الإنسان الصّفر. حزب الفجر- ديسمبر 1968).

ثمّ لا يلبث أن يعبّر تعبيرا مكشوفا عن مشروع ثورة الكتابة «سأبنيك يا وطني بالقلم الثّوري، بالشّعر النّضالي، بالأسلوب المتمرّد التقدّمي، بالتّعبير الشّعبي الحيّ النيّ»، بل يضع هذه الثّورة وفي إطار تصوّر لنهضة أشمل تقطع مع كلّ مظاهر الاتكال والإتّباع ويدعو إلى شقّ طريق الإبداع والفرادة التي جعلت منها الطّليعة شعارها قائلا: «لا تمش في

[21] http://archive.alchourouk.com / بتاريخ 2015/08/07 محمد علي الحباشي

ظلّ غيرك فتفقد ظلّك ... لا تتكلّم بلسان غيرك فتلوك دما عكرا». ثمّ هو يحثّ مباشرة على الإفاقة. «انهض، الفجر قد انفلق، الصّبح قد أبلج، الضّياء قد انتشر... الفجر انفجر، بعد بعد بعد» (عزّ الدين المدني – الإنسان الصّفر– حزب الفجر)، بل يقوم مؤذّنا باسم الحياة .«حيّ على الحياة... قم يا هذا إنّ رقادك عميق، ثقيل، موحش، باكر، فإنّ الصبح لك، انهض يا أخي و انزع عنك رداء الأمس وضع على ظهرك هندام اليوم »

إنّها طرقات العصر تقرع أبواب الرّقدة الخاملين: «غَنِّ وقل هذا صبحي وهذا يومي وهذا عصري... قلها وقت الظّلام قد انحدر...» وتكسّر قيود التّحريم: «التّحريم، الحظر، المنع، التّحجير» وتعلن «المجد للغة الحياة» (الإنسان الصّفر– حزب الصّبح) يكتب محمد علي الحباشي. وبخطّ غليظ بارز منتصب وسط الصّفحة يأتي فصل المقال وهو «همزة القطع مع الحضارة التّقليديّة الأصليّة»، كما ينتصب النموذج الطليعي عبر النصّ هاتفا: «أنا الحطّاب أهوي على جذوع القيم المهترئة بِبُلدُوزَاري وفأسي» واصلا بذلك مع النموذج الرّومنسي الكفاحي فاصلا مع الهروبي» أنا لن أذهب إلى الغاب بل إليك يا شعب، يا شعبي لأندمج فيك» (الإنسان الصّفر– حزب الظّهر).

نشر عزّالدين المدني قصته التّجريبيّة «الإنسان الصّفر» تباعا في ثلاثة أجزاء: «حزب الفجر»، « حزب الصّبح» و «حزب الظّهر» في ديسمبر 1968 على أعمدة مجلّة الفكر لصاحبها الرّاحل محمد المزالي. وهو ما شفع له اعتبارا لمكانة صاحب المجلّة في الدّولة والحزب. ذلك أنّه منذ صدور الجزء الأوّل تتالت ردود الفعل حول ما اعتبر «مسّا من المقدّسات والمقّومات «تارة و«زيغا عن نهج التجديد الصّحيح» تارة أخرى.

وعُدّت «الإنسان الصّفر» «تطاولا على القرآن الكريم» و«مسّا لنفسيّة المؤمن الصّادق الإيمان» (جمعة شيخة. هل من جديد في التّجديد؟ الفكر – فيفري 69)، ونُعتَ صاحبها من هذا الموقع بالسّماجة والسّخف والحمق (محمد الصادق بسيّس. حزب الخنشفار- الصّباح 13 -1- 69) والمراهقة الفكريّة (جمعة شيخة)، وسرعان ما تحوّلت الحملة ضدّه إلى هجاء وتكفير. وجاءت عناوين الردود تدل دلالة واضحة على أنّه لولا وقاية «الفكر» لساء المنقلب شرّ سوء (من تلك العناوين: حثوة في وجه الرّقيع – إلى مسيلمة الجديد – الإنسان الصّفر خيال وإلحاد...

وقادت الحملة أوساط الجمعيّة القوميّة للمحافظة عل القرآن الكريم و اتّخذت لها منبرا مجلّة «جوهر الإسلام» وجريدة «الصّباح» وأصدرت

الجمعيّة بيان استنكار دعت فيه الكاتب إلى «مراجعة ما انزلق إليه قلمه من الإساءة والإثم» ورجته الاستغفار والتّراجع فيما كتب. ولعلّها كانت تريد دفع السّلطة إلى تحمّل «مسؤولياتها» بالقول إن «في تونس دستورا يحترمه التونسيون وغير التونسيين، وينصّ أحد بنوده أنّ تونس دولة دينها الإسلام» (بيان الجمعيّة، الصباح -8-1-69).

أمّا الحركة، حركة الطّليعة، فقد رُميت بالتخلّي عن الهويّة العربية و «التّذيّل للمشروع السّياسي الإقليمي» بتونس. يضيف الحباشي. ورددّت هذه التّهمة وأشهرتها في وجهها الأوساط القوميّة العربيّة بمختلف مشاربها داخل البلاد وخارجها، وعِيبَ على كتاب الطّليعة ما اعتبر اعتداء على «حرمة الكلمة العربية» (عمار الزغلامي . ظاهرة التّجديد في أدب العصر) و«إفسادا للغتنا وذبحا لأساليبنا وبلاغتنا» (قاسم نامو. رسالة مفتوحة إلى «شاعر» معاصر. المسيرة -19-12-71). وإذا كانت الحساسية الدينيّة قد أثارتها القصّة، فإنّ القوميّة أثارها الشّعر و«غير العمودي والحرّ» على وجه الخصوص، والثلاثي صالح القرمادي والحبيب الزناد والطاهر الهمامي على وجه أخص .وكان التّركيز أشدّ على الطاهر الهمامي ربما لأنّه أردف شعره بالتّنظير." يكتب الباحث الأستاذ محمد علي الحباشي في جريدة الشروق.

لم يكن صاحبا متعودا على مثل هذه الحركات الحرة بل كان متعودا على كل ما هو موجه في دراسته وكتبه المدرسية ومطالعاته والمحاضرات الني تشرف عليها الشبيبة المدرسية. هنا في العاصمة بدأت الأبواب تفتح على مصراعيها أمامه وبدأت رؤيته السياسية والثقافية تتضح وتبنى على التعددية، على الرأي والرأي المخالف والاستنتاج والطرح والطرح المضاد ونتيجة الطرح ونقيضه. وبدأ يمتلك حريته ويوظفها وبدأت أفكاره تجنح وتنطلق من أقفاصها كعصافير الربيع...

وهو يبحث ويجد في ذلك عثر للباحث والكاتب حسونة المصباحي وجهة نظر أيضا عن هذه الحركة التي أثارت الكثير من الجدل: [22]"

"منذ سنوات، لم نعد نسمع في تونس جدلًا، كما هي الحال في السابق، عن حركة الطليعة التي ظهرت في منتصف عقد الستينات من القرن الماضي، واختفت في اوائل السبعينات. ويعود ذلك الى اسباب عدة، منها اولا رحيل غالبية رموزها من امثال الفنان والقصاص محمود التونسي (12 ابريل/نيسان 2001) والشاعر الطاهر الهمامي (2 مايو/ايار 2009)، والكاتب والمسرحي سمير العيادي (31 مايو 2008)، و انقطاع البعض منهم عن النشر والتأليف مثل عز الدين المدني، الذي يبدو ان التقدم في السن جعله عاجزًا عن متابعة ما يجدّ من تطورات

[22] Elaph.com بتاريخ 2016/04/05

على المستوى الثقافي والابداعي، فبات منكفئًا على نفسه، فلا يظهر الا في مناسبات نادرة."

يواصل الأستاذ حسونة المصباحي: "وصمت محمد صالح بن عمر الذي كان المنظر للحركة المذكورة، صمتًا نهائيًا، بعدما كتب عنها العديد من الدراسات والمقالات، ولم يعد له وجود في المشهد الثقافي. وكذا هي حال اخرين مثل الناقد احمد حاذق العرف. أما الحبيب الزناد الذي كان في بدايات ظهور حركة الطليعة الأكثر اثارة للصخب والجدل فقد ترك العاصمة منذ اوائل السبعينات ليستقر في مسقط راسه، مدينة المنستير الساحلية، منقطعا انقطاعا كليا عن كتابة الشعر، وعن الاهتمام بكل ما يمت إلى الثقافة بصلة."

ويتابع "كانت حركة الطليعة اول حركة ادبية وفنية عرفتها تونس عقب مرور اقل من عقد على استقلالها (1956). وكانت في جرأتها شبيهة الى حد كبير بحركة "جماعة تحت السور" التي لعبت دورا مهما في تحديث الادب التونسي في مطلع عقد الثلاثينات من القرن الماضي من خلال الزجل والقصة القصيرة والنقد الاجتماعي، طارحة افكارا جريئة اثارت حفيظة رجال الدين، واوساط المحافظين والتقليديين، الذين كانوا يعتبرون كل ما هو قديم "مقدسًا"، وبالتالي فان المسّ به او انتقاده محرم، وجريمة لا تغتفر.

وجل الذين انتسبوا الى حركة الطليعة، وتفاعلوا مع اطروحاتها وتوجهاتها، كانوا من ابناء الجيل الجديد الذين تربوا في مدارس وجامعاتها الفتية. وقد تأثروا بالخصوص بالموجات الطليعية في الادب الفرنسي المتمثلة في "الرواية الجديدة" مع كل من الان روب غرييه، وناتالي ساروت، وميشال بيتور، وكلود سيمون، ومسرح العبث الذي جاء به كل من اوجين يونسكو، وصاموئيل بيكت، وادا موف. كما تأثروا بالأفكار الماركسية التي كانت تشهد رواجا عالميا منقطع النظير في تلك الفترة. يضيف الأستاذ حسونة المصباحي.

وكان محمد فريد غازي (1929-1962) الذي درس في جامعة السوربون في فرنسا، وعاد بشهادة دكتوراه دولة أتاحت له التدريس في الجامعة التونسية، أول من روّج لأفكار الموجات الطليعية في فرنسا، التي واكب ظهورها ايام كان طالبًا، متعرفا إلى اصحابها، ومتأثرا بهم. وعرف عن غازي تفاديه الاختلاط بالجامعيين، واصحاب الشهادات العليا، مفضلا عليهم الادباء والفنانين الهامشيين.

ومع هؤلاء كان يقضي جل اوقاته ناشرًا بينهم أفكاره التي كانت تبهرهم وتبهجهم وتحثهم على ان يكونوا دائمًا أكثر جرأة في اقوالهم وفي افعالهم. وكان عز الدين المدني المولود عام 1936 الأكثر ملازمة لغازي، حتى انه كان يقاسمه الشقة التي كان يقيم فيها بنهج القاهرة في قلب العاصمة.

لذا لعب دورا اساسيا في بعث حركة الطليعة، وكان رمزها البارز بعد الرحيل المبكر لغازي وأشرف على الملحق الثقافي لجريدة "العمل"، لسان الحزب الحاكم آنذاك، الحزب الدستوري الاشتراكي، نشر عز الدين المدني نصوصًا لشعراء وكتاب ونقاد شبان أبدوا فيها تحمسهم للقطع مع الثقافة الرسمية والتقليدية.

وفي عام 1968، نشر عز الدين المدني في مجلة "الفكر" التي كان يديرها محمد مزالي، وهو أحد اركان النظام البورقيبي، نصا بعنوان "الانسان الصفر" محاولا من خلاله رصد التحولات اللغوية والاجتماعية والأخلاقية في المجتمع التونسي في فترة ما بعد الاستقلال. و اثار ذلك النص غضب رجال الدين فهاجموا صاحبه بحدة، ونعتوه بـ «الزنديق"، و"الكافر". ورد عزالدين المدني على خصومه بنص لا يزال حتى الان "البيان الفني والفكري" لحركة الطليعة. يضيف المصباحي.

وحمل عنوان "الادب التجريبي". وفي هذه الفترة نفسها، بدأت تظهر في الصحف، وفي الملاحق الثقافية قصائد أطلق عليها اصحابها من امثال الحبيب الزناد، والطاهر الهمامي، وفضيلة الشابي، "في غير العمودي والحر". وجميع هذه القصائد تنتقد الأوضاع السائدة آنذاك على المستوى الاجتماعي والسياسي، وتطالب بالحرية، والتعددية الفكرية، وتدعو الى الثورة على الموروث الشعري القديم. كما كانت قصائد "في

غير العمودي والحر" تتغنى بالفلاحين والعمال، وحتى بماسحي الاحذية مثلما فعل الطاهر الهمامي الذي لم يكن يتردد في استعمال الفاظ سوقية مبتذلة متوهمًا ان ذلك قد يقنع القراء بانه "شاعر الشعب."
وكانت تلك القصائد السطحية في مضمونها تصاغ بأسلوب ركيك، وبلغة تفتقر الى أدني المستويات الفنية والشعرية. في نصوصه النظرية، اشار الناقد محمد صالح بن عمر الى ان هدف حركة الطليعة هو "انشاء ادب تونسي، لا شرقيا ولا غربيا، بهدف تجاوز النمطية في الكتابة الابداعية" في مجال القصة والشعر والنقد الكلاسيكي الانطباعي. وارادت فضيلة الشابي ان تكون حركة الطليعة "مناخا ثقافيا يشمل كل الفنون الاخرى مثل الرسم والسينما والمسرح". وقد استجاب البعض من الرسامين والسينمائيين والمسرحيين لدعوة فضيلة الشابي، و انخرطوا في حركة الطليعة منتجين اعمالا تعكس ركائزها الفنية.

ان ما يتوجب الاقرار به هو ان حركة الطليعة التونسية أنتجت البعض من النصوص الجيدة في مجال القصة والمسرح والنقد الادبي. أما في مجال الشعر فلم تحقق الطموح المرغوب. لذلك جاءت قصائد "في غير العمودي والحر" مفككة البناء، باهتة الصورة، هزيلة اللغة. وهي عبارة عن بيانات سياسية تكثر فيها الشعارات، وتخلو خلوًا تاما من الشعر في

معناه العميق. وربما لهذا السبب لم تتمكن حركة الطليعة من ان تبعث للوجود مشروعا ثقافيا وفنيا مقنعا وقادرا على الصمود امام تحولات الزمن مثلما هي حال "مجلة شعر" على سبيل المثال لا الحصر. كما ان هذه الحركة لم تكن "طليعية" بالمفهوم الحقيقي للكلمة، اذ انها توقفت عند سطح الو اقع، عاجزة عن اختر اقه، مكثرة من الهرج والضجيج. لذا ماتت بسرعة من دون ان تخلف لا النصوص التي تبرر وجودها كحركة طليعية، ولا الرجال القادرين على ان يعيدوا اليها الحياة والمصداقية."

إنه خضم متلاطم في هذه الرقعة من العاصمة، المحيطة بشارع بورقيبة التي تتكاثر فيها المقاهي والمطاعم ودور الثقافة وحتى المقاهي الادبية والفكرية حيث يلتقي الأدباء والشعراء والفنانون. في هذه الرقعة يبنى الجديد على أنقاض الماضي التليد، تغور أسماء وتنطفئ أفكار ويولد المعاصر.

هنا يفور مرجل التجديد والتغيير في السياسة والثقافة والفنون...

ومازال صديقنا يحث خطاه في البحث عما ميز عقدي الاستقلال من تفاعل سياسي وثقافي واجتماعي كما يحثها أيضا في التعرف على مكونات المدينة من أزقة و أنهج وتراث مادي تختزله منذ قرون...

تعرف على محيطه بسوق البلاط من اختصاص السوق إلى المساجد والأسواق المحيطة به إلى الأحياء الشهيرة المجاورة ثم باب البحر وشوارعه وشارع بورقيبة والحياة فيه وحوله وها إنه يتعرف على مختلف الحركات السياسية والأدبية والثقافية ولم يمر عقدان على الاستقلال وتونس تعيش على وقع وقائع وتداعيات الستينات المختلفة. كانت خطابات الزعيم بورقيبه تلهب مشاعر مريديه في كل مكان أو أغلبها على الأقل في مختلف اتصالاته المباشرة أو المسجلة وتوثقها كتابة الدولة للأخبار "قبل أن تؤول إلى وزارة الاخبار وبعدها وزارة الاعلام" وكان الوزراء المحيطين به من خريجي أكبر الجامعات والمؤسسات العلمية، أسماؤهم لامعة وبصماتهم ظاهرة معروفة كما الولاة أيضا... كان صاحبنا كلما عاد إلى مسقط رأسه في عطلة من هذه العطل الكثيرة إلا ووجد نفسه غريبا بين أهله ومتساكنيه. فلا الحياة اللعوب هي نفسها ولا الأجواء الاجتماعية والثقافية تشبه ما اعتاده فلا أسواق ولا أبواب ولا دور ثقافة ولا حدائق ولا أقواس ولا أبهة، ما عدا " الرحبة" التي تعتمد كملعب والتي يكثر بها العراك والشجار والكر والفر لمجموعات بشرية على هامش الزمن. ولا شوارع متألقة أيضا كلّ يعيش في حدود بوتقته الضيّقة ولا يهمه من العالم شيئا طالما أنها تمطر من حين لآخر. أما عن السياسة فحدث ولا حرج ينفذون التعليمات بلا

جدال ولا نقاش ولا اجتهاد وبطرق انتقائية و اقصائية قديمة تبعا لما يقرّره شيوخ وأعيان القبيلة، وفروعها، هذه المسيطرة على الأرض والعرض والماء والهواء والعقلية من عهود سالفة...

ذات يوم، وهو خارج من مدرسته، أخذته قدماه من نهج مرسيليا إلى نهج فلسطين، حيث حي "لافيّات" العريق، ثم إلى شارع الحرية مرورا بجانب مبنى الاذاعة والتلفزة المحاط بالعسس والأمن، ليلا نهارا، فتذكر مشهوري ذلك الوقت ممن يطلون عبر أثيرها، صباحا مساء، وكانت لهم شهرة تجاوزت الحدود خاصة لدى جيراننا بمسامراتهم وسهراتهم الفنية والثقافية ومنوعاتهم المختلفة:

" الإذاعة التونسية من التأسيس إلى البناء»[23] من سنة 1938 إلى بداية الاستقلال. هي مداخلة للأستاذ عبد العزيز قاسم، مداخلة ثرية بالمعلومات، يكتب الباحث عبد الستار النقاطي، ، فقد تحدث الأستاذ عن البدايات وخاصة بعد تأسيس « إذاعة تونس البريدية » في 14 أكتوبر 1938 ، إذ لم تكن محبة في تونس المستعمرة مثلما ذكر بل جراء هيمنة إذاعة برلين الألمانية خاصة في عهد الزعيم النازي هتلر على المستمعين العرب وخاصة برامج المذيع العراقي يونس بحري ، بالإضافة إلى استقطاب إذاعة « ايطاليا الفاشية » في ذلك الوقت للمستمعين

[23] radiotunisienne.tn/2018/09/27 عبد الستار النقاطي

التونسيين ، وقد أكد المحاضر ان الإذاعة كانت وقتها مرتبطة مباشرة بسلطة الاحتلال الفرنسي وعمل فيها العديد من الإذاعيين التونسيين على غرار عثمان الكعاك أول مدير للقسم العربي ، ونورالدين بن محمود الذي أطنب في ذكر سيرته المهنية فقد أكد انه هو من شجع كثيرا الأغنية التونسية وفرقة الرشيدية كما اهتم بالكثير من المثقفين التونسيين خاصة من جماعة تحت السور على غرار عبد الرزاق كرباكة وعلي الدوعاجي والشاعر أبو القاسم الشابي وغيرهم ، كما ابرز خصال الإذاعي الكبير المرحوم عبد العزيز العروي وقد شدّد على قدرته الفائقة في الكتابة «بالدارجة» وقدرته أيضا على شد المستمعين لحكاياته الإذاعية الشيقة ولأسماره التي اشتهر بها لدى الجمهور الواسع إلى جانب نقده اللاذع للمظاهر السلبية، وقد عرفت وقتها عبارة « اشكي للعروي » حيث كان عديد من المستمعين ينتظرونه أمام مبنى الإذاعة في شارع الحرية للسلام عليه عند الدخول أو الخروج، أو لتقديم شكوى له من بعض المظالم التي يتعرضون إليها، وكانت السلطات التونسية في ذلك الوقت تخشى لسان عبد العزيز العروي ، خاصة وهو بارع في الكتابة باللغتين العربية والفرنسية وأضاف أن العروي كان يرفض أن ينظر إليه احد أثناء تقديمه أحاديثه الإذاعية في « الأستوديو » حتى لا

يتفطنوا إلى كونها غير مرتجلة بل مكتوبة و بالتفاصيل." يكتب عبد الستار النقاطي.

" وأشار المحاضر عبد العزيز قاسم إلى آن العديد من التونسيين طلبوا آن تفتتح الإذاعة بثها اليومي بالقرآن الكريم وقبلت السلطات الفرنسية الاستعمارية ذلك وهو ما دفع إذاعة «بي بي سي» في بريطانيا إلى أن تقوم بنفس الدور... وتخلص الأستاذ عبد العزيز قاسم في حديثه و محاضرته عن التأسيس والبناء ليروي بطريقته التي فيها الكثير من « الضمار » طرائف حدثت له مع الزعيم الراحل الحبيب بورقيبة ، الذي أكد انه كان مستمعا جيدا للإذاعة وان بعض البرامج وبعض التعاليق الإذاعية لم ترق له ، وخاصة نص التعليق الذي كتبه المذيع القدير عبد العزيز الرياحي و انتقد فيه بشدة أمريكا وهيمنتها على العالم ، وقد أثار ذلك الرئيس الحبيب بورقيبة لحد الغضب ، وقد خاطب المذيع مباشرة وبحضوري قائلا : عندما استمعت إلى التعليق المثير ظننت أنني استمع إلى إذاعة أخرى غير الإذاعة التونسية وأوصى بعدم تكرار مثل هذه الأخطاء ، مشددا على الكتابة بحرفية في إذاعة مفتوحة للملايين ، وأضاف كما حدثت بعض الأشياء الأخرى في البرنامج يوم سعيد وأوصى الرئيس بعدم تكرارها ... و ابرز المحاضر أيضا دور الإذاعات الجهوية وقربها من المواطن واهتمامها بمشاغله ، وأشار إلى

أن انبعاثها كان بحرص من الدولة التونسية التي شعرت آن سكان المناطق الجنوبية بالخصوص كان لهم ميل جارف إلى الاستماع إلى برامج الإذاعات الجزائرية والليبية ." يضيف النقاطي.

" وفي ختام محاضرته تحدث الأستاذ عبد العزيز قاسم عن مساحة الحرية التي كانت موجودة في إذاعة تونس الدولية « RTCI » وخص بالذكر الاختيارات الموسيقية والبرامج الثقافية ، وعلى سبيل الذكر برامج الحبيب بالعيد ودنيا الشاوش التي كانت حاضرة أيضا والتي قال انه قدم معها احد البرامج في الإذاعة نفسها ، وأكد المحاضر أن مجال الحرية في هذه الإذاعة كان أوسع من الإذاعة الوطنية التي كانت تتابع برامجها جميع فئات المجتمع ، أما إذاعة تونس الدولية فكانت إذاعة نخبوية ، وقال في نهاية المحاضرة انه بصدد إعداد كتاب سينشره حول العديد من الطرائف التي حدثت له مع الرئيس الحبيب بورقيبة ."

ناهيك عما يتذكره صاحبنا شخصيا عن صليحة ونعمه وعلية وقافله تسير والفرقة المسرحية للإذاعة والتلفزة التونسية وبرامج سمار الليالي و الأسرة البيضاء وأغنية لكل مستمع واختبر ذكاءك وهواة الأدب والبرامج الرياضية و عبد المجيد مسلاتي و ابراهيم المحواشي ونجيب الخطاب ... والبشير رجب وصالح جغام وبوراوي بن عبد العزيز و أحمد العموري وقاسم المسدي وعادل يوسف صاحب رمضان ملء قلوبنا

والحاج كلوف وبرق الليل وشناب وغيرهم كثير... ولن ننسى ذلك المؤرخ الكبير والكاتب الرقيق و المترجم المتمكن والمحاضر الموسوعة عثمان الكعاك.

بعض الأحيان يحس صاحبنا بغربة ما مضى من أيامه وتعاستها أيضا، بين اسوار المعهد أو في أعماق السباسب. في قلب العاصمة النابض أحس وكأنه ولد من جديد لكثرة اكتشافاته لأمكنة وأحداث وتاريخ وحاضر، تفاعلات لم يكن ليعرفها لولا تواجده في ذلك المكان بالذات والفرق لا يمكن أن يقارن بين ما عليه العاصمة وما عليه الجهات الداخلية، فالبون كبير، شاسع واسع، والحياة تختال فخورة بين شارع بورقيبه وباب بحر أو شارع فرنسا. الخيارات التنموية كانت واجهة بر اقة واعتمدت على المدن الساحلية من صفاقس إلى بنزرت ولم تصل إلى أعماق الداخل التي بقيت تتعثر طوال هذه السنين بألوانها الداكنة... يذكر جيدا أنه بكى كثيرا يوم غادرها... يومها أحس بطعم مرارة الظلم وعلقم من لا حول له ولا قوة وأحسّ فعلا أنه عائد إلى العدم!

طوال حياته بين أسوار المبيتات بين ستينات وسبعينات القرن الماضي لم يكن صاحبنا يهتم بهذا المد الثقافي الجديد وهذا الحراك السياسي النشيط. كانت حدود اهتماماته الأدب الذهني لدى توفيق الحكيم

وبشر فارس ومحمود المسعدي وعبقريات العقاد وابداعات أحمد شوقي أو قصص المازني ونجيب محفوظ أو محمد العروسي المطوي وعلى الدوعاجي وما تحتويه برامج الدراسة وما حدد في مجاله ومكتبة المعهد.

وإذا به، فجأة، يكتشف عالما آخر من الكتاب والأدباء والمسرحيين وجيلا آخر من منظري السياسة والعدل والديمقراطية والمساواة. بغتة يكتشف تلامذة لا كالتلاميذ وشوارع لا كالشوارع ومدينة لا كالمدن وجيلا مغامرا لا كالأجيال الخانعة الخاضعة التي عهدها... ورسمت في عقله ووجدانه آراء و أفكار لن تتبدل ولن تتغير ثوابتها طوال حياته وإن جوبهت بالرفض مكثت في الأعماق ونمت وترعرعت وكبرت هناك.

توطدت علاقة صاحبنا بالعم علي وأصبح يجالسه كلما خرج من مدرسته بنهج مرسيليا فتبدو له عناوين الصحف والمجلات بالبنط العريض بارزة للعيان توصل رسائل مشفرة للنابهين من المارين فيستفيد استفادة مضاعفة مما يحادثه به عم علي أوتهمس به له هذه الصحف والمجلات القادمة من وراء الحدود. وبعد أمد قصير اكتشف وأن العم علي رجل مثقف من طراز رفيع ومن ضحايا النظام أيضا، سجن وهمش وفصل عن عمله بإحدى الوزارات لانتمائه "لليوسفيين" وتعاطفه مع "القوميين" ولمواقفه التي وشت بها العيون التي لا تنام

لدى السلط دون أن يقفوا له على شيء ملموس منها كما همش ذات يوم صديقه الشاعر عبد الحميد خريف وفصل من وزارة الاعلام. وطلبا للرزق على ألا يبتعد عن السياسة والثقافة والاعلام امتهن "العم علي" بيع الصحف والجرائد المحلية والعالمية ليعيش أولا وليكون على بينة من كل شيء ثانيا وليشبع نهما في نفسه ثالثا وأما عبد الحميد خريف فامتهن الشعر والأدب وكتابة الأغاني لعلاقته الوطيدة ببعض الموسيقيين. هي الحياة هكذا، لا بد من الصلابة ورباطة الجأش وقوة الارادة والاحتماء بموقف فكري مقنع تعانقه الأفكار وتتغذى منه وتستمد منه القوة والصمود...

أعجبته شخصية "عم علي" التي نحتتها التجارب وظرفه وطرافته وذكاءه وصدقه ووطنيته ولا غرو فهو القادم من إحدى مدن الجريد كما عبد الحميد، والشيء من مأتاه لا يستغرب، فواظب على مجالستهما والتعلم منهما كلما سمحت الظروف بذلك وبدأت تعتمل في ذهنه وتتوضح أشياء كثيرة لا تخرج للعيان، يهمس بها الناس والطلبة في جلساتهم المستترة، مبهمة ومريبة كالأكمة من بعيد أو كطلاسم المشعوذين...

صديقاه من مكان عرف بالعلم والحكمة، قال فيه صديقه الآخر الذي يلقبه بشاعر المناجم والكادحين، محمد عمار شعابنية، ذات يوم:

هذا الجنوب جنان تربها ذهب... ومنهل منه كل الناس قد شربوا
وواحة من زياتين تغازلها... واحات نخل تحلي صدرها الرطب

وعنه، يكتب عبد الرحمان مجيد الربيعي في موقع الأنطولوجيا [24] عن أدب المناجم " محمد عمار شعابنية شاعر تونسي كأنه (يصرّ) على التغريد خارج سربه، وكأن وجوده بعيداً عن العاصمة وفي مدينة (المتلوي) اقصى الجنوب وحيث مناجم الفوسفات الشهيرة قد جعله بمنأى عن شعر المدينة وحيث يلهث الكثيرون وراء (وهم الأسماء) ومحاولة تقليد (الرائج) و(الشائع) منها. ومن هنا فان محمد عمار شعابنيّة استمر على ايقاعه الأول الذي بدأ به مع زملاء له ارتأى بعض النقاد تسميتهم بـ (شعراء المناجم) وارتضوا هم هذا الوصف بل وطربوا له. كما ان شعرهم أطلق عليه هؤلاء النقاد اسم (الشعر المنجمي)، وكان محمد عمار شعابنية أبرزهم واكثرهم تمثيلاً لهذا الشعر. لكن السنوات الأخيرة شهدت غياب أصوات هؤلاء الشعراء ولم تعد التسمية متداولة كما هو شأنها في السبعينيات التي عرفت حركة أخرى سمي اصحابها شعراء من غير العمودي والحر. هؤلاء الشعراء صالوا وجالوا ووجدوا نقاداً انتصروا لهم. لكن الأهم في كل هذه الحركات

[24] http://alantologia.com/blogs/21574 عبد الرحمان مجيد الربيعي بتاريخ 2019/09/11

طموحها الى تحريك ما هو راكد. اما نماذجهم فلم يعد منها الا الطاهر الهمامي لأنه متواصل وكتب رسالة جامعية عن هذه الحركة صدرت في كتاب، ويظهر بين فترة وأخرى الشاعر الحبيب زناد بقصيدة رغم انه انسحب انسحاباً شبه تام. ان محمد عمار شعابنية بقي يعيش ويعمل بين المناجم او في محيطها، ولم يغره نداء العاصمة ليتحول اليها، وصار يساهم في تنظيم ملتقى شعري سنوي هو من أثرى الملتقيات، وقد سمحت ظروفي شخصياً بالمساهمة في احدى دوراته وتقديم شهادة طويلة وللشعر حكايته الاخرى ضمها كتابي (الخروج من بيت الطاعة). اذن نحن امام شاعر تتأصل تجربته ما دام يتواصل معها، ولم تتحول الى مجرد (حنين) لابد ان ايقاع السنوات يخففه. ولذا بقيت قصائده على انتمائها الى الشعر المنجمي مع نضجها بحكم الاستمرارية وتعمّق الرؤية وكبر المعاناة. وقد دعوت في أكثر من ندوة الى دراسة تجربة هذا الشاعر وألا يكون بعده عن العاصمة ومفاهيمها وندواتها سببا في اقصاء قصائده عن المدونة النقدية التي تنهل (غالباً) من المشهد الماثل رغم ان جل ما فيه لا يمثل الشعر التونسي الذي تتقاسمه مدن عدة بينها قفصة التي تتبعها (المتلوّي) ادارياً. من البيئة وإذا كان أغلب ما ينشر من شعر هذه الأيام في البلدان العربية ينتمي الى (قصيدة النثر) بحيث اصبحت المسيطرة تماماً بعد ان حاز بها الكثيرون وناصبوها

العداء فلم يفلحوا وتراجعوا فإن شعابنية بقي شاعر تفعيلة. اما موضوعاته فكما ذكرت فهي ابنة بيئتها، وقد يبدو غريبا اليوم والقصيدة العربية تنكفئ الى داخل الشاعر وتتطرف في ذاتيتها لتتحول الى عملية تنقيب في هذه الأعماق وأحياناً بنرجسية فائضة حيث يعلو صوت (الأنا) ليكون المحور، كما يعلو رنين صبواتها وفيضاناتها و انكساراتها، أقول يبدو غريباً ان يخرج علينا شاعر مكتو بالهم العام، ومازال يتحدث عن الفقراء والكادحين ومشاغلهم. هذا ما يؤكده آخر دواوينه (غبار الوقت) الذي صدر منذ سنوات ولم ينل ما يجب ان يناله. في قصيدة (نمنمات على عظام سنمّار) يقول: (أنا بنّاء أشيدها القصور على نشيد الله للإنسان ..... وفي برنامجي السكنّي أن أبني لكل مواطن بيت وللظّلام ما غنموا ضحاياهم إذا ماتوا وأغوال إذا حكموا لهم ما ينتج الفلاح والملاح والكدّاح و أثواب الحداد وزينة الأفراح) والسؤال هو: هل نجد شعراً عربياً كهذا في أيامنا هذه؟ كان البعض يرجعه الى ما شاع من شعر ملتزم في فترات طغيان الايديولوجيا. ولكن شعابنية . و أقولها بيقين . يكتب تجربته، يكتب وهو في ذروة صدقه، وأن هذه الموضوعات هي فعلاً شاغله. وفي القصيدة نفسها يقول أيضاً: فأصرخ انني بنّاء وكل حضارة مرت لها شرخ على كفي وصار عليّ أن أحتار لكي أختار). وربما كانت قصيدته (تنزلات مشغال ابن أبي كدح) تشير الى

موضوعها لتمثله، وتشكل رحلة في عالم هذا العامل (مشغال ابن أبي كدح). وعندما نتأمل عنوان القصيدة نجده واضح المعنى. فهناك (مشغال). كثير الشغل. وهناك (كدح) أي العمل المتعب المضني. وتكاد عناوين قصائده ان تشي بمعانيها بشكل أقرب الى المباشرة، وهي (مباشرة) متعمدة. فالقصيدة الثالثة عنوانها (قطرة من عرق) وهو عرق الكادحين. او عنوان قصيدة (سيد السفن) التي تخرج من عالم المناجم وكدح عمالها الى معاناة بحّار. فيها يقول: (وللبّحار أن يحيا صراع الحلم والأوجاع يقول حبيبتي ارض تقشّر عمرها الأحزان ولي ملح الشوارع و انحناء الظهر والاصرار) ويقول عن بحاره هذا في القصيدة نفسها: (وإذا يأويه جفن الليل بين تجعد الأمواج يفكر في اقتران الجوع بالفقراء). مرقوم قفصة وله قصائد اخرى في ديوانه هذا في الاتجاه نفسه منها (سقراط) يهديها الى رجل ثقافة جليل تعرفه مدينة قفصة بل وتونس كلها لذا أطلقوا عليه لقب (فيلسوف قفصة) الذي اختار بعد عودته من فرنسا الاقامة في مدينته وتعليم ابنائها حتى سن التقاعد. وهناك تعرف على نجوم الادب والفلسفة في فرنسا، وكان صديقاً لسارتر مثلاً. هذا الرجل هو عبد الحميد الزاهي الذي تحدث عنه ايضا في قصيدة (زخارف على مرقوم قفصيّ) و(المرقوم) نوع من السجاد الصوفي اليدوي المزركش، وفي احدى ساحات هذه المدينة

جدارية كبيرة عنوانها (مرقوم قفصة). اما (المناجم) فترد مراراً في قصائد هذا الديوان مثل (الوتد) وفيها يقول: (لوثة من غبار المناجم والوقت منتصف الصيف) ومن أهم قصائد الديوان (غبار الوقت) التي يحمل الديوان اسمها, وجاء في مدخلها: (تمر القصيدة شاربة من دمي فلا ارتضيها كلاماً فقط وأسكب فيها حياتين من عمري وأمنحها كل ما تشترط) لكن الشاعر رغم مأساوية قصائده فهو يمتلك سخريته الخاصة، سواء بما ينطق به في الندوات، اورسومه الكاريكاتيرية لبعض النقاد والشعراء التي ما ان يفرغ منها حتى يسربها لتتنقل بين الحاضرين فتحيل الجو الجاد الى حالة استرخاء. لكن سخريته تمتد الى شعره ايضاً، كما في (واثبت للناس ان القصيد اذ جاع يأكل حتى مقصّ الرقابة) أو (المدينة اضيق من أحرفي فهي شبران واللفظ ميل طويل). وفي (الطقس قدر على النار) أو (بين ذاتي وبين التي عشّشت في حياتي فهي لي وطن وأنها دولة قائمة). ان هذا الديوان (غبار الوقت) نموذج متفرد، يمثل اخلاص شاعره لخط بدأه ولم يحد عنه بل جعل من كل قصيدة جديدة له اشتغالاً عليه وتطويراً لمداه. لأنه يجد فيه حياته التي يعيشها بإخلاص غيرآبه بما يحصل حوله، كأنه لا يسمع الا صوت قلبه، ولا يدوّن الا صدق دواخله"... هذا هو صديقه الذي صادقه وكتب عنه ذات يوم. هذا هو الشاعر محمد عمار شعابنيه الذي لا زال يحتفظ معه

بصداقة ما يقارب النصف قرن. خمسة عقود من أيامنا هذه وما زالت قريحته كشلالات الواحات التي يجاورها.

يكتب الكاتب والمترجم عبد المجيد يوسف عن تلك الفترة: ".... ومن مظاهر ثراء الحياة الفكريّة في تونس السّتّينات استدعاءُ فلاسفة من ذوي الشّهرة والتّأثير في الفكر العالميّ مثل جون هيبوليت وبول ريكور الذي ألقى سلسلة من المحاضرات حول فلسفة الكلام. وحضر فوكو واحدة منها أو بعضها في المركز الثّقافيّ بقرطاج وكان التّونسيّون ينتظرون جدلا بنيويّا بين الرّجُلين، ولكن فوكو كان يلازم الصّمت طوال فترة النّقاش، أمّا خلال المحاضرة فكان لا يكفّ عن المشاغبة و إبداء إشارات ساخرة. وقد لاحظ ريكور ذلك. وحين التقى فوكو بطلبته لخّص لهم بدقّة عجيبة كلّ ما قال ريكور ثم دحضه.

فكانت الطّبقة المثقّفة في العاصمة تعيش ذلك النّهمَ الفكريّ الذي طبع الحياة التّونسيّة غداة الاستقلال في خضم وضع التونسيّين للسّؤال الأكبر: كيف نكون؟ وماذا نأخذ من الفكر الغربيّ وماذا نذرُ؟ وكان أن أخذ المثقفون الاشتراكيّة لأسباب تاريخيّة وموضوعيّة، وكان الأمر الرّائع هو تحلّي الفكر التّونسيّ في تلك الفترة بالنقد ونبذ التّعصّب رغم ما عرفت به الايديولوجيات الاشتراكيّة من دغمائيّة، فلم يكن فوكو منبوذا لتغرّبه المفرط ولا لنزعته الملحّة نحو هدم المسلّمات. والمجتمع

التّونسيّ في تلك الفترة بصدد بناء لا بصدد هدم، يريد أن يشيد منهجا وهويّة، وقد تمثلت للمثقّفين وللحاكمين وجاهة الاشتراكيّة على نحو ما.

وفي ذلك الوقت لم تُقبل آراء فوكو على أنّها من المسلّمات رغم الوزن الفكريّ للرّجل، فرغم التفاف المثقّفين حوله ولهفتهم على دروسه ومحاضراته، وهو الذي وضع مؤلفه الشّهير "أركيولوجية المعرفة" بين ظهرانيهم، ورغم أنّه "المجسّم للفلسفة الحديثة "كما وصفه أمام التّونسيّين أستاذه الفيلسوف جون هيبولت لمّا استدعته الجامعة التّونسيّة ليحاضر عن هيغل والفلسفة الحديثة."

وذات يوم، والحديث ذو شجون، حدثه صديقه عن مجموعة آفاق أو "تجمع الدراسات والعمل الاشتراكي في تونس وتعرف أكثر بحركة آفاق أو Perspective، وهي أبرز حركة يسارية ظهرت في ستينات القرن العشرين في تونس. تأسست عام 1963 في باريس وقد ضمت المجموعة المؤسسة نخبة من المثقفين والطلبة ينتمون لعدد من التيارات الماركسية والقومية. نشأت الحركة في ظروف إعلان الحزب الحر الدستوري الجديد كحزب واحد بعد حظر الحزب الشيوعي التونسي، تقول الموسوعة الحرة، و بتبلور التوجه الاشتراكي للاقتصاد

بقيادة الوزير أحمد بن صالح، أصدرت الحركة مجلة سياسية نظرية ناطقة باللغة الفرنسية" آفاق تونسية" نشرت فيها عدة دراسات اقتصادية واجتماعية وأخذت من خلالها مو اقف راديكالية من النظام البورقيبي ومن التجربة التعاضدية كما هاجمت الأحزاب الشيوعية الكلاسيكية والاتحاد السوفياتي التي وصفته ب"الإمبريالية الاشتراكية" في صيف 1964 قررت الحركة نقل مركز نشاطها إلى تونس حيث أصبحت أنشط حركة معارضة للرئيس بورقيبة .

في جوان 1967 شاركت الحركة في المظاهرات التي شهدتها تونس العاصمة بعد اندلاع حرب الستة أيام، وقبض خلالها على عدد من منضاليها من بينهم الطالب محمد بن جنات الذي حكم عليه 20 سنة أشغال شاقة. عام 1968 اعتقلت السلطات الأمنية عدة مناضلين في الحركة وأحيلوا في جويلية من نفس العام على محكمة أمن الدولة المشكلة حديثا والتي أصدرت بحقهم أحكاما وصلت إلى 16 عاما سجن. أفرج على المعتقلين عام 1970 إثر عفو رئاسي. واستمر وجود الحركة إلى 1975 وفي حين ابتعد عدد من مناضليها عن النشاط السياسي انخرط البعض الآخر في منظمة العامل التونسي . أحد نشطاء الحركة جيلبار النقاش حكم عليه في 1968 بـ 14 سنة سجن، ولم يطلق سراحه إلا في .1979 " تكتب الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

أما عن الاشتراكية والتعاضد وأحمد بن صالح فقد طال الحديث ذات يوم لما فيه من تشعبات وآراء وهو الشاهد على العصر وفي عاصمة تختزل كل شيء وتحافظ على أرشيفها لكل الأجيال ومن كل الأحقاب.

تكتب ايمان الحامدي[25]: "ارتبط اسم أحمد بن صالح الوزير النقابي بتجربة التعاضد التي عرفتها البلاد في الفترة المتراوحة بين 1962 و1969 التي تقوم على ضرورة اعتماد المجمعات التعاونية أو التعاضدية لوسائل الإنتاج التي تشرف عليها الدولة وتوزّع ثمارها على المتعاضدين كل بحسب مساهمته بعد تأميم الدولة كل الأراضي الصالحة للزراعة. شهدت تلك الحقبة من تاريخ البلاد زيادة في الضرائب من أجل تمويل السياسة التعاضدية بنسبة 22.5 في المائة بين عامي 1962 و1970 ودفعت الشرائح السكانية المتوسطة والدنيا القسط الأوفر منها. وتمكنت الدولة خلال هذه العشرية من تأميم كل الأراضي الصالحة للزراعة تقريباً. كما استطاعت بعث مشاريع صناعية كبرى في جهات مختلفة من البلاد، مثل مصنع تكرير النفط ببنزرت ومصنع الفولاذ بمنزل بورقيبة ومصنع السكر بباجة ومعمل عجين الحلفاء والورق

[25] https://www.alaraby.co.uk / 2020/09/19 ايمان الحامدي

بالقصرين، كما قامت بتحويل تجارة التوريد والتصدير وتجارة الجملة إلى القطاع العام."

وتستدرك الباحثة ايمان الحامدي فتضيف:

لكن تجربة التعاضد عرفت نهايتها بعد تململ اجتماعي كبير داخل البلاد وضغوطات لأصحاب الملكيات الزراعية الكبرى الذين طلبوا من الرئيس الحبيب بورقيبة تنحية بن صالح عندما قرر تعميم نظام التعاضديات على كافة الفلاحين.

ورغم أن بن صالح ظل يدافع عن مشروعه إلى آخر سنوات عمره ويعتبر أن تجربة التعاضد كانت مفيدة لتونس وساهمت في بناء الاقتصاد ما بعد الاستقلال ووضع الأسس الأولى لقطاعات حيوية في البلاد على غرار الصناعة والسياحة والتعليم، إلا أنّ هذه التجربة لا تزال بحثاً مغريا لكل المشتغلين في حقل العلوم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

ولا يزال كذلك علماء الاقتصاد يبحثون لإيجاد تأويلات مقنعة لتفسير فشل تجربة التعاضد. وفسّر أحمد بن صالح في مقابلة سابقة مع "العربي الجديد" ما وصفه حينها بارتداد تجربة التعاضد بتظافر العديد من الأسباب لإفشال التجربة في تونس، وهي بالأساس داخلية تمثلت في غياب الوعي الطبقي لدى الفئات الفقيرة وهي الأغلبية الساحقة من الشعب التونسي في الستينيات، إذ عمد كثير منهم مثلاً إلى

ذبح قطعانهم من المواشي كي لا تتسلمها الدولة." أتذكر بلغ سعر الشاة دينارين...

وقد أسالت هذه التجربة الفريدة في تونس الكثير من الحبر لا سيما عندما تخلى بورقيبة عنها وقدم الوزير أحمد بن صالح ككبش فداء لإرضاء اللوبي الضاغط وهم من كبار مالكي الأرض ولعل وسيله بورقيبه ضمنهم إذ أكّد الهادي البكوش رئيس أول حكومة في عهد الرئيس الأسبق بن علي، في ندوة فكرية بمؤسسة التميمي،[26] "انّ إقرار التراجع في سياسة تجربة التعاضد التي انتهجتها الدولة في الستينات في عدد من ولايات الجمهورية كان بإيعاز من وسيلة زوجة الزعيم الحبيب بورقيبة التي استنجدت بالباجي قائد السبسي آنذاك وبشير زرق العيون للإطاحة بالتجربة وبأحمد بن صالح موضّحا أنّه عندما تمّ الأمر باعتقال 50 مواطنا عارضوا سياسة التعاضد واتهموا بحبك مؤامرة ضدّ بن صالح تدخّل السبسي لهم لدى بورقيبة وأطلق سراحهم وأكد البكوش أنه ساهم من منصبه في نجاح تجربة التعاضد في كلّ من بنزرت وصفاقس اللتين شغل منصب واليا عليهما."

[26] نشر في التونسية يوم 07 - 04 - 2014

ويقول موقع "الترا تونس"[27] " إنهاء هذه التجربة تر افق مع خيار بورقيبة مواجهة بن صالح الذي وقع رفته من الحكومة والحزب الاشتراكي الدستوري والبرلمان نهاية 1969، ثم أُحيل في ماي/أيار 1970 على المحكمة العليا بتهمة الخيانة العظمى، الذي أصدرت ضدّه حكمًا بـ 10 سنوات أشغال شاقّة، قبل تهريب بن صالح من سجنه عام 1973 إلى الجز ائر ليستقر في بعض العواصم الأوروبية منفيًا.

أسس أحمد بن صالح في منفاه، عام 1973، أول حزب معارض لبورقيبة، وهو حركة الوحدة الشعبية التي تبنت الفكر الاشتراكي، وذات التوجه القومي، والتي انشقت عنها تباعًا مجموعة أسست "حزب الوحدة الشعبية" الذي نال التأشيرة القانونية عام 1983.

ظلّ في المقابل، بن صالح، منفيًا، دون الاعتراف القانوني بحركته السياسية المعارضة، وغير معترف بالانتخابات التي كان ينظمها بورقيبة على مر السنوات إلى غاية الانقلاب عليه يوم 7 نوفمبر/تشرين الثاني 1987 من قبل وزيره الأول آنذاك زين العابدين بن علي.

عاد بن صالح من منفاه عام 1988، آملًا في بدء صفحة جديدة في تاريخ البلاد، وتدشين مسار ديمقراطي طالما انتظره التونسيون، ولكن كانت الخيبة، إذ عمل بن علي، الذي قال إن بن صالح كان أستاذه في معهد

[27] 2020/09/16 / https://ultratunisia.ultrasawt.com

الذكور بسوسة، على خنق الحريات العامة و انتهاك حقوق الإنسان والاستبداد بالسلطة.

وتعرّضت حركة الوحدة الشعبية بدورها لتضييقات، ولم ينل أحمد بن صالح التأشيرة القانونية لحزبه كما كان ينتظر.

وبعد بدء سنوات الجمر ضد الحركات المعارضة وتيقّنه أن بن علي ليس إلا دكتاتورًا جديدًا في تونس، قرّر بن صالح مغادرة تونس في خريف 1990، وربط علاقات في منفاه بالخصوص مع الوزير الأول الأسبق محمد مزالي.

ظلّ أحمد بن صالح من قيادات المعارضة التونسية التاريخية طيلة التسعينيات، قبل أن يعود إلى تونس في خريف 2000، ولكن ظلت حركته المعارضة، حركة الوحدة الشعبية، غير متحصلة على التأشيرة القانونية، مقابل دعم السلطة لما سُميّ "حزب الوحدة الشعبية" الذي كان حزبًا كاريكاتوريًا داعمًا لبن علي.

ابتهج أحمد بن صالح باندلاع الثورة التونسية ضد نظام الاستبداد نهاية عام 2010، و اقترح مفتتح عام 2011 بمعاضدة المعارض التاريخي لنظام بورقيبة أحمد المستيري تأسيس برلمان شعبي يتمتع بالشرعية الثورية ويضم ممثلين عن الجهات التي اندلعت فيها الثورة، تنشأ عنه حكومة ثورية، ويحرّر دستورًا للبلاد يُستفتى عليه الشعب. وقدم بن

صالح والمستيري مقترحهما لرئيس الجمهورية المؤقت وقتها فؤاد المبزع، الذي قرّر في المقابل الدعوة لانتخابات المجلس الوطني التأسيسي.

رفض بن صالح، حينها، بعث الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي، ولم يقبل أن يكون عضوًا فيها. وكان يدعو منذ عام 2011 للمصالحة الوطنية بين الأطراف السياسية، ويدعم الإجراءات القضائية التي انطلقت ضد حاشية بن علي، مؤكدًا ضرورة محاسبة كل من أذنب في إطار محاكمة عادلة.

وقد تحصلت حركة الوحدة الشعبية لتوّها وقتها على التأشيرة القانونية بعد نحو 4 عقود من تأسيسها، وتولى بن صالح خطة الأمانة العامة، معتبرًا أن التنمية المتوازنة في البلاد ترتكز على الدولة والقطاع الخاص والتعاضد.

و إثر أزمة صيف 2013 التي هددت مسار البناء الديمقراطي، دعا بن صالح لتنظيم مؤتمر وطني شعبي للخروج من الأزمة والتو افق بين القوى السياسية.

وكانت العلاقة بين أحمد بن صالح والرئيس السابق الباجي قائد السبسي يشوبها التوتر، بما كان من موقعيْ الرجلين في ظل نظام بورقيبة، إذ يذكر مثلًا الوزير الأول السابق الهادي البكوش، في برنامج "شاهد على العصر" على قناة الجزيرة"، أن بن صالح كان مرشحًا

ليكون الرجل الأول بتونس عام 1969، وإن السبسي حرض على عزله. وبعد الثورة وبعد إعلان السبسي مبادرة "نداء تونس" صيف 2012، اتهمه أحمد بن صالح بـ«خيانة الثورة التونسية"، وحذّر عام 2014 من انتخاب السبسي معبرًا عن "استغرابه "الشديد من الرغبة الجامحة التي تتملك السبسي لحكم تونس، وفق تعبيره.

وصدرت عدة مؤلفات حول أحمد بن صالح بصفته بالخصوص من قاد تجربة التعاضد الاشتراكية في فترة الستينيات، عدا عن دوره في الحركة النقابية، وفي الخلاف البورقيبي اليوسفي، وأيضًا دوره كزعيم أول حركة سياسية معارضة لنظام بورقيبة، وعمومًا باعتباره أحد أهم رجال الحركة الوطنية في تونس، في السلطة والمعارضة، في المنظمة الشغيلة وفي الحزب الحر الدستوري."

هذه بعض النفحات التاريخية ممن تركوا بصماتهم في عشريتي الاستقلال التي كثرت فيها الهزات والاتهامات والمحاكمات وتراكمت فيها الانتفاضات والاحتجاجات الشيء الذي أولد اتجاهات سياسية وثقافية متنوعة متقاطعة ومتضاربة أثرت الساحة بأطيافها وعجلت بإزاحة الرئيس بورقيبه من الحكم وربما قزمت من حجمه خاصة في عهد بن علي، تعرضنا لبعضها رغم الايجابيات المسكوت عنها في تلك

الفترة في ميداني التعليم والصحة خاصة وفي مجال الأحوال الشخصية.

في محادثاته الصباحية مجاملة لنادل مقهى المغرب، الذي يضاهيه سنا، توطدت العلاقة شيئا فشيئا بينهما إذ سرعان ما تعاطف معه وهو ابن الجنوب الشرقي الذي أطرد من الجامعة وما زال يأمل في الرجوع حتى وإن أعاد السنة وحرم من المبيت والمنحة الجامعية. هو خفيف ظل عميق الفكر والحكمة كأهل الجنوب، متمردا على الأوضاع السائدة رغم محافظته، لا يذعن لما يراه ظلما ولا يستسيغ الخنوع والانحناء. شهم كريم، على ملامحه تقرأ نضالات الجنوب أيام الاستعمارو أبعادها وتمسكهم بالمبدأ فلا يحيدون عنه، فيه الكثير من مناقب مصباح الجربوع، أسمر الملامح، جميل الهيئة وعميق الثقافة والتربية.

ذات مرة حدثه عن حبه بل عشقه للراحل جمال عبد الناصر وعن استعداده للدفاع عن القومية العربية ونشرها وتبني أفكارها كلفه ذلك ما كلفه فالرزق من الله سبحانه ولا قاطع له إلا هو. مرددا بيت أحمد شوقي:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا ... إن الحياة عقيدة وجهاد

و"القومية العربية أو العروبة في مفهومها المعاصر،[28] تكتب الموسوعة

[28] https://ar.wikipedia.org/

الحرة، هي الإيمان بأن الشعب العربي شعب واحد تجمعه اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا والمصالح وبأن دولة عربية واحدة ستقوم لتجمع العرب ضمن حدودها من المحيط إلى الخليج .ايمان العرب بأنهم أمة قديم وربما من الصعب معرفة بداياته، فكان يظهر افتخار العرب بجنسهم في الشعر العربي، وفي عهد الإسلام تجسدت القومية بشعور العرب بأنهم أمة متميزة ضمن الإسلام، وزاد هذا الشعور خلال العهد الأموي .في العصر الحديث، جسدت هذه الفكرة بأيديولوجيات مثل الحركة الناصرية والتيار البعثي الذين كانا الأكثر شيوعاً في الوطن العربي خصوصاً في فترة أواسط القرن العشرين حتى نهاية السبعينات، والتي تميزت بقيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا وشهدت محاولات وحدوية أخرى كثيرة. اكتسبت القومية العربية مدًا جديدًا شعبيًا نتيجة ثورات الربيع العربي وظهور تيار شعبي عربي يدعو لوحدة عربية يقودها الشعب، وليس الأنظمة المتسلطة التي ركبت موجة القومية دون أن تنجز شيئاً يذكر في هذا الاتجاه.

يؤمن القوميون العرب بالعروبة كعقيدة ناتجة عن تراث مشترك من اللغة والثقافة والتاريخ إضافة إلى مبدأ حرية الأديان .الوحدة العربية هدف القوميين العرب.

تعريف الوحدة العربية والذي ساد في حقبة الستينات وحتى الثمانينيات كان يتبنى الوحدة الاندماجية، وبعد فشل الأحزاب والقادة الذين رفعوا شعار الوحدة الاندماجية بات القوميون يطرحون مفهوماً جديداً للوحدة العربية يعتبر قريبا من المشروع الأوروبي، أي الدعوة للانصهار في كتلة ذات سياسة خارجية موحدة، وذات ثقل اقتصادي كبير يقوم على التكامل الاقتصادي والعملة الموحدة وحرية انتقال الأفراد والبضائع بين الأقطار المختلفة، بالإضافة لتفعيل اتفاقية الدفاع العربي المشترك للوصول إلى اتحاد عربي مع المحافظة على خصوصيات اجتماعية أو ثقافية قد توجد في بعض المناطق العربية.
في هذا السياق، يعرف المفكر العربي عزمي بشارة القومية العربية كالآتي :

"القومية العربية ليست رابطة دم ولا عرق، بل هي جماعة متحلية بأدوات اللغة ووسائل الاتصال الحديثة تسعى إلى أن تصبح أمة ذات سيادة"

هذه التيارات تتصارع بكلكلها في ساحات الجامعة ومنتدياتها أكثر مما عليه خارج حرماتها ففورة الشباب وأوضاعه الشخصية والاجتماعية تجعل منه ذلك المدافع الشرس عن كل رأي أو فكرة يعتنقها. والأفكار

لها أجنحة لا تتقيد بشيء وإن حبست وأسرت تسللت من نوافذ الزنازين.

كان يقتني جرائده من "العم عمر" بباب بحر ومجلاته من "العم علي" بمدخل الكوليزاي، يحتسي قهوته حيث صديقه "المنصف" بمقهى المغرب ويجالس بعضهم ويتتبع أفكاره ومواهبه وميولاته حيث يجدها في حلقات الطلبة أو في جلسة مسائية على مدارج المسرح البلدي قبالة الشارع الطويل على مرأى من الرائح والغادي أو في دار الثقافة ابن خلدون أو ابن رشيق أو بمكتبة العطارين. إنها الحياة الشبابية وأجنحتها المحلقة في تونس السبعينات. الأحلام المجنحة والآفاق الواسعة الفضفاضة المدلهمة بسحب "الرافل" وغول المدينة بقوته وجبروته وصلابته ومغريات ما تراه وما تسمعه فكأنك تمشي على حبل معلق وعليك بالتحكم في توازنك ولا تسقط وإن صادف وسقطت، كصاحبنا النادل أو عم علي بائع الصحف، فعليك أن تعيد الزحف من جديد، تصل أو لا تصل وعليك أن تكون، كسيزيف الأسطوري، ذي عزيمة من فولاذ صلب حتى لا تذوب تحت شمس العاصمة المحرقة القوية...

ذات أحد دفعه حب الاطلاع والاستكشاف والتعرف على " تربة الباي" القريبة من سوق البلاط (حوالي أربعمائة مترا) فسلك نهج سوق البلاط

إلى نهج سيدي صوردو الذي أوصله إلى المكان "وتعود تربة الباي[29] إلى عهد الأمراء الحسينيين، منذ كان علي باشا الثاني أميرا على تونس (1758-1782). وتعتبر هذه التربة فريدة من نوعها في البلاد التونسية" إذ لا مثيل لها خارج ذاك المكان وخارج العاصمة.

"فواجهاتها الخارجية مزينة بالجص المستصفر وبأحرج وأعمدة إيطالية. أما القباب التي تعلو الشرفة فإنها تتتالى وتتعدد بتعدد الغرف التي يحتويها هذا المعلم. ويعود هذا التشعب والتعدد في القاعات إلى الأعمال التوسعية التي تنجز على حساب المنازل المجاورة للتربة كلما دعت الحاجة إلى ذلك. يكتب موقع بلدية العاصمة.

تحتوي هذه التربة إلى جانب أضرحة العائلة الحاكمة على قبور وزرائها وخدمها الأوفياء. ولما كان لأولياء العهد شغف كبير بكل من يشهد له بالبأس والقوة فقد خصصت لهم في هذه التربة الباحة (الساحة) أو قاعات أخرى خاصة.

لكن أهم ما يجلب الانتباه بين كل غرف هذا المعلم غرفتان تتميزان بخاصيات فريدة، إذ تحتوي الأولى على قبور الحكام وأولياء العهد وهي كلها قبور مبلطة بالرخام الإيطالي الملون. أما القاعة الثانية فتغطيها

[29] www.commune-tunis.gov.tn/

قبة كبيرة بيضاوية الشكل بالإضافة إلى أن خاصياتها المعمارية أهم من خاصياتها التزويقية.

تغطى القبور المنحوتة في الأرض بصناديق رخامية غنية بالنقوش تعلوها أعمدة رخامية موشورية مبلطة تحمل بالنسبة لقبور الرجال شكل عمامة أو طربوش من الحجارة المنحوتة، أما قبور النساء فتحمل من جهة الرأس صفيحتين على كل واحدة منها كتابة منقوشة.

ويقول الموقع أيضا:" وكان أول الأمراء الحسينيين الذين دفنوا به، وهذه التربة هي مدفن كل ملوك الدولة الحسينية وأمرائها وأميراتها وعدد من الوزراء ، باستثناء البايين الأولين (حسين بن علي ومحمد الرشيد الذين دفنا بتربة سيدي قاسم الصبابطي) و البايين الأخيرين من نفس الدولة وهما محمد المنصف باي الذي دفن بمقبرة الزلاج ومحمد الأمين الأول الذي دفن بمقبرة المرسى).

ويعتبر هذا المعلم أهم تربة بمدينة تونس ، ويحتوي على سلسلة معقدة من القاعات والأروقة التي تتوزع بها التربات ، وقد تم بناء آخر قاعة على نمط جامع السلطان أحمد بإسطنبول وبها أضرحة الباشوات (أي الذين اعتلوا العرش). كما تم بناء الجدران الخارجية بغير انسجام فهي تجمع بين كل الأنماط المتوسطية لتلك الفترة..

أما التربة الملحقة فإنها تقع في مكان آخر غير بعيد، برقم 62 نهج تربة الباي وتعرف بتربة الفلاري". ويفتح نهج تربة الباي على "باب جديد".
أما أبواب المدينة فهي عديدة منها: باب بحر، باب الجزيرة، باب الجديد، باب منارة، باب البنات، باب العلوج، باب السويقه، باب سيدي عبد السلام، باب الخضراء، باب العسل، باب عليوه، باب الفله، باب القرجاني، باب قرطاجنه، باب سعدون، باب سيدي قاسم وباب سيدي عبد الله الشريف... ولكل باب زمنه وقصته التي دخل بها التاريخ...

كم هي غنية، عاصمة البلاد، بتراثها المادي واللامادي وخاصة في المدينة العتيقة التي تحتوي على كنوز تراثية وتختزل تاريخ مئات من السنوات وعديد القرون وهي فرصة لصاحبنا كي يتعرف على تراث بلاده طالما هو قريب منه وفي متناوله قبل أن تأخذه الحياة إلى مرابع ومدن أخرى إذ سوف لن تدوم هذه النعمة وسيغادر العاصمة...
هذه العاصمة استثنائية في كل الفصول، شتاؤها بارد وصيفها قائظ ويعتدل الفصلان الآخران فالخريف جميل والربيع أجمل لكنها تبقى جميلة ممطرة في كل الأوقات، تسعدك طالما تمكنت من مفاتيح أسرارها ولمعرفة ذلك عليك بالبحث والتنقيب والاجتهاد على رأي كبارها.

مقهى "المغرب" صغيرة، جميلة دافئة، تختلف عما جاورها من مقاهي الأبهة كمقاهي باريس أو نزل افريقيا أو مقهى تونس و"الكيلت والروطوند.[30] صديقه البشوش يستقبله كل صباح فهو مثله قادم من بعيد من بلاد" الشيح والقطابه" يقدم له قهوته يسأله عن أحواله ويتمنى له يوما سعيدا. في تلك السنة كان يدرّس بمدرسة 29 نهج مرسيليا ويدرس في الآن نفسه علوم التربية وبسيكولوجية الطفل ويحضر دروسا تطبيقية بمدرسة نهج على طراد بمنفلوري وفي نفس الوقت يحضر أطروحته حول كتاب "ايميل أو في التربية " لروسو[31] وبلغته ومفاتيح أسرارها...

وكل منا يتذكر شبابه وتلك الطاقة الرهيبة التي تسكنه فعلا و أفكارا في مجتمع تكبله شتى القيود الاجتماعية والأخلاقية والسياسية خاصة فتقيد بالتالي تلك الطاقة الشبابية الرهيبة وتقتلها نفسا بعد آخر. فكان جل الشباب كالمارد الخارج لتوه من القمقم لا يتأقلم مع الوضع الخارجي ويصعب ارجاعه إلى قمقمه دون التهديد والوعيد واستعمال شتى الطرق والوسائل لذلك و"اشرب وإلا كسر قرنك".

---

[30] Le Kilt et la Rotonde

[31] Jean-Jacques Rousseau, Émile،

كانت الحياة، كما في كل الأوقات، صراعا رهيبا غير أنه في ذلك الزمن تلفها "طابوهات" عديدة ويل لمن تخطى حواجزها وسعى لمعرفة أسرارها. وكان نظام الحكم لدى الجارتين ليبيا والجزائر يختلف كليا عن نظامنا في تونس مما تولد عنه هزات عكرت الأجواء بين الأقطار، وعطلت اتحاد دول المغرب العربي، ناهيك عن حزب البعث البعيد وحرب 67 و73 وصراع النظام المصري مع الكيان الاسرائيلي وعلاقتنا المشوبة بالحذر مع جيران ما وراء البحر وكانت كل هذه الصراعات لها وجودها في الجامعة التونسية وبين طلابها مما كان يربك كثيرا السلطات التونسية خاصة بعد القطيعة اليوسفية ثم اغتياله ثم تنفيذ حكم الاعدام فيما يسمى بالانقلابيين ثم معركة بنزرت تليها معضلة التعاضد وما تعرض له الوزير أحمد بن صالح زيادة عن أوضاع الفقر والاحتياج الداخلية والفيضانات العارمة وسياقاتها والحريات المهمشة التي أدت إلى انتفاضات كبرى في موفى السبعينات وبداية الثمانينات...

عشريتان فيهما الكثير من الأخذ والرد، من السلبيات والايجابيات لنكون منصفين، لكن الحياة، هذه الغادة اللعوب مستمرة ضاحكة مستبدّة كعادتها.

نهج جامع الزيتونة وكذا نهج القصبة بهما ازدحام كبير. قوس باب بحر منتصب شامخ أمام المدينة العصرية بشوارعها ومغازاتها ومؤسساتها

الاقتصادية معتدا بنفسه وتاريخه، سفارة فرنسا شامخة هي أيضا وكأنها تعلم المارين من هناك بأن فرنسا لا زالت هنا رغم الغياب الظاهر. وزارة الداخلية بلونها الداكن تزيل البهجة من القلوب كشاحنات الجيش التي تظهر بين فينة وأخرى. الخمارات وضجيجها وجوها الخانق الكاتم للأنفاس تدفع ابتداء من المساء إلى آخر الليل بجيش عرمرم من السكارى الواضحين والبين بين في شارع بورقيبة الطويل وبعضا من شوارعه و أنهجه الجانبية إلى حيث محطات الضواحي الرابضة في انتظارهم.

عصافير الشارع الطويل لا تهدأ هي الأخرى بضجيجها وما تطلقه على هؤلاء المارين من هداياها التي لا تكتشف إلا داخل المنازل...

محطة الضاحية الشمالية (تونس. حلق الواد. المرسى) ومحطة الحبيب ثامر ومحطة برشلونة ومن أمام المسرح البلدي فشرايين المدينة لا تفرغ ما فيها إلا مع "طلوع الفجر البسام" كما يقول المتربع على عرش الأغنية الشعبية في ذلك الوقت.

وجوده في العاصمة اغتنمه للتعرف على مكوناتها وتراثها التاريخي كما استغله لمزيد التعرف على أحداث الستينات التاريخية والأجواء التي كانت سائدة خلالها أما أحداث السبعينات فهو يعيشها ويدون عنها...

تقول "ويكيبيديا" الموسوعة الحرة: "سعى بورقيبة عام 1961 إلى إجبار فرنسا على إجلاء ما تبقى من قواتها من البلاد إلا أن استراتيجية الضغط المباشر عبر محاصرتها ادّى إلى رد عسكري فرنسي عنيف في بنزرت تسبب في مقتل المئات من المدنيين، ولم تخلي باريس آخر جنودها من تونس إلا في 15 أكتوبر 1963 بعد سلسلة من المباحثات الديبلوماسية. في خضم ذلك اغتيل في أوت 1961 صالح بن يوسف في ألمانيا بتدبير مباشر من وزارة الداخلية التونسية، وفي ديسمبر 1962 كشف عن محاولة انقلابية تورطت فيها مجموعة من العسكريين والمدنيين قدموا للقضاء العسكري وحكم على اغلبهم بالإعدام. ادت المحاولة الفاشلة إلى حظر الحزب الشيوعي التونسي وحلّ ما تبقى من الحزب الدستوري القديم واصبحت المعارضة تقتصر في الستينات على بعض الشخصيات في الخارج وبعض التنظيمات اليسارية والقومية الصغيرة. في الجانب الاقتصادي سببت مغادرة المعمّرين الفرنسيين وخروج رؤوس الأموال من البلاد وضعف الاستثمار الخاص إلى تحقيق مؤشرات دون المأمول عجلت بإقناع الرئيس بورقيبة ضرورة تغيير التوجه التنموي ليعلن الحزب في 23 مارس 1962 تبنيه الاشتراكية وفي أكتوبر 1964 اعلن عن تغيير اسمه إلى الحزب الاشتراكي الدستوري وعهدت مهمة تنفيذ البرنامج

الاشتراكي لأحمد بن صالح الذي اسندت له ما لا يقل عن 6 حقائب وزارية. سعى بن صالح إلى تطبيق نظام تعاضدي أولا في القطاع الفلاحي ثم في القطاع التجاري إلا أن التجربة ما لبثت أن باءت بالفشل مع تراكم الديون والعجز المالي لمشاريع التعاضديات الناشئة. رغم التطور الذي زامن تلك الفترة في قطاعات أخرى كالتعليم والصحة والبنية التحتية والتنظيم العائلي. سبب فشل تجربة التعاضد وتدهور المستوى المعيشي وغضب المالكين إلى إضعاف الحكومة التي غيرت تركيبتها عام 1969 بإحداث وزارة أولى شغلها لأقل من عام الباهي الأدغم قبل أن يترك مكانه للهادي نويرة الذي نجح على رأس البنك المركزي فيما ألقي القبض على بن صالح وحكم عليه بالسجن." والباهي الأدغم والهادي نويره من رجالات تلك الفترة...

"في السبعينات، نجحت حكومة الهادي نويرة في النهوض بالاقتصاد بفضل جملة من الإجراء ات ذات الطابع الليبرالي من اهمها قانون أفريل 1972 الداعم للمؤسسات المصدرة لتبلغ نسبة النمو مالا يقل عن 12% سنة 1972.

حزبيا تكتلت حول الوزير أحمد المستيري مجموعة نادت بتحرير النظام السياسي واستطاعت بكسب الأغلبية أثناء مؤتمر الحزب الاشتراكي الدستوري إلا أن بورقيبة رفض نتائجه ونظم مؤتمر ثان عام 1974 وقع

فيه رفت عدد منهم فيما استقال آخرون. في جانفي 1974 فجر بورقيبة مفاجأة مدوية بإمضائه على وثيقة إعلان وحدة تونس وليبيا لكن سرعان ما تراجع عنها مما أدّى إلى توتر علاقته بالقذافي .وفي عام 1975 وقع تغيير الدستور لتمكين بورقيبة من الرئاسة مدى الحياة فيما أصبح الوزير الأول هو خليفته الدستوري. في النصف الثاني من السبعينات وفي ظل تدهور عرضي لصحة الزعيم بورقيبة برز إضافة للهادي نويرة وزير الدفاع عبد الله فرحات ومدير الحزب محمد الصيّاح كرجال الحكم الأقوياء في مقابل شق ضم الحبيب عاشور أمين عام الاتحاد العام التونسي للشغل ووسيلة بورقيبة وبعض الوزراء المقربين منها. في خضم هذا التنافس وفي ظل ظهور توترات اجتماعية، اندلعت أحداث 26 جانفي 1978 اثر إعلان إضراب عام اسفر عن تدخل الجيش وسقوط عشرات الضحايا. شهد عام 1979 إضافة إلى انتقال مقر الجامعة العربية إلى تونس تنظيم مؤتمر العاشر للحزب الذي ادّى إلى تدعيم موقع نويرة في حين أقيل عبد الله فرحات من مو اقعه السياسية على خلفية اسناده للقوات المسلحة مهمة الإشراف و التحضير المادي للمؤتمر ممّا اغضب بورقيبة المتمسك بمبدأ عدم إشراك العسكر في السياسة."

وهكذا كانت هذه الأحداث تلهب مدرجات الجامعة المسيّسة، محرار الوضع في و اقع الأمر، وتؤجج الشارع الصامت، المحافظ على لقمة العيش، وتتفجر هنا وهناك كلما وجدت "قداحة" لذلك ك «الخميس الأسود" و" ثورة الخبز". خاصة وأن القوميين واليسار والاسلاميين ومختلف الحركات الأخرى كانت تلتقط هذه المؤشرات السلبية وتستفيد منها ايجابيا، على حساب الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم، بالتجييش والتجنيد ورص الصفوف واكتساب المزيد من التأييد في الأوساط المثقفة والشعبية على حد السواء. وظهر أسلوب آخر من المعارضة والمقاومة، الموسيقى الملتزمة والكلمة الملتزمة والتوجه الملتزم والفكر المجنح الذي لا يحصر ولا يقبر. ومن منا لم تحركه كلمات الأزهر الضاوي وتهز مشاعره وترج كينونته؟ "يا شهيد"... "بدأ الأزهر الضاوي[32] مشواره الفني في السبعينات، وكان من أو ائل المبدعين في الفن الملتزم وقد وجد تجاوبا في الأوساط الطلابية، مثله مثل عدد آخر من الفنانين من أهمهم الهادي قلة و[حمادي العجيمي] ومحمد بحر إلى جانب فرق موسيقية من بينها [أولاد المناجم] و مجموعة البحث الموسيقي [البحث الموسيقي]. وقد غنى الأزهر الضاوي مع شقيقته رفيقة الضاوي. وقد خلّد في أغانيه عديد الأحداث التي

[32] الأزهر الضاوي - ويكيبيديا(wikipedia.org)

عايشها إمّا بالجامعة وهو لا يزال طالبا وإمّا بقفصة منطقته الأصلية التي عُرفت بنضالات أهاليها من عمّال الحوض المنجمي. فكتب وغنّى وهو طالب "وينو الاستقلال يا دم الفلاقة"، "لازم تحوير الدستور" بعدما أقدم النظام القائم على إدراج الرئاسة مدى الحياة للرئيس بورقيبة في صلب الدستور. كما تغنّى حتّى بأحداث أقل أهمية مثل دعوة الفنان "جونس هوليداي" إلى تونس لإقامة حفل، مطلعها "جوني هوليداي، لابس كسوة دجين، فنّان الحضارة، والحضارة فنون". كما تغنّى بالثورة الفلسطينية وصمود المقاومة في بيروت: "صامد رياح الهول ما تدّيني، شامخ شموخ الطود فلسطيني". وقد أصدرت له شركة "صوت الأمل" شريطين الأوّل بعنوان "نوّار اللوز" والثاني بعنوان "موّال الغصّة." ولا تزال كلمات يا شهيد ترنّ في الآذان وتهز الوجدان...

كانت هناك فرق مشهورة في أوساط الطلبة تلهب عقولهم وتدعم أفكارهم وتوضح رؤاهم وتدفعهم دفعا إلى مجابهة الفكرة بأفكار والرأي بآراء...

يقول أحمد نظيف في موقع رصيف [33] " ... كانت إذاعة أغنية لفرقة "البحث الموسيقي" أو "الحمائم البيض" تُعدّ خرقاً خطيراً لقرار سلطوي ضمني يقضي وجوباً بمحاصرة "الأغنية السياسية".

[33] https://raseef22.net/article/42583 أحمد نظيف

كانت الأصوات الفنية المعارضة، أو "البديلة" كما تسمي نفسها، محاصرةً داخل أسوار الجامعات والمقارّ النقابية، وتساهم في تشكيل وعي ديمقراطي وثوري مواجه للنظام بأجهزته الأمنية والإعلامية.

حاول النظام كثيراً القضاء على هذه الأصوات. كان يعتبرها "نشازاً". لكنها كانت تستمد إرادة البقاء من خزان الحركة الطلابية التي احتضنت هذا اللون الفني الفريد وحمته من ضربات السلطة. وفي المقابل كانت الأغنية السياسية التونسية تعبر عن الطالب التونسي وعن همومه الاجتماعية والسياسية.

كانت أغاني ك «هيلا هيلا يا مطر" و "يا نخلة وادي الباي" أو "نشيد الاتحاد" بصوت فرقة أولاد المناجم تستطيع أن تحرك جماهير الطلاب وتلهب مشاعرهم المكبوتة وتحول مدارج الجامعات إلى ساحات للتظاهر والعصيان."

" بدأت تتبلور أغنية ذات توجه سياسي في تونس أواخر ستينيات القرن الماضي. ففي سياق من تحوّلات سارت على إيقاع إخفاق النظام التونسي سياسياً واجتماعياً و اقتصادياً، وهزيمة 1967، والثورة الطلابية الفرنسية، بدأت الحركات اليسارية التونسية المعارضة تستشعر أهمية العمل الثقافي والفني في نشر الوعي وتعبئة "الجماهير".

يسمي الباحث التونسي أبو ناظم المرزوقي هذه المرحلة من تاريخ الأغنية السياسية بتونس "مرحلة العفوية وعدم النضج". وروى لموقع "رصيف 22 «أنها بدأت بتطويع الأغاني الشعبية نحو مضامين هادفة أو التغني بمواضيع مثل الهجرة والفقر وفلسطين، كأغاني الراحلين الهادي قلة وحمادي العجيمي ومجموعة "أصحاب الكلمة".

لكنه يعيد الانطلاقة الحقيقية للأغنية السياسية في تونس إلى أحداث "الخميس الأسود"، عندما دخلت السلطة في صراع مع المنظمة النقابية المركزية وأطلقت الرصاص الحي على عمال مضربين وقتلت منهم العشرات يوم 26 يناير 1978."

" ولفت المرزوقي إلى "أن المد الذي عرفته الحركات الاجتماعية في تونس خاصة العمالية والطلابية، أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات، نتيجة تزايد الفقر والفروق الاجتماعية والقمع الوحشي مع الإحساس المتزايد بالغبن والهزيمة والانكسار، حرك مشاعر النخبة المثقفة للإبداع الشعري والموسيقي، فظهرت مجموعة أصحاب الكلمة كفرقة تؤدي أغاني رمزية دون مضامين سياسية واضحة". مضيفاً أنه بعد أحداث الخميس الأسود وتنامي المد الطلابي في الجامعة، ظهرت قصائد ثورية تتحدث عن العدالة الاجتماعية والحرية كقصائد المولدي زليلة (عم خميس) وعلي سعيدان ومختار اللغماني وبلقاسم

اليعقوبي ومحمد الصغير أولاد أحمد والمهدي بن نصيب وعبد الجبار العش ومنصف المزغني وكمال الغالي وأدم فتحي.

وتابع المرزوقي أن هذه القصائد تلقفها موسيقيون هواة ومسيسون مهرة من المنتمين أساساً إلى النخبة اليسارية التي عرف أغلب نشطائها المنافي والسجون أو التهميش والتجويع، مثل مجموعة "أمازيغن" وحمادي العجيمي ومحمد بحر والهادي قلة ومجموعة "البحث الموسيقي بقابس" والزين الصافي ولزهر الضاوي ومجموعة "عشاق الأرض" ومجموعة "الحمائم البيض".

وتقول فاطمة بدري في موقع درج[34] " أدى فشل الثورات في سوريا وليبيا ومصر إلى إعادة النمط الفني إلى مداره الأول من تضييق وقمع، فيما استطاعت الموسيقى الملتزمة أن تنتعش في تونس.

كانت الفنون عموماً والموسيقى خصوصاً لغة تعبيرية مكنت الإنسان من تقديم رؤاه و أفكاره التي تنبثق غالباً من الو اقع المعيش ومن رحم أحداث فارقة. وفي هذا السياق، شهد العالم العربي في بدايات القرن الماضي ظهورنمط موسيقي جديد، بوصلته الأولى مشاغل الناس ودأب على مقاومة السلطة. نمط لم يستقر على تسمية واحدة وتراوح بين الفن البديل والأغنية السياسية وغالباً الموسيقى الملتزمة كدلالة على

[34] daraj.com بتاريخ 2020/02/19 فاطمه بدري

الالتزام بقضايا الشعوب الكبرى والتحفيز على المقاومة من أجل التغيير ونيل الحقوق .

وتدريجاً، بات ما يعرف بالموسيقى الملتزمة عبارة عن رافعة ثقافية لمواجهة السلطة، لها روادها ومريدوها في المنطقة العربية، فكانت الانطلاقة الحقيقية مع السيد درويش في ستينات القرن الماضي، تلاه الشيخ إمام الذي تحول سريعاً إلى أيقونة هذا النمط الفني ومحرك لعجلته على نطاق واسع وملهم للجماهير. فعلى خطاه سارت مجموعات وفرق وبات صديق الطلبة في الجامعات العربية وبخاصة التونسية. وبرزت أسماء أخذت على عاتقها مسؤولية حمل لواء هذه الموسيقى، على رغم خطورتها في ظل أنظمة سياسية ترفض كل فكر ناقد وكل ما من شأنه تحريك الشعوب ضدها .

وعلى مدار عقود، شهدت الموسيقى الملتزمة فترات انتعاشة وانتكاسات متتالية نتيجة القمع والاستبداد السياسي بخاصة بعد فترة السبعينات، فتراجع نشاطها وانحصر بين جدران الجامعات والنقابات. وأبعد هذا الوضع نجوم الأغنية الملتزمة عن الجماهير وأسقطهم في اجترار أفكارهم التي بدت لسنوات طويلة أشبه بالقطيعة مع المواقع...

يرى الفنان عادل بوعلاق قائد فرقة أجراس أن تونس تعد حالة استثنائية في علاقتها بالموسيقى الملتزمة، مقارنة ببقية الدول العربية لاعتبارات اختزلها أساساً في طبيعة التعليم في المعاهد والجامعات ووجوه إعلامية انتصرت لهذا الفن، على رغم التضييق المسلط عليهم." وهذا هو التعليم الذي راهن عليه نظام الزعيم بورقيبة وجعله مطية لكل تطورو انفتاح...

"ويقول بوعلاق لـ" درج"، "نحن في مرحلة شبه انتقالية من موسيقى موجهة للترفيه، موسيقى بلاطات، إلى موسيقى تعبيرية بمعنى أن الموجة الجديدة للفعل الموسيقي تختلف عما سبق، إذ أصبحنا نتعاطى مع فن الموسيقى وليس مع فن الغناء فقط. لأن تاريخ الموسيقي العربي تاريخ غناء ولم ننفصل عن سلطة الخطاب، في حين أنه مع الموسيقى الملتزمة أصبحنا نستمع إلى قطع موسيقية بمحاور معينة ... لقد دخلنا مرحلة جديدة، وهي فن الصوت وتشابك الأصوات. وأصبحت بذلك علاقتنا بالكلمة جزءاً لا يتجزأ من فعلنا الموسيقي وهذا المعطى سيحدث نقلة نوعية في تاريخ الموسيقى العربية."

ويضيف بوعلاق أن هناك وضعية خاصة في علاقة تونس بالموسيقى الملتزمة فهي أول بلد سجل أغاني الشيخ إمام، وأكثر من احتفى بها وهي البلد الذي تمرد بعض إعلاميها على الضغوط والقيود المسلطة عليهم،

واحتفوا بهذا النمط الموسيقي على غرار المرحوم نجيب الخطاب الذي تجرأ على تكريم فرقة البحث الموسيقي في برنامجه الذي يقدمه على القناة الرسمية، على الرغم من أنها من المجموعات المغضوب عليها من السلطة. وكذلك الحبيب بلعيد الذي كان ناشطاً على أمواج الإذاعة الدولية، وكان مؤمناً جداً بهذا اللون الموسيقي، وخصص له مساحة مهمة، وربما لم تنتبه السلطة أن بلعيد كان يضرب موعداً مع جماهير واسعة، لا سيما من الطلبة. حينها كان يعتقد أنها إذاعة نخبوية موجهة لأعداد قليلة، والحقيقة أنها كانت تؤسس لعلاقة وطيدة بين الناس والموسيقى الملتزمة. وهذا التحدي الذي خاضه كلاهما أجزم أنه كان مفقوداً في بقية الدول العربية. كما أن إقامة محمود درويش في تونس لسنوات أثرت في المشهد الشعري في تونس، وعلى خلاف الدول العربية التي هجرت أغلب شعرائها، لم يغادر الشعراء التونسيون وتمسكوا بالبقاء وخاضوا الصراع مع السلطة مستفيدين من وجود نقابة عمالية قوية "الاتحاد العام التونسي للشغل"، وجامعة قوية بمحتواها المعرفي. وأعني أساساً الفلسفة وعلوم الاجتماع وغيرها من الاختصاصات في المعاهد العليا كالموسيقى والمسرح والفنون الجميلة، وقد أشدد أكثر على المسرح لأنه أعطى دفعاً قوياً للموسيقى الملتزمة بتفاعله منذ الثمانينات معها في أعمال كثيرة. كما أن خريجي هذا

الاختصاص ساهموا في استيعاب هذه الموسيقى، وهو ما يجعلنا نتحسس أنه مستقبلاً، سيكون هناك حضور قوي للأغنية الملتزمة أو الموسيقى الملتزمة، التي ترتبط بالتفكير والفكر وهذا مهم جداً لأننا سنتحدث عن الو اقع بو اقعية أكبر، لأن ما نعيبه على الأغنية السائدة هو انفصالها عن هموم الناس الحقيقية حتى في طرحها للحب.

وتجدر الإشارة إلى أن إذاعة أغنية لفرقة "البحث الموسيقي" أو بعض المجموعات الأخرى المعروفة بانتمائها للعائلة الموسيقية الملتزمة في فترة ما قبل الثورة، كانت تعد خرقاً لا تحمد عقباه، في ظل الحصار الذي كانت تفرضه السلطة. لكن في الأثناء كانت أسوار الجامعات ومقار النقابات الكبرى كاتحاد الشغل، حاضنتهم الدائمة، حتى أن محاولات السلطة للقضاء عليهم باءت بالفشل، لأن خزان الحركة الطالبية، خصوصاً اليساريين، كان لا ينضب وظل وفياً لهذا اللون الفني الذي وجدوا فيه الكلمة التي تنطق بهمومهم وأحلامهم وتدفعهم إلى المقاومة وتوجه وعيهم .

ولئن تتبعت الأغنية السياسية في العالم العربي هموم الشارع وتبنت قضاياه ور افقت تجارب القمع والسجن والفقر، وكانت لعقود صوت الحالمين بالتغيير الشامل، فإنها تأثرت من حالة الحصار التي فرضت عليها في الوقت الذي سطع فيه نجم الأغنية الاستهلاكية، وباتت المنتج

السائد المتاح بخاصة للجماهير العربية التي عملت الأنظمة التي تحكمهم على إبعادهم من سبل التفكير وإلهائهم بالترفيه وتسطيح عقولهم.

لكن جرادي يرى أنه على رغم هذا الثراء الكبير على مستوى الكم والكيف إلا أن التأثير في الجماهير بقي محدوداً، مقارنة بالحقبات السابقة التي استطاع فيها نجوم الأغنية الملتزمة تحريك الجماهير ودفعها إلى المقاومة.

ويقول جرادي إن مرد هذا يعود إلى تغير وسائل القمع التي باتت أكثر ذكاء وخطورة، إذ لم تعد تعتمد على الحصار فقط و اتجهت نحو تكريس نظرية الاستثمار في الجهل. فالسلطة أصبحت تعي أنها بمجرد تسطيحها الذوق العام فإنها ستحد من ذكاء شعوبها ووعيها وبالتالي سيتحولون إلى قطيع من السهل التحكم في خياراته وميوله وغيرها وهو ما يحدث عملياً."

الشيخ إمام وسيد مكاوي والهادي قلة وناس الغيوان وأولاد المناجم وأصحاب الكلمة وغيرهم كان لهم تواجدهم في مدرجات الجامعة التونسية عبر انتاجاتهم الموسيقية المستمدة من الظروف المعيشية لواقع الطلبة وأهاليهم هؤلاء القادمون من مختلف الشرائح والجهات...

وهو ينهل من هذا الجديد الذي لم يعهده، يستمع لمفارقاته من إذاعة البي بي سي "هنا لندن" وما يجود به أصدقاؤه المقربين من الطلبة وغيرهم، خاصة منهم النادل المنصف وعم عمر بائع الصحف والمجلات. كان الشارع التونسي ظاهريا جميلا يستطاب فيه العيش، تغذيه فنون تلك العقود، تطربه وتهز من معنوياته، لكن الحزن والغضب والحنق والألم سكن في أعماق بعضهم كالنار في الرماد واستمر طوال عقود.

وها هو أيضا يسمع الكثير عن قصص لم تسجل ولم يجرؤ أي كان على سردها وتدوينها. فهي تمرر همسا من الأفواه إلى الآذان من أهمها حكاية الزعيم صالح بن يوسف وقصة اغتياله التي سمع عنها الكثير في معهده ومحيطه وحيث هو الآن ولم يستوعب أحداثها وأشخاصها لتشابكها وتشعبها. فهي كثيرة التشويق كالقصص البوليسية، تلعب فيها السياسة وحب السلطة والنفوذ والخيانة والغدر دورا كبيرا، يقول الباحث عائد عميرة في الموقع التالي[35]

"تعود أطوار القضية إلى يوم 12 من أغسطس/آب 1961، حيث أرسل بورقيبة فريقًا تمكّن من استدراج صالح بن يوسف إلى نزل رويال الكائن وسط مدينة فرنكفورت بألمانيا.

[35] https://www.noonpost.com/cont كتبه عائد عميره بتاريخ 2019/05/16

قام فريق الاغتيال في إطار التحضير للتصفية بالتنقل عدة مرات عام 1961 بين سويسرا وألمانيا لرصد ومتابعة تحركات بن يوسف الذي كانت تصفه الصحف الوطنية زمن الاستعمار بـ«الزعيم الأكبر."

وكان قد كلف زرق العيون في فترة سابقة ضابطين مزعومين للاتصال بالضحية وإيهامه بأنهما في صفه ويرغبان في تصفية بورقيبة، فقبل بن يوسف التعامل معهما لتنجح عملية الاختراق.

في الصباح الباكر من يوم 12 من أغسطس/آب 1961، غادر حميدة بنتربوت فندق "فالدورف" مع المنفذين الإثنين، عبد الله بن مبروك ومحمد بن خليفة محرز، و اقتنوا تذاكر ذهابًا و إيابًا من مطار زيورخ إلى فرانكفورت فيما ظلّ زرق العيون في المدينة السويسرية.

في فرانكفورت، حجز بنتربوت غرفة في فندق "رويال" الواقع قبالة محطة قطارات المدينة، باسم المنفذين الاثنين، وعلى الساعة الرابعة بعد الزوال من نفس اليوم، هاتف بنتربوت بن يوسف وطلب منه القدوم من مدينة "فيزبادن" أين يقيم إلى فرانكفورت وذلك لمقابلة الضابطين المزعومين في النزل.

امتنع بن يوسف في البداية لأنه كان يستعد مساء ذلك اليوم للسفر إلى غينيا بدعوة من رئيسها سيكو توري لحضور قمة دول عدم الانحياز،

ولكنه استجاب بالنهاية على اعتبار ثقته في بنتربوت وحكم القرابة العائلية.

مساء ذلك اليوم، وصل بن يوسف للنزل مع زوجته صوفية واستقبله كل من مبروك ومحرزوطلبا منه الصعود إلى غرفة بالطابق العلوي وهو ما استجاب إليه بن يوسف الذي طلب من زوجته انتظاره في مقهى النزل.

ما بين الساعة الرابعة ونصف والخامسة تحديدًا، وبينما كان بن يوسف جالسًا على أريكة الغرفة، أطلق المنفذان النار من مسافة قصيرة باستعمال مسدس من عيار 7.65 ملم على مستوى جمجمة بن يوسف ومن الخلف أيضًا ليُردى قتيلًا.

غادر المنفذان الغرفة تاركين مفتاحها بالباب من الخارج وأعلما عون الاستقبال أنهما سيعودان بعد وقت قريب لأنهما ينتظران مكالمة هاتفية، ولكنهما لم يعودا.

خلال الساعتين اللاحقتين لمغادرة منفذي الاغتيال، تلقى موظف الاستقبال بالنزل 3 مكالمات هاتفية لم يحوّلها للغرفة مشيرًا على المخاطب بأن نزيلي الغرفة لم يعودا بعد، وطلب المخاطب في المكالمة الأخيرة إعلامهما عند حضورهما بضرورة التحول إلى مكان حدده لعون الاستقبال.

في الأثناء ومع الساعة السابعة إلا ربع، استرابت صوفية بن صالح من عدم رجوع زوجها خاصة مع اقتراب موعد سفرهما إلى غينيا، فصعدت للغرفة لتجد زوجها ملقى على الأريكة وهو يلهث وتصدر منه حشرجة والدماء تنزف من مؤخرة رأسه ويداه مفتوحتان ومفكرته ممزقة وملقاة على الأرض مع القلم، فصاحت بأعلى صوت طالبة النجدة.

نقلت سيارة إسعاف بن يوسف مضجرًا بالدماء إلى مستشفى فرانكفورت أين جرت محاولة إنقاذه وأجريت له عملية جراحية لكنه توفي تحديدًا على الساعة الحادية عشر إلا ربع من ذلك اليوم.

في تلك الليلة الفاصلة عن يوم الأحد، شوهد فريق الاغتيال بزعامة زرق العيون في فندق "رو ايال" في زيورخ السويسرية ليغادروا جميعًا صبيحة اليوم الموالي إلى تونس.

ويكتب عائد عميرة عن حيثيات العملية فيقول:

"أشارت هيئة الحقيقة والكرامة في تقريرها الختامي الصادر مؤخرًا، إلى أن بورقيبة اتخذ قرار تصفية رفيق دربه السابق وخصمه اللاحق صالح بن يوسف، على إثر لقاء عاصف جمع بينهما بمدينة زيوريخ السويسرية يوم 2 من مارس/آذار 1961.

انتظم هذا اللقاء بقاعة النزل الذي يقيم فيه بورقيبة وذلك بسعي منه وبتنسيق مع مدير ديوانه البشير زرق العيون، وانتهى اللقاء بعد تشنج

بمغادرة بن يوسف بطلب من بورقيبة الذي اتهمه بمحاولة اغتياله بواسطة مسدس كاتم للصوت أو بالسم.

إثر ذلك، كوّن بورقيبة وبإيعاز من وزير الداخلية وقتها الطيب المهيري فريق الاغتيال مكلفًا مدير ديوانه ورئيس حرسه البشير زرق العيون، ابن خالة بن يوسف، بالإشراف على المهمة.

وقد قام بورقيبة بتوسيم القاتلين وهما عبد الله بن مبروك ومحمد بن خليفة محرز بوسام الاستقلال عام 1974 بمناسبة الذكرى الأربعين لانبعاث الحزب الدستوري الحر (الحزب الحاكم) كما كافأ المشرف الميداني زرق العيون بالصنف الأكبر من وسام الجمهورية.

تسعى عائلة صالح بن يوسف و أنصاره الذين يعدون بالآلاف في تونس إلى اعتراف الدولة التونسية بالجريمة." ويتابع الباحث عائد عميرة:

"ثبت، وفق هيئة الحقيقة، أن السلطات الألمانية انتهت بختم الأبحاث اللازمة في واقعة الاغتيال بتوصية من سفارة ألمانيا بتونس التي أكدت دور البشير زرق العيون في المحيط الضيق لبورقيبة وعليه من غير الموصي به إصدار بطاقة إيقاف بحقه ذلك أن تتبعه من شأنه توريط رئيس البلاد نفسه وهو ما يعني إفساد العلاقات التونسية الألمانية.

ولم يقم بورقيبة، في الأثناء، بالمطالبة بجلب جثة بن يوسف أو بفتح تحقيق قضائي عن و اقعة اغتياله وهو ما يمثل دليلًا آخر على تورط الدولة في عملية التصفية، وفق الهيئة.

وتعتبر معارضة بن يوسف لاتفاقية الاستقلال الداخلي بين تونس وفرنسا التي وقعها الحبيب بورقيبة سنة 1955، القطرة التي أفاضت الكأس في علاقته مع بورقيبة، فبعد أن كان من رفاق بورقيبة في الحزب الحر الدستوري الجديد، أصبح ألد أعدائه، فقد كان بن صالح يعتبر الاستقلال الداخلي منقوصًا وخيانة، وشدد على ضرورة مواصلة الكفاح المسلح للحصول على الاستقلال التام لبلدان المغرب العربي كلها وليس تونس فقط، بينما كان الحبيب بورقيبة يطالب المقاومين بالنزول من الجبال وتسليم أسلحتهم.

اتسعت شقة الخلاف بين الرجلين، فاتهم بن يوسف بورقيبة بأنه "عميل للغرب وعدو للعروبة والإسلام"، وفشلت كل محاولات الصلح بينهما، وفي مؤتمر الحزب الحر الدستوري الجديد - في 15 من نوفمبر/تشرين الثاني 1955 - غلبت كفة بورقيبة بدعم من قيادة اتحاد النقابات، فاتخذ الحزب قرارًا بطرد صالح بن يوسف من هياكله، وبدأت مضايقات وملاحقات أتباعه." وهكذا مهد لتونس قانون لعبة

قديم جديد، صارم عربيد، إذا التقى ساكنان يحذف أحدهما حتما وبكل الوسائل...

هذه المعلومات وغيرها كانت تروج في محيط الطلبة وتبنى عليها نضالات بعضهم خاصة أتباع صالح بن يوسف وبقية معارضي الأطياف اليسارية والقومية للنظام الحاكم آنذاك وبعضهم يستغرب كيف لبورفيبة أن يثق بزرق العيون هذا الذي غدر بابن خالته. للسياسة والسلطة والحكم والنفوذ شؤون أخرى والمصالح هي التي تنتصر على المو اقف...

صديقه ورفيق السكنى القادم من أقصى السباسب بالوسط الغربي، ذلك الرفيق الطيب المعشر كان يساريا معتدلا وسطيا وهادئا. كان من هؤلاء الذين يأخذون من كلّ شيء بطرف، ما يعجبه منه وما يصلح للمجتمع الذي يتصوره، ويميل أكثر في توجهاته السياسية، دون تبني أو انخراط، إلى "سياسات الوسط اليساري[36] أو سياسة وسط اليسار، والتي يشار إليها أيضاً باسم سياسة اليسار المعتدل، وهي وجهات نظر سياسيّة مائلة إلى اليسار على المقياس السياسي اليميني- اليساري، ولكنّها أقرب إلى المركز من سياسات اليسار الأخرى.

[36] ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

أولئك الذين على يسار المركز يؤمنون بالعمل ضمن الأنظمة القائمة لتحسين العدالة الاجتماعية، يدعم وسط اليسار درجة من المساواة الاجتماعيّة التي يعتقد أنها قابلة للتحقيق من خلال تشجيع تكافؤ الفرص. لقد عزّز وسط اليسار المساواة في الحظوظ والفرص، التي تشدد على تحقيق المساواة، وتتطلّب المسؤوليّة الشخصيّة في المناطق التي يسيطر عليها الفرد من خلال قدراته ومواهبه وكذلك المسؤوليّة الاجتماعيّة في المناطق الخارجة عن سيطرة الفرد.

يعارض وسط اليسار وجود فجوةٍ واسعةٍ بين الأغنياء والفقراء ويدعم تدابير معتدلة لتقليص الفجوة الاقتصاديّة، مثل ضريبة الدخل التدريجي، والقوانين التي تحظر عمل الأطفال، وقوانين الحدّ الأدنى للأجور، والقوانين التي تنظم ظروف العمل، والحدود على ساعات العمل والقوانين التي تضمن حقوق تنظيم العمال، يدّعي وسط اليسار أن المساواة الكاملة في النتائج غير ممكنة، ولكن بدلاً من ذلك، تسمح الفرصة المتكافئة وجود درجة من المساواة في المجتمع."[37]

وتطرق بهم الحديث ذات مساء إلى مسائل كثيرة ألقت بظلالها في الستينات والسبعينات وحتى الثمانينات من بينها منظمة العامل

[37] ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

التونسي[38]، وهي حركة يسارية تونسية كانت نشطة بين أوائل السبعينات ومنتصف الثمانينات. وتعتبر العامل التونسي من الجيل الثاني للحركات اليسارية في تونس بعد حركة آفاق التي انتمى إليها عدد من مؤسسيها. تعود جذور العامل التونسي إلى المجموعة التي التقت حول جريدة العامل التونسي وهي نشريه باللغة الدارجة أسست عام 1969. أصبحت الجريدة ناطقة باسم حركة آفاق بعيد صدورها إلى أن استقلت عنها عام 1971 لتشكل نواة لمنظمة العامل التونسي. التحق بالمنظمة عدد كبير من الطلبة من ذوي التوجهات المتنوعة من ماركسيين وماويين وتروتسكيين وقوميين يساريين مما أثر لاحقا على تجانسها. وقد أضفت التباينات الإيديولوجية داخل الحركة إلى حصول انقسامات أدت إلى ظهور أكثر من تيار منشق مثل "العامل التونسي - الخط الثوري" و"العامل التونسي -مجموعة 77". اتخذت المنظمة سواء التيار السائد أو التيارات الأخرى مو اقف راديكالية من الحكم البورقيبي ونظام الحزب الواحد مما عرض أعضاءها للاستنطاق والمحاكمات منذ عام 1973 ثم عامي 1974 و1975. أفرج عن آخر معتقلي الحركة عام 1980 إثر أحداث قفصة واستقبل بعضهم من قبل الرئيس الحبيب بورقيبة في قصره بصقانس. بقيت الحركة

[38] https://www.kachaf.com/ بتاريخ 2020/06/07

نشطة في الثمانينات أساسا في الوسط الطلابي حيث اصطدمت بحركة الاتجاه الإسلامي الصاعدة آنذاك. ظلت منظمة العامل التونسي، حتى اندثارها في أواسط الثمانينات، تقوم بإصدار بعض المنشورات أو البيانات كان من أواخرها البيان الذي أصدرته بعد أحداث الخبز عام 1984" وهكذا كانت الستينات والسبعينات حبلى بزخم سياسي كبير ترك آثاره ومحطاته في مواجهة الرأي الواحد والحزب الواحد... والفهم الواحد لمكانك سر...

وعن بقية الأطياف السياسية القادمة من الشرق أو المستمدة جذورها منه فيقول موقع زوم[39] " بقيت القوى القومية في تونس أحزابا وشخصيات مستقلة، مُرتبكة في قراءة الوضع الراهن إذ أنها تخوض دائما نقاشات عديدة تنتهي دوما بدون نتيجة ...

ورغم ذلك فإن ما يربك القوميين في تونس هو وضع أنفسهم في وضع تجاذب بين الإسلاميين واليساريين فلا هم شكلوا قطبا مُستقلّا عن الطرفين ولا تحالفوا بشكل نهائي مع هذا أو ذاك، ويبقى التحدي مطروحا على القوميين في ضرورة التوحيد والتمايز البناء بين مختلف المكونات والتموقع بين اليسار والإسلاميين بحيث لا يقع توظيفهم من هذا الطرف أو ذاك، والسؤال لماذا هذا التشتت وقلة الفاعلية والتأثير

[39] http://zoomtunisia.net / بتاريخ 2014/08/16

ولماذا تعددت تنظيمات التيار القومي بكل فصائله وأجنحته وغاب التوحيد والتحالف... " يتساءل موقع زوم الالكتروني.

"التيار القومي ومساره التاريخي أ- البعثيون: نضالات و انقسامات تواجد البعثيون في تونس منذ خمسينات القرن الماضي بعد عودة أبو القاسم محمد كرو (الذي كان عضوا قياديا في حزب بعث العراق)، و تبني الكثيرين لأفكار البعث بعد تو افد طلبة تونسيين للدراسة بالعراق بتشجيع من حزب البعث العراقي الذي دفعهم إلى العمل في تونس ضمن محاور متعددة وبواجهات مختلفة ومنها حزب الدستور، و بعد الانشقاق في صفوف حزب البعث بين سوريا والعراق بداية الستينات انقسم البعثيون التونسيون إلى قسمين : - قسم يؤيد الانشقاق ومن أبرزهم محمد صالح الهرماسي، وعبد الرزاق الكيلاني، الطاهر عبد الله، علي شلفوح.... - قسم ثان وقف مع القيادة التاريخية لحزب البعث بزعامة ميشال عفلق، ومن بينهم مسعود الشابي (أسس في بداية الثمانينات تنظيما سياسيا معارضا باسم "الديمقراطيون التونسيون") ، وعلي النجار، ومحمد صالح الحراث و الميداني بن صالح... - وعمليا اختارت مجموعة سوريا العمل السرّي، في حين أسّس البعثيون في الثمانينات حركة البعث بزعامة فوزي السنوسي والذي توفي في ظروف غامضة سنة 1988 (كما توفي الصادق الهيشري ايضا

في ظروف غامضة سنة 1985 بينما تم اغتيال عمر السحيمي في بيروت سنة 1968)، ثم خلفه عفيف البوني والذي استقال سريعا ليعوضه مبروك المنصوري ثم بقيت الحركة تنشط بشكل سري ومحدود بقيادة الجامعي الهادي المثلوثي إلى حدود 14 جانفي 2011 تحت مسميات عدة، في حين نشطت عناصر البعث السوري ضمن حزبي "الاتحاد الديمقراطي الوحدوي" و حزب الوحدة الشعبية (بقيادة محمد بوشيحة) في ما بقي الدكتور محمد صالح الهرماسي قياديا في حزب البعث الحاكم في سوريا وعضوا بالقيادة القومية... ، ساهم الطلبة البعثيون في الحراك الطلابي في عقدي السبعينات والثمانينات حيث تبنوا خيار تأسيس منظمة بديلة عن الاتحاد العام لطلبة تونس ثم تخلوا عن ذلك الخيار (والذي تبنّاه الاسلاميون في ما بعد)، وعرفت الساحة الجامعية تنظيمي "الطليعة الطلابية العربية" و "رابطات العمل الجماهيري" (تنظيم صغير تواجد ببعض الكليات الكبرى فقط).

ب- الناصريون: مسار تاريخي وتجارب حزبية متعددة. نشأت التيارات القومية ذات التوجه الناصري والعصمتي تاريخيا بعد القمع الدامي الذي مارسه الرئيس الأسبق الحبيب بورقيبة بحق الحركة اليوسفية والذي انتهى باغتيال صالح بن يوسف من طرف المقربين من بورقيبة وبأمر مباشر منه في ألمانيا في بداية الستينات كما تم إعدام أبرز قادة

المحاولة الانقلابية سنة 1962، ورغم ذلك شكل القوميون عديد التنظيمات والأحزاب التي عارضت بورقيبة ونظامه في الداخل والخارج على غرار حركة الوحدويين الأحرار و الجبهة القومية التقدمية لتحرير تونس (المؤسسة سنة 1972 بقيادة عمارة بن ضو بن نايل) و تشكيل القذافي لتنظيم "الاتحاد العام التونسي للشغل فرع ليبيا" (بقيادة الهادي بالطيب) كما تم تأسيس حركة اللجان الثورية – مثابة تونس (والتي تداول على قيادتها عديدون على غرار صالح التايب و محمد فاتح الكافي)، و بعد عملية قفصة (27 جانفي 1980) تم تأسيس حركة التجمع القومي العربي والتي قادها المحامي بشير الصيد سنة 1981 والتي تم تغيير تسميتها سنة 1988 إلى "الاتحاد الديمقراطي الوحدوي الناصري" قبل أن يقع الزج بالصيد في السجن ..."

لم تكن فترة ما بعد الاستقلال سهلة كما يعتقد البعض بل ابتداء من تداعيات مؤتمر البعث سنة 1955 بدأت سفينة النظام تتلاقفها الأمواج والهزات على الأقل طيلة عقودها الثلاثة الأولى خاصة وأن الربان أصرّ على القيادة ومصارعة الأنواء والأعاصير وحيدا أوحد ومجاهدا أكبر والسلطة كالحياة والغانية اللعوب تغر ابن آدم فيتبعها ويتيه في شعابها...

صاحبنا القادم من السباسب الزاخرة بالآثار الرومانية ك «سيليوم وسفيطله وسيفاس ومسكيليانه وتشيلما ونارا" قررذات يوم 9 أفريل بمعية أصدقاء له، أن يركب قطار الضاحية الشمالية إلى حيث الآثار الخالدة التي قارعت الزمن والدول المتعاقبة عليها منذ ألفي سنة قبل الميلاد ومنذ سنة 814 ق.م بالتحديد تاريخ تأسيس مدينة قرطاج.

لم تكن الرحلة طويلة ولم تكن متعبة أوشاقة، كانت مراحلها ومناظرها جميلة رائعة لم تدم أكثر من نصف ساعة من المحطة القابعة قرب وزارة السياحة، عبر البحيرة إلى حلق الوادي ثم خيرالدين والمطاروالكرم ثم صلامبو وقرطاج بيرصه يليها قرطاج حنبعل وأميلكار وصولا إلى مدينة قرطاج العتيقة. هذه التي صُنفت كواحدة من المناطق التراثية العالمية بحسب منظمة اليونيسكو[40]، كما تقول "دانة الوهادين" وتعتبر مدينة سياحية عريقة؛ بحيث يزورها ما لا يقلّ عن مليون سائح كل سنة. توجد في المدينة العديد من المعالم الأثرية المميزة، أهمها: الحي البونيقي والفوروم: يقع بالقرب من متحف قرطاج الوطني، كما يُصنف كأحد الأجنحة التابعة له، وقد تمّ تهيئة هذا المكان في بداية القرن الثاني لما قبل الميلاد، أي خلال عهد حنبل، ويوجد فيه العديد من الشوارع المتقاطعة، والمباني المؤلفة من طوابق مقسمة إلى

[40] 2018/10/23 https://mawdoo3.com

مجموعة من الشقق السكنية. حمامات أنطونيوس: شُيّدت في منتصف القرن الثاني بعد الميلاد، في الفترة بين العام مئة وخمسة وأربعين للميلاد إلى مئة و اثنين وستين، ودمرها الوندال، وبقيت مدمرة لفترة طويلة من الزمن إلى أنّ تم إزاحة التراب عنها في العام ألف وتسعمئة وخمسة وأربعين ميلادي. حي المنازل الرومانية: يتضمن مجموعة من المنازل الأرستقراطية الموجودة على قمة الهضبة الو اقعة إلى الشرق من المسرح، والموزعة بشكلٍ متناسق." ثم كاتدرائية القديس لويس الشامخة على هضبة بيرصا...

كان يسكن قصر الرئاسة بقرطاج وقتئذ الزعيم بورقيبة وماجدته وسيلة بن عمار ويتراءى جبل المنار بسيدي بوسعيد بخضرته وبياض مبانيه وزرقة سمائه كلوحة فنية جميلة وكانت فورة الشباب تلوّن لهم الحياة بشدو العصافير وألوان الأزهار وشذاها وعبق عطرها يعانق شوقها "ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها و اندثر" يقول الشابي...

قبل الرجوع إلى العاصمة قاموا بجولة في قرية سيدي بوسعيد حيث تمتعوا بجمالها الخلاب ومنظر العباب من أعلى الهضبة. زاروا متحف دار العنابي والمدينة القديمة وشربوا الشاي في مقهى سيدي الشبعان

في كنف الهدوء والأمان وعادوا أدراجهم عبر قطار الضاحية قبل الغروب.

في المدينة العتيقة بالعاصمة الكثير من الأسواق العتيقة أيضا، أغلبها قريبا من جامع الزيتونة. وهي أسواق كلها مغطاة تقريبا للوقاية من الأمطار والرياح والشمس المحرقة فنجد الصباغين في باب الجزيرة والحدادين بباب جديد والسراجين عند باب مناره والبقية داخل المدينة كسوق العطارين للتوابل والعطور وسوق الترك للثياب والأقمشة على مقربة من جامع يوسف داي ويوسف داي هو الذي أمر ببناء السوق عندما توافد الأتراك بكثرة واستقروا في المدينة في بداية القرن السابع عشر. وسوق القشاشين أو سوق باعة الخردة وسوق الغزل وسوق الشمع وسوق الكتبيين وسوق الصاغة أو سوق البركة...

أما عن سوق العصر فيقول محمود زبيس[41] يقع سوق العصر وراء باب القرجاني الذي هو أحد أبواب مدينة تونس العتيقة ولم يكن سوق العصر موجودا قبل الفترة الحسينية (1705-1957) على خلاف لعدد آخر من أسواق مدينة تونس كانت قد ظهرت في العهد الحفصي (1228-1537). وهو عبارة عن سوق صغيرة تعرض سلعها بين صلاتي الظهر المغرب، ومن هنا جاءت تسميته بسوق العصر. أما من الجهة اليمنى

[41] عن قدماء مدرسة دار الجلد بتاريخ 2019/07/22

وفي طريق سيرنا الى سوق السلاح المعروف ب«التمارين» حيث يوجد الحمام العتيق «حمام التمارين» ونجد بابا آخر قبالة نهج «سيدي السيد» (وفيه زنقة سيدي دله) المؤدي الي سوقي الطعمة والخردة ثم الى الرحبة (رحبة القمح) حيث توجد زاوية «سيدي ناجي» ...

وينتهي سوق السلاح (قرب باب جديد ونهج المر) مرورا أمام جامع الحلق (المعلم التاريخي المرتب) الذي ساهمت في بنائه أرملة ثرية وذلك بعد أن باعت مصوغها المتكون من حليقات (أي أقراط) ولهذا السبب سمّي الجامع بجامع الحلق وقد رمم هذا الجامع خلال القرن 11هـ ،17م وبُنيت المئذنة الحالية مربعة الشكل. وبالرجوع الى نهج المركاض نجد في أوله زنقة الاكليل المؤدية الى الرحبة ويتميز نهج المركاض بوجود متاجر مختصة في بيع وشراء الصوف على اختلاف أنواعه...

وقصة سوق البركة تبوح أيضا بأسرارها : كان سوقا للعبيد، "لا عبوديّة في مملكتنا[42] ولا يجوز وقوعها فيها، فكلّ إنسان حرّ مهما كان جنسه أو لونه ومن يقع عليه ما يمنع حريّته أو يخالفها، فله أن يرفع أمره للمحاكم"، كان هذا الفصل الأول من الأمر الذي أصدره باي تونس آنذاك، أحمد باي الأول في 1 ديسمبر من عام 1842 والذي يعتبر من يولد في البلاد التونسية حرا لا يباع ولا يشترى.

[42] 2019/07/16 / https://akhbarelyom.com/news/newdetails/2882589

بهذا أصبحت تونس أول دولة عربية تلغي العبودية في التاريخ كما أنها تجاوزت أيضا دولا متقدمة على غرار الولايات المتحدة التي لم تمنع تجارة العبيد إلا في سنة 1863 م.

قبل إلغاء الرق وعتق العبيد في تونس أصدر أحمد باي الأول في 6 سبتمبر 1841 أمرا يقضي بمنع الاتجار بالرقيق وبيعهم في أسواق المملكة آنذاك كما أمر بهدم الدكاكين التي كانت معدة في ذلك الوقت لبيع العبيد مثل دكاكين "سوق البركة" أو ما يعرف بسوق الذهب في المدينة العتيقة بتونس.

اليوم بعد أكثر من 150 سنة تغيرت أمور كثيرة في تونس وتغيرت معها دكاكين "سوق البركة" لتصبح من مكان للعبيد إلى معارض للذهب يتو افد عليها التونسيون في موسم الزفاف.

بني سوق البركة في العهد العثماني من قبل يوسف داي سنة 1612 وتعود أصل تسمية "البركة" حسب بعض المؤرخين إلى الجمال التي تأتي حاملة العبيد من أجل بيعها فتبرك في ساحة السوق بعد إنزال العبيد فسمي "سوق البركة."

يقول العم رضا، أحد تجار الذهب في السوق، "إن سوق البركة يعتبر من أول الأسواق المنظمة في تونس تاريخيا كما انه لم ينتقل مباشرة من سوق العبيد إلى سوق الذهب "بعد قرار منع بيع العبيد بل أصبح قبل

ذلك سوقا لبيع الحرير و الشاشية (قبعة توضع على الرأس) ثم شيئا فشيئا بدأت تتدفق محلات الذهب حتى اختفت المحلات الأخرى بشكل كلي وأصبح السوق كله حكرا على محلات الذهب."

وتعتبر عائلة العم رضا من أقدم العائلات المتواجدة في السوق، جيلا بعد جيل توارثت العائلة قصصا عن بيع العبيد، يقول العم رضا "كان يتم جلب العبيد من مناطق كثيرة من تونس ثم ينقلون إلى سوق البركة ويتم إنزال العبيد في بطحاء السوق التي لا تزال شاهدة إلى الآن على تاريخ تلك الحقبة ثم يأتي أعيان البلاد للمزايدة على الأسعار فيما بينهم وشراء العبيد".

يقع سوق البركة قريبا من ساحة القصبة الساحة التاريخية التي لطالما كانت مركز حكم الدولة التونسية إلى حد اليوم، داخل المدينة العتيقة ووسط تقاطع أربعة أنهج رئيسية تجد سوق البركة بتونس ذو الشكل المربع والذي ينقسم الى 3 أروقة، يتخلل هذه الأروقة سطرين من الأعمدة الطويلة التي تنتشر بينها محلات الذهب ذات الأشكال الجميلة والمتقنة الصنع.

العم محمد تاجر ذهب آخر دخل لسوق البركة لأول مرة في خمسينات القرن الماضي ، من بين القصص التي توارثها العم محمد حول بيع العبيد "شكل السوق مقارنة بالوضع الذي كان عليه قبل 170 سنة لم

يتغير كثيرا حتى أن "المصطبة" التي كان يجلس عليها العبيد لبيعهم لا تزال موجودة ."

كان يغتنم وجوده في العاصمة وفرصة التدريس و الإقامة في قلبها النابض ومخالطة العارفين لأسرارها ليتعرف على ملاحمها التاريخية التي تحتفظ بها كعاصمة لمختلف الدول التي تعاقبت عليها منذ ما قبل الميلاد إذ كل ترك بصمة من بصماته الدالة على تواجده ذات يوم هناك فدوام الحال من المحال و"ابني وعلّي وامشي وخلّي" كما يقول هذا المثل البسيط في ظاهره والعميق في مدلوله و مفهومه.

وكان كذلك يكتشف ما يعتمل في قلب المدينة الثري المتمدن وما يبدو في مدارج الجامعة وبين الطبقات الشعبية خافيا مستترا، خوفا من الحاكم و أعوانه، مع أن ناره تشتعل بقوة في العمق و الأعماق.

صبيحة يوم 13 جانفي 1974 بعد اقتنائه جريدته من "عم عمر" قرب القوس و الأقواس اكتشف وهو في مقهى المغرب جزئيات وفصول هذه الوحدة الاندماجية بين تونس وليبيا على صفحات جريدته ولم تكن غير "الصباح". وعند مروره بـ «العم علي" تبين له وأن الوحدة ولدت ميتة وأن «الجمهورية العربية الإسلامية" وئدت ولا مكان لها في عالم يحكمه الأقوياء من وراء البحار ولم تمر 48 ساعة منذ إعلانها في جربة حتى اطفئت شموعها في العاصمة تونس... وأن مثل هذه الزيجات لا يحصى

ولا يعد، وسنذكرها تباعا، وإن نجحت فلن تعمر طويلا في عالمنا العربي المتشرذم والمتعدد الولاءات... ولم تنجح أي منها في حقيقة الأمر فإن لم تجهض محليا تجهض من وراء الحدود بخيوط ونفوذ الأصدقاء والأعداء على حدّ السواء..

يقول زياد الهاني بعدئذ:

"كنت تلميذا في الـ16 من عمري[43] .. تابعت الخطاب مع اخي و ابن عمنا في شقتهما عشية السبت .. ثم توجهت كالعادة مع زميلي دراسة الي مكتبة " المركز الثقافي الليبي التونسي" في لافييت (نهج الرتل / موقع محطة مترو الباساج حاليا ..) للمطالعة وإعداد دروس الاسبوع الموالي.. اقتحم المكتبة عدد من الطلبة والشباب وطلبوا منا الخروج في مسيرة مساندة لإعلان الوحدة في جربة .. خرجنا معهم .. انطلقت النسبة من الباساج في اتجاه شارع بورقيبة..

بعد اقل من نصف ساعة اتسم اليها آلاف الشباب والمواطنين.. ثم توجهنا نحو مقر الإذاعة الوطنية في شارع الحرية.. وفِي حدود الثامنة ليلا. رجع المتظاهرون الي شارع. بورقيبة .. لكن الأمن تدخل وفرقها بالقوة.

---

[43] زياد الهاني 2019/01/12 عن تدوينه لكمال بن يونس

فرقها بالرغم من رفعها شعارات وحدوية سلمية ومناصرة لفلسطين وتهتف بحياة بورقيبة والقذافي..

بعد ايام فهمنا ان الأوامر صدرت لبورقيبة و الهادي نويرة وآخرين بمنع " تغيير خارطة المنطقة.. "

وعاد بورقيبة علي عجل من جربة الي تونس وقطع الهادي نويرة زيارته الي ايران الشاه..

ثم تكلمت لغة " المدافع.."

في مثل هذا اليوم، أعلنت الوحدة الاندماجية بين تونس وليبيا.

كان بإمكان 12 جانفي 1974 أن يتحول إلى منعرج في تاريخ المنطقة، بالتحام أبناء شعب واحد قسمت بينهم حدود اصطناعية، لكن الحلم للأسف لم يتحقق.

قد يقول بعض التونسيين من ضيقي الأفق ومحدودي الثقافة، مالنا ومال ليبيا؟ لهم دولتهم ولنا دولتنا!!

لكن لو انتبهتم إلى أن عائلات تونسية عريقة كالفيتوري والزواري والطرابلسي والزليتني والحمادي والغرياني والغدامسي والنالوتي وغيرهم تعود أصولها إلى ليبيا، وكذا في ليبيا حيث تجد عائلات ليبية أصيلة ألقابها التونسي والصفاقسي والكافي والحامي وغيرهم تعود جذورها في الواقع إلى تونس، فضلا عن الجهاد المشترك بين شعبي

الشطرين ضد الاستعمار، واسم لوبيا أو ليبيا الذي كان يطلق على الشطرين الموحدين قبل استقرار الفينيقيين ثم احتلال الرومان، لوقفتم على حقيقة أن الشعب واحد وإن توزع على شطرين أحدهما اسمه تونس والثاني ليبيا!!

قد يتساءل البعض، لكن أينهم الوحدويون رافعوا شعارات الوحدة، من هذه القضية المركزية والمشروع الحلم الذي يمثل خلاصا لشطري الشعب المجزّأ بين تونس وليبيا!؟

وحدويونا توزعوا للأسف بين حوانيت كسدت بضاعتها ولم يعد يلتفت لها أحد. ومع ذلك يعاندون ويتخاصمون على إرث صدام وعبد الناصر والبعث بتقسيماته والناصرية بألوانها، غارقين في تفاصيل كتب صفراء تجاوزتها الأحداث، متناسين جوهر الفكرة والسبل العملية لتحقيقها: الوحدة!!

أما فلسطين، قضيتنا المركزية، فحدث عن البحر ولا حرج..

نعيب زماننا والعيب فينا... وما لزماننا عيب سوانا.."

إعلان جربه يومئذ قسم الشعب المغلوب على أمره بأطيافه المتعددة إلى مستبشر بالوحدة والفوائد المنتظرة منها و إلى متشائم من آفاقها ومخرجاتها في ظل اختلاف الرؤى والمصالح خاصة الاختلاف الكبير بين

الزعيم الشيخ ذي التجربة الكبيرة الموالي للغرب سياسة وثقافة و العقيد الشاب ذي الطموح اللامتناهي الموالي للشرق ثقافة وعقيدة و مبادئ. خطان لا يلتقيان في حقيقة الأمر...

أما محمد حسين الشيخ فيكتب[44] "في القرن التاسع عشر، ومع اضمحلال الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على أغلب المنطقة العربية، بدأت النزعة القومية العربية تظهر، ونشطت هذه النزعة بعد ظهور حركة الطورانية المتعصبة للقومية التركية، على حساب الجمعية الإسلامية، وضد العرب. تزامن هذا مع صعود أعضاء جمعية الاتحاد والترقي إلى سدة الحكم في الدولة العثمانية، وإعدام النشطاء الشوام الداعين للقومية العربية على يد الوالي العثماني، جمال باشا، في سوريا ولبنان، عامي 1915 و 1916. ظلت القومية العربية فكرة في أذهان الكثيرين، لكنها تبلورت عام 1945 في إنشاء جامعة الدول العربية، التي أسستها مصر، العراق، سوريا، الأردن، لبنان، اليمن، والسعودية، ثم انضمت إليها باقي الدول. في خمسينيات القرن العشرين، ومع ازدياد نفوذ حركات التحرر العربية من الاستعمار الأوروبي، كانت الدعوة للقومية العربية مزدهرة، وبدأت تنشأ اتحادات بين عدد من تلك الدول، لكنها انهارت جميعها، حتى سكنت المحاولات

---

[44] https://raseef22.net/article/94654 2017/03/12 محمد حسين الشيخ

لإقامة الوحدة مع حلول عقد التسعينيات، باستثناء نجاح تجربة توحيد اليمن الشمالي مع الجنوبي في مايو 1990، وهي تجربة يصفها كثيرون من أبناء جنوب اليمن بأنها كانت اتحاداً بالقوة.

الاتحاد العربي الهاشمي: في 14 فبراير 1958 قام الاتحاد العربي الهاشمي بين المملكة العراقية، والمملكة الأردنية، وهو اتحاد كونفدرالي غير اندماجي، وساعد على قيامه أن حاكمَي الدولتين، الملك فيصل الثاني والملك الحسين بن طلال، من أسرة واحدة (الهاشمية)، وكانت رداً على الوحدة الاندماجية التي كانت تلوح في الأفق بين مصر وسوريا، والتي كانت تحمل أفكاراً معادية للملكية، وللتوجهات الخارجية للأردن والعراق وقتها.

انتهى الأمر بالإطاحة بالنظام الملكي في العراق على يد الجيش، وأعلن عبد الكريم قاسم، في 16 يوليو من العام نفسه حل الاتحاد، واصفاً إياه بالفاسد الذي كان يهدف إلى تدعيم الملكية ووقف حركة التحرر العربي، بحسب كتاب "الدعوة القومية في المجتمع العربي" ليونس أحمد بطريق.

الجمهورية العربية المتحدة: في 22 فبراير 1958 وقع الرئيسان المصري جمال عبد الناصر والسوري شكري القوتلي ميثاق الوحدة الاندماجية بين بلديهما، تحت اسم "الجمهورية العربية المتحدة"، على

أن يكون ناصر رئيساً للجمهورية، والقاهرة عاصمتها، وعلى أن يتوحد برلمانا الدولتين تحت اسم مجلس الأمة ومقره القاهرة أيضاً. وكان خطاب ناصر لإعلان دولة الوحدة من القاهرة تاريخياً:

وكذلك كان استقباله في سوريا:

انهارت دولة الوحدة بانقلاب عسكري سوري قاده عبد الكريم النحلاوي، المعروف بعلاقاته بجماعة الإخوان المسلمين، في 28 سبتمبر 1961. وللمفارقة، مات جمال عبدالناصر في ذكرى هذا اليوم عام 1970، لكن مصر ظلت محتفظة باسم "الجمهورية العربية المتحدة" حتى عام 1971، ولا تزال سوريا تحتفظ بعلم الوحدة إلى الآن، والذي تتوسطه نجمتان، رغم تخليها عن الإسم بعد انهيار الوحدة. يقول عبد الكريم الحسني في كتابه "القومية والديمقراطية والثورة" إن هناك عوامل ساعدت على الانفصال، أهمها: تآمر دول أجنبية وعربية على دولة الوحدة؛ توسط إسرائيل بين الإقليمين الشمالي والجنوبي للدولة التي لا يوجد اتصال بين أراضيها؛ تأميم الشركات والبنوك عام 1961؛ تذمر العمال السوريين من نظرائهم المصريين الذين نزحوا إلى الإقليم الشمالي؛ إلغاء الأحزاب السياسية في سوريا، وخضوعها لسلطة الحزب الواحد "الاتحاد القومي"؛ التفرقة في معاملة المواطنين، وإذكاء روح التمييز من قبل جهاز المخابرات.

اتحاد الجمهوريات العربية: في 27 ديسمبر 1969 اجتمع الرئيس المصري جمال عبدالناصر والعقيد معمر القذافي، قائد الثورة الليبية، ورئيس مجلس قيادة الثورة السودانية، جعفر النميري، في طرابلس، ووقعوا ميثاقاً للتحالف بين الجمهوريات الثلاث. لم ينته الأمر بوفاة جمال عبد الناصر في سبتمبر 1970، ولكن خرج السودان من التحالف. وعقدت مباحثات بين الرئيس المصري أنور السادات، والقذافي، والرئيس السوري حافظ الأسد، لعقد اتحاد بين الجمهوريات الثلاث، تحت اسم "اتحاد الجمهوريات العربية"، بمقتضاه ينضوي الاتحاد تحت دستور واحد، وعلم واحد.

فشلت تجارب الوحدة العربية ولم يبق منها سوى بعض الأبيات الشعرية وأغان للمناسبات تبدو غير واقعية.

أحلام الوحدة العربية التي لم تصمد يوماً...

اتفقت الدول الثلاث على اتخاذ القرارات بالإجماع بين رؤسائها، والتنسيق في التمثيل الدبلوماسي والقنصلي وتنظيم الدفاع والتكامل في مشاريع التنمية، وإنشاء المجالس المتخصصة في شؤون السياسة الخارجية، والثقافة والتعليم، والنقل والمواصلات، والبحث العلمي والاعلام، والخدمات والاقتصاد والتخطيط. يواصل محمد حسين الشيخ.

وفي 1 سبتمبر 1971، أجريت 3 استفتاءات في البلدان الثلاث، وجاءت الموافقة كاسحة على الاتحاد؛ ففي مصر وافق 99.9%، وفي ليبيا وافق 98.6%، وفي سوريا وافق 96.4%. يقول عبد الكريم الحسني في كتابه "القومية والديمقراطية والثورة" إن الاتحاد انحل عملياً بعد حرب 1973، لعدة أسباب؛ ففي مصر لم يكن أنور السادات صادقاً في دعوته بقدر ما كان يريد تدعيم شرعيته أمام شعبه، بالادعاء بأنه يسير على خط جمال عبد الناصر العروبي، وكذلك عارض الاتحاد الاشتراكي، "التنظيم السياسي الوحيد في مصر"، الوحدة لأن الاتفاق لم يشرك القوى الشعبية والسياسية في الأمر، والقرارات فيه اقتصرت على الرؤساء فقط. وفي سوريا كان حافظ الأسد يريد فقط أن يخرج من عزلته بعد انقلابه العسكري، وفي ليبيا عارضت القوات المسلحة الاتحاد واعتبرته مضيعة للوقت. ودعم سقوط الاتحاد جنوح أنور السادات للتصالح مع إسرائيل بعد حرب أكتوبر، الأمر الذي كان يرفضه الأسد والقذافي.

الوحدة الاندماجية بين مصر وليبيا: لم يمض عام على قيام اتحاد الجمهوريات العربية، حتى عُقد اتفاق بين الرئيسين المصري والليبي عام 1972 على قيام وحدة اندماجية بين البلدين، لكن هذا الاتفاق لم يُنفذ على أرض الواقع، لأسباب كثيرة، منها تشكك السادات

في نوايا القذافي في السيطرة على الجمهورية الوليدة، حيث كان لا يزال شاباً طموحاً، بينما كان السادات يكبره بأكثر من 20 عاماً، بالإضافة إلى اختلاف التوجهات بينهما، خاصة بعد حرب أكتوبر، حين اتضحت ميول السادات نحو الاعتراف بإسرائيل واتباع سياسات موالية للغرب، على العكس من القذافي، بحسب ما ذكر لرصيف 22 فاروق عشري، أمين التثقيف السابق بالحزب العربي الديمقراطي الناصري.

الجمهورية العربية الإسلامية: في 12 يناير من عام 1974، أعلن عن اتفاق وحدودي بين ليبيا وتونس، باسم "الجمهورية العربية الإسلامية"، بعد لقاء بين الرئيسين معمر القذافي والحبيب بورقيبة، في جزيرة جربة التونسية. ونص الاتفاق على تولي بورقيبة منصب الرئيس، والقذافي منصب نائب الرئيس، وتولي عبد السلام جلود، منصب الوزير الأول "رئيس الوزراء" ومحمد المصمودي منصب نائب الوزير الأول، على أن يجرى استفتاء شعبي على الاتفاق في كلا البلدين. ولكن بعد الإعلان عن الاتفاق بيوم واحد، تراجع بورقيبة. يقول فاروق عشري إن السياسي التونسي، الحبيب الشطي، حذر بورقيبة من عواقب الوحدة، وقال له: "إن القذافي هو الذي سيسيطر على الجيش بموجب الاتفاق، ويستطيع الإطاحة بك من الحكم متى شاء، فلا تغرّنك وعوده بسداد ديون تونس، وإعطائك منصب الرئيس."

الوحدة السورية العراقية: في 26 أكتوبر 1978 قررت قيادتا حزب البعث الحاكم في سوريا والعراق، تشكيل هيئة سياسية عليا برئاسة الرئيسين العراقي والسوري وعضوية كبار المسؤولين في البلدين، و اتفق الطرفان على عقد اجتماع للهيئة السياسية العليا بشكل دوري كل ثلاثة أشهر في إحدى العاصمتين. وفي 18 مايو 1979 قدمت الحكومة السورية مشروعين لتوحيد عمل الحزب والدولة الموحدة، وطرحت الحكومة العر اقية مشروعين آخرين، ومر الوقت في مناقشة الخلافات على أطر التوحيد، حتى قدم أحمد حسن البكر استقالته من رئاسة العراق، وتلاشى المشروع.

وعن هذا يقول عبد الملك أحمد الياسين في كتابه "حتى لا تضيع الحقيقة" إن صدام حسين، رجل العراق القوي، ونائب الرئيس، هو الذي أفشل الوحدة، بعد أن أوحت إليه قوى داخلية وخارجية أن الاتفاق الذي أبرمه البكر مع حافظ الأسد يستهدف إبعاده من الحكم، لا سيما أن الاتفاق تضمن أن تكون رئاسة دولة الوحدة بالتناوب بين البكر والأسد.

الوحدة السورية الليبية: بعد فشل الوحدة بين سوريا والعراق، أعلن حزب البعث، الحاكم في سوريا، في 3 سبتمبر 1980، ترحيبه بالمبادرة التي طرحها معمر القذافي، بإقامة وحدة اندماجية بين سوريا

وليبيا. وبعدها بأيام، في 10 سبتمبر، أُعلن قرار مشترك بإقامة وحدة اندماجية بين البلدين تتكون بمقتضاها دولة واحدة لها سيادة على القطرين، ثم صدر بيان في 17 ديسمبر من العام نفسه للإعلان عن تشكيل ما وُصف بقيادة ثورية من البلدين تقود العمل الوحدوي، إلى أن يتم وضع مشروع الوحدة التفصيلي عن طريق لجنة أخرى مشتركة. في هدوء انطفأ وهج التجربة الوحدوية، ولم تعلن أي من الدولتين أسباب التراجع، واتجهت ليبيا بعد أعوام قليلة إلى تجربة وحدوية أخرى مع المغرب. ويعلق كامل عبد الله، الباحث في الشأن الليبي، على فشل التجربة، بأن التوجس من طموح معمر القذافي في الزعامة، كان سمة الزعماء الذين تحالفوا معه، كذلك فإن تسرع القذافي نحو الاندماج كان مقلقاً، بالإضافة إلى أن البعد الجغرافي بين البلدين كان له دور، كما شغل الوضع المضطرب في المنطقة سوريا عن هذا الملف. وأضاف لرصيف 22 أن حافظ الأسد كان ذكياً في التعامل مع القذافي، فالعلاقات كانت جيدة بين الدولتين في عهديهما، وجرى تنسيق كبير في المواقف الدولية، خاصة في دعمهما لإيران في حربها ضد صدام حسين، وكذلك الموقف من أنور السادات بعد سلامه مع إسرائيل.

الاتحاد العربي الإفريقي: لم يتوقف سعي القذافي نحو التجارب الوحدوية، ففي أغسطس 1984، وقع معاهدة مع ملك المغرب، الحسن

الثاني، لإنشاء الاتحاد العربي الإفريقي، باعتباره نواة لقيام اتحاد بين دول المغرب العربي. وفي سبتمبر من العام نفسه وقع البلدان اتفاقية للتنسيق الأمني بينهما، كان من أهم بنودها، حرية التنقل لمواطني البلدين لدخول أي منهما، دون تأشيرة. نتيجة لهذا الاتحاد، وُقّعت معاهدة تأسيس اتحاد المغرب العربي في 17 فبراير عام 1989، بين ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا. ولا يزال الاتحاد قائماً إلى الآن، ويهدف إلى التنسيق بين البلدان والتعاون في شتى المجالات.

تجارب تعاونية: هناك تجارب وحدوية عربية أخرى، لكنها أخذت الطابع التعاوني التنسيقي، وليس الاندماجي، مثل: معاهدة التحالف بين العراق والأردن عام 1947. اتفاقية التضامن العربي بين مصر وسوريا والسعودية عام 1957. اتفاقية الوحدة الثلاثية بين مصر والعراق وسوريا عام 1964. اتفاقية التنسيق السياسي بين مصر والعراق عام 1964، والتي تبعتها اتفاقية إنشاء القيادة الموحدة بين البلدين. اتفاقية التنسيق بين مصر واليمن عام 1964. اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر وسوريا عام 1966. اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر والأردن عام 1967 والتي انضم لها العراق لاحقاً. محاولة إنشاء قيادة سياسية موحدة بين مصر وسوريا عام 1976. مجلس التعاون الخليجي عام 1981، ولا يزال قائماً. معاهدة الإخاء والتعاون بين تونس والجزائر

عام 1983. مجلس التعاون العربي بين العراق والأردن ومصر واليمن الشمالي عام 1989. معاهدة الإخاء والتعاون بين لبنان وسوريا عام 1991، وما تبعها من اتفاقيات فرعية. ذهبت تجارب الوحدة العربية، وبقيت القصائد مثل التي قالها فخري البارودي: بلاد العُرب أوطاني من الشام لبغدان ومن نجدٍ إلى يمَنٍ إلى مصر فتطوانِ فلا حد يباعدنا ولا دين يفرّقنا لسان الضاد يجمعُنا بغسان وعدنان. وأغانٍ تعرض في المناسبات..." يكتب الباحث محمد حسين الشيخ...

ولنا من هذه الزيجات الفاشلة الكثيرة تجارب وخيارات...

وحبا للاطلاع ولمعرفة الأشياء وكنهها وجريا وراء المعلومة بدأ صاحبنا يبحث في جذور الجمعيات والحركات والأحزاب ويكوّن زادا في الثقافة السياسية احتكاكا بأصحابه الطلبة من ذوي الاتجاهات والتوجهات ونبشا في الجرائد والمجلات والكتب بمكتبة العطارين وحلا لبعض ما استعصى عليه فهمه بمجالسة العم عمر كلما تسنى له ذلك وبدأت كل المعالم تتضح وتبين أن ما درسه في المعهد عن الحركة الوطنية لم يكن إلا جزءا يسيرا بسيطا مصفى وخاليا من الشوائب على غرار التاريخ يكتبه المنتصرون... وآه لو كتبه المنهزمون أو المتضررون...

ولم يلبث أن مر شهر جانفي ثم عقبه شهر فيفري بالبرد القارس و"قرر غيلان" وحل شهر مارس فاستقبلته عصافير الشارع الطويل فرحة

مستبشرة وكنت تسمع زقزقتها من بعيد من نهج الجزائر ونهج أمي لكار وجمال عبد الناصر، أما على مدارج المسرح البلدي فحدث ولا حرج...
تمطط النهار و أصبح باستطاعة صاحبنا ورفاقه أن يذهبوا إلى حديقة "الباساج" أو حديقة "البلفيدير" خاصة أيام الأحد أو في عشيات الكتابة والمراجعة و توضيب الأطروحة في أجواء طبيعية تفتح المزاج وتلينه. وقد وقع اختياره على مؤلف "روسو" بتوجيه من متفقده و مؤطره آنذاك .Claude Charmion متفقد المدارس المتعاقد مع وزارة التربية التونسية.
" والعنوان الكبير(إميل، أو في التربية، أو دراسة في التربية) بالفرنسية (Émile, ou De l'éducation): هو كتاب لجان جاك روسو ويعدّه من أفضل مؤلفاته وأكثرها أهمية، ,حيث يدرس فيه طبيعة كلاً من التربية والإنسان .نُشر الكتاب عام 1762 ومُنع تداوله على الفور في باريس وجنيف كما حُرقت نسخ أولى طبعاته أمام العامة، وذلك بسبب محتوى أحد أقسام الكتاب والذي كُتب بعنوان "عقيدة الكاهن سافوا". من الجدير بالذكر أنّ الكتاب كان سبباً لإنشاء نظامٍ تربويٍ وطنيٍ جديد في خضم أحداث الثورة الفرنسية.
وتقدمه الموسوعة الحرة ويكيبيديا "يتناول هذا العمل أسئلة أساسية تخص السياسة والفلسفة تتمحور حول علاقة الفرد بالمجتمع،

ويتحدث تحديداً عن تمكّن الفرد، في ظل فساد جماعته، من الحفاظ على الطبيعة البشرية الأصيلة -حسبما يسمّيها روسو- حيث استهلّ الكتاب بالعبارة التالية: "يخرج كل شيءٍ صالحاً من يد الخالق، ثم يعتريه الفساد والنقص بين يدي الإنسان."

يرغب روسو في وصف النظام التربوي الذي من شأنه تمكين الإنسان الطبيعي الذي سبق ذكره في العقد الاجتماعي (1762) من النجاة في ظل فساد المجتمع. ولذلك وظّف الأداة الروائية متجسدةً في إميل ومعلمه لتصوير الطريقة المثلى لتربية المواطن. فكتاب إميل ليس دليلاً أبوياً مفصّلاً فحسب بل وشاملاً لبعض النصائح المحددة فيما يتعلق بتربية الأطفال. يعدّه البعض رائداً في مجال فلسفة التربية في الثقافة الغربية لِما يحمل بين طياته من محتوى متكامل، وهو أحد أول الروايات التربوية."

على هذا دأب صاحبنا طيلة أشهر على البحث والتنقيب في أوجه ما جاء به روسو واستخراج مزاياه ومساوئه على حد السواء بلغة صاحبه وتجليات أفكاره.

كانت سنة مليئة بالدراسات التربوية والفلسفية مشوبة بالدراسات السياسية والاجتماعية في خضم مجتمع سريع التحول وكثير التململ بعد عقدين من الاستقلال وبعد مراحل جد عصيبة لها أهميتها في تاريخ

البلاد. والانسان يدور في فلك مجتمعه يؤثر فيه و يتأثر به في معادلة طبيعية معقدة وصعبة...

أما عن الحركات السياسية المعارضة لحكم الحزب الواحد وللدساترة بصفة خاصة فقد تعددت يمينا أو يسارا... فمن هما اليمين واليسار؟

وإن كانت حركة الاتجاه الإسلامي هي الحركة التاريخية التي تمثل التيار الإسلامي في تونس، والتي تأسست عام 1972 فإنها اعتمدت السرية بادئ أمرها ولم تعلن رسمياً عن نفسها إلا في 6 جوان 1981 م

"وترجع بدايات الحركة[45] إلى أواخر الستينات تحت اسم الجماعة الإسلامية التي أقامت أول لقاءاتها التنظيمية بصفة سرية في أفريل 1972 من أبرز مؤسسيها أستاذ الفلسفة راشد الغنوشي والمحامي عبد الفتاح مورو و انضم إليهم لاحقا عدد من النشطاء من أبرزهم صالح كركر، حبيب المكني، علي العريّض. اقتصر نشاط الجماعة في البداية على الجانب الفكري من خلال إقامة حلقات في المساجد ومن خلال الانخراط بجمعيات المحافظة على القرآن الكريم. لقي نشاط الجماعة في الأول ترحيبا ضمنيا من طرف الحزب الاشتراكي الدستوري (الحزب الواحد آنذاك)، الذي رأى في الحركة الإسلامية سندا في مواجهة اليسار المهيمن وقتها على المعارضة. وفي

[45] https://www.marefa.org/

عام 1974 سمح لأعضاء الجماعة بإصدار مجلة المعرفة التي أصبحت المنبر الفعلي لأفكار الحركة. في أوت 1979 أقيم بشكل سري المؤتمر المؤسس للجماعة الإسلامية تمت فيه المصادقة على قانونها الأساسي الذي انبنت على أساسه هيكلة التنظيم.

أقامت الجماعة مؤتمرها الثاني في مدينة سوسة يومي 9 و10 أفريل 1981 في نفس الفترة الذي عقد فيها الحزب الاشتراكي الدستوري مؤتمره الاستثنائي الذي أعلن فيه الرئيس الحبيب بورقيبة أنه لا يرى مانعا في وجود أحزاب أخرى إلى جانب الحزب الحاكم .أقر المؤتمر الثاني للحركة ضرورة اللجوء إلى العمل العلني كما أقر تغيير الاسم ليصبح "حركة الاتجاه الإسلامي". تم الإعلان عن الحركة بصفة علنية في 6 جوان 1981 م."

يكتب وائل بن جدو[46] "احتلت حركة النهضة الإسلامية حيزا مهما من التاريخ السياسي المعاصر لتونس منذ تأسيسها الأول أوائل السبعينات. وكانت تلك السنوات هي نهاية مرحلة الخمسينات والستينات التي ساد فيها الفكر الثوري والمشاريع الوطنية، على اختلاف مرجعياتها، سواء كانت ماركسية أوقومية، على امتداد الوطن العربي.

[46] https://www.inhiyez.com / بتاريخ 2020/07/29 وائل بن جدو

مثلت هزيمة 1967 ضربة قاصمة، ليس فقط على المستوى العسكري، بل الأخطر من ذلك أنها النار التي أضاء وهجها الأفكار الدينية والرجعية والمشاريع الإستسلامية، و أحرق لهيبها الأفكار التحررية والتقدمية. في غمرة تلك الأجواء التي غطت فيها سحب الدين السياسي- المنتعش بأموال النفط- سماء الوطن العربي و العالم الإسلامي لم تكن تونس بمنأى عن ما يعتمل من حركة تغيير شاملة على مستوى القوى السياسية و الإجتماعية المهيمنة على المشهد.

خلال السبعينات دخلت تونس مرحلة «الانفتاح»، شأنها في ذلك شأن العديد من البلدان العربية، بعد فشل تجربة التعاضد التي سميت بالتجربة الاشتراكية الدستورية. و مع بداية السبعينات تشكلت النواة الأولى لـ «الجماعة الإسلامية» في تونس على يد راشد الغنوشي وعبد الفتاح مورو وغيرهم من الذين تشبعوا بالفكر الديني المهيمن. و اقتصر مشروعهم في البداية على الجانب الفكري و الدعوي من خلال جمعيات المحافظة على القرآن الكريم.

حظيت الجماعة آنذاك بدعم من النظام الحاكم لسحب البساط من تحت أقدام اليسار التونسي. إن أخطر ما يميز تلك الفترة في تونس، وغيرها من البلدان العربية، هي الانحراف بالصراع مع الأنظمة من صراع مشاريع اقتصادية و اجتماعية لتغيير نمط الإنتاج والإطاحة

بالطبقات الحاكمة لصراع ثقافي بين قطبين رئيسيين (السلطة الحاكمة و قوى الإسلام السياسي) لا يختلفان في تصوراتهما الاقتصادية والاجتماعية، عنوانه الرئيس هو الدفاع عن الهوية الإسلامية ضد التغريب و قاعدته الحقيقية مواصلة استفادة الطبقة الكمبرادورية[47] من علاقة التبعية للمراكز الإمبريالية." يكتب وائل بن جدو.

كان التقارب لفترة مع النظام خاصة و أن علاقة الغنوشي مع المزالي كانت جيدة لكن لم تدم الهدنة طويلا. أقيل محمد مزالي وسرعان ما دخل الاتجاه الاسلامي في صراع دموي عنيف مع النظام بداية من أواخر الثمانينات قبل حلول الجنرال بن علي و أفول نجم الزعيم بورقيبة وبعده رغم ما صرح به الغنوشي من أن "ربي *الفوق* و *بن علي* لوطة" حسبما يتردد في أوساط عديدة.

"كانت حركة الاتجاه الإسلامي (حركة النهضة في ما بعد) تخطط للانقلاب على «الحبيب بورقيبة» يوم الثامن من نوفمبر، لكن «بن علي» سبقهم لذلك ونفذ انقلابه يوم السابع من نوفمبر من سنة 1987. يكتب وائل بن جدو، أبدت الحركة مباركتها لهذا التغيير وكانت من الموقعين

---

[47] De l'anglais COMPRADOR هو مصطلح سياسي يكثر استعماله من قبل التيارات الاشتراكية واليسارية ويعني طبقة البورجوازية التي سرعان ما تتحالف مع رأس المال لأجنبي تحقيقا لمصالحها وللاستيلاء على السوق الوطنية...

على «الميثاق الوطني» سنة 1988، و صرح راشد الغنوشي أن «ثقته في الله و في بن علي». رغم كل ذلك رفض بن علي مشاركتهم السلطة لذلك شهدت العلاقة بين الطرفين مواجهة عنيفة منذ بداية التسعينات." يقال عن بورقيبة أنه لم يعط ثقته لعسكري قط والوحيد الذي منحه الثقة أزاحه ذات 7 نوفمبر.

أما عن اشكالية اليسار التونسي فيكتب الأستاذ حسن الطرابلسي[48] "يمتلك التونسيون، وخاصة الإسلاميون منهم، فهما هلاميا وضبابيا عن اليسار. فلقد اقترن الفهم الشائع عن هذا التيار باعتبارهم أصحاب أيديولوجية تعارض الدين الإسلامي وتعادي تعاليمه، وأما أخلاقيا فقد ربط اليسار بكل ما هو رذيلة وفاحشة وخطيئة.

ولا يزال هذا الفهم رغم ما فيه من العمومية والمغالطة سائدا حتى اليوم ليس فقط بين العامة وإنما أيضا بين قطاع من المثقفين والسياسيين.

ولا شك أن هذا الفهم لا يخلوا من النمطية والمغالطة، لأنه لا يتأسس على قواعد علمية وإنما يقوم على توصيف قد يصدق على بعض الحالات ولكنه لا يصل إلى اعتماده قانونا يحتكم إليه. وليس من

[48] نشر في الحوار نت يوم 25 - 04 – 2010 حسن الطرابلسي

السهولة تعريف اليسار التونسي بدقة تحيط بكل جوانبه. إذ تواجهنا مجموعة من الأسئلة التي تتطلب إجابة:

ما هو اليسار التونسي؟ ومن هو اليساري؟ هل يعني اليسار فقط انتماء فكريا إلى المدرسة الاشتراكية أو الشيوعية الماركسية بغض النظر عن تلاوينها؟ أم أن اليسار ينحصر في تبني الفكر الماركسي بتأويلاته المختلفة من لينينية وماوية وتروتسكية وغرامشية وغيرها؟ وهل أن اليسار مؤسسة واحدة أو مؤسسات متعددة؟

وبحكم أن هذا الموضوع لا يزال بكرا فإنّ المعاجم والقواميس لا تروي ظمأنا المعرفي، فأغلب القواميس والمعاجم تتحدّث عن النشأة التاريخية لمصطلح "اليسار" الذي أطلق لأول مرة إبّان الثورة الفرنسية حيث كان النواب الجمهوريون المعارضون للملك لويس السادس عشر يجلسون في الجهة اليسرى من البرلمان بقيادة مير ابو و مارا و روبسبيير وغيرهم . والنواب الموالون للملكية والكنيسة والإقطاع يجلسون في الجهة اليمنى. ومع الزمن تحول اليسار إلى تيار فكري وسياسي يحاول الجمع بين الليبرالية و الاشتراكية الماركسية أساسا والشيوعية ثم ازداد تشعب هذا التيار وأصبح من الصعب تحديده في خانة واحدة أو في مؤسسة واحدة ولم يكن اليسار التونسي بمعزل عن هذا السياق التاريخي العام.

وهكذا لا تسعفنا المعاجم كثيرا في فهم اليسار التونسي بالدقة المتناهية ومن هنا كان الارتباك في تعريف هذا التياروفي التعامل معه. ولا شك أن وضع اليسار التونسي كله في سلّة واحدة والتعامل معه على أنه مؤسسة متناسقة موحدة العناصر والأهداف طبقا للشروط التي حددها شالك، الذي يرى أنه لا بد ان تتوفر في المؤسسة ثلاثة عناصر حتى تكون مؤسسة وهي ضرورة وجود جهاز يجمعها، ونظام قيمي يوحدها وأعضاء أو أفراد، لا يعدو أن يكون ضربا في عماية. وأمام هذه الصعوبة نلتجأ إلى تلمس النظريات الاجتماعية والسياسية لعلها تساعدنا على فهم هذا التيار الذي لا تتوفر فيه شروط المؤسسة الموحدة.

ويسعفنا موريس هوريو Maurice Hauriou الذي يعرّف المؤسسة على أنها تنظيم قانوني أو اجتماعي في خدمة فكرة قائدة L'institution est une organisation au service d'une idée واعتبر أنه تتوفر لكل مؤسسة "فكرة قائدة idée directrice "ومن ثمة فإننا سنبحث عن هذه الفكرة المركزية لليسار التونسي لنتحدث عنه بإجمال ثم نمر بعد ذلك إلى الإشارة إلى أهم مؤسساته وشخصياته التي كان لها بالغ التأثير.

لا يختلف اليسار التونسي في توجهه العام عن اليسار بصفة عامة فهو يضم كل أولئك الذين يتبنون التوجه الاشتراكي الماركسي بتأويله

اللينيني أو التروتسكي أو طبقا للقراءة الماوية إضافة إلى وجود مجموعات أخرى تتبنى توجهات أخرى ضمن هذه التصورات الكبرى . والجامع بين هذه التعبيرات المختلفة هو تبنيها بصفة عامة لقضية فصل الدين عن الدولة، ومساندة مجلة الأحوال الشخصية، ودعم دعوة بورقيبة لتحرير المرأة إلى الحد الذي كان بعض رموزه في الجامعة التونسية يعارضون مؤسسة الزواج ولكنهم ، أمام نفور الطلبة من هذا التوجه، وأثناء ممارستهم العمل السياسي اليومي اضطروا إلى مساندة الزواج المدني ودعوا إلى المساواة في الميراث...

وأما موقف اليسار من الدين الإسلامي فهو في مجمله سلبي، قائم على السخرية من الدين والتدين، فنعتت مظاهر التمسك بالسنة كاللحية والحجاب بالتخلف والرجعية ووصف المصلون بالظلاميين والرجعيين... أو بالاستفزاز مثل الإفطار المتعمد في رمضان، خاصة في الجامعة والثانويات، وهو ما أدى إلى صراعات وصدامات مع الطلبة الإسلاميين...

وفي المقابل فإن أهم ما يسجل لليسار التونسي هو حضور المرأة ومشاركتها الفعالة في مناشطه السياسية والحقوقية وغيرها وفي هذا يتميز اليسار التونسي عن سائر أحزاب وتيارات اليسار العربي الذي ظل شعار تحرير المرأة لديها حبرا على ورق. إلا أننا لا بد في هذا المستوى من

التحليل التأكيد على أن أهمية المشاركة النسوية ليست مقتصرة على اليسار فحسب، بل إننا نجدها لدى كل التيارات السياسية التونسية تقريبا، ففي حركة النهضة ولدى الإسلاميين التونسيين تولت النساء مناصب ومسؤوليات مهمة وصلت في بعض الحالات إلى مسؤوليات قيادية كبرى، وقد يعود هذا إلى خصوصية تونسية مصدرها بورقيبة الذي عمل كثيرا على تحرير المرأة ودفع بها إلى الحداثة. ولكي لا نقع في التعميم ونكرس الصورة النمطية على اليسار بأنه معاد للدين أو لكل نفس إسلامي وتحرري لا بد أن نسجل لليسار نشطاء لهم باع في العمل النقابي والحقوقي خاصة تلك الشخصيات اليسارية التي اختارت الحيادية وتبنت العمل النقابي والحقوقي بجدية وإخلاص وهو ما جعلها تقترب من الإسلاميين، خاصة من النهضة وتنسق معهم في الاتحاد العام التونسي للشغل أو في الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان أو في المهاجر المختلفة.

رغم هذا المشهد العام لليسار التونسي فإنه لا يمكن الحديث عن وجود تيار يساري متناسق، بسبب تواجد تيارات ومؤسسات يسارية تصل فيما بينها إلى حد الصراع والتنافر، خاصة في الجامعة، وتصل في موقفها من الإسلاميين من العداء الأيديولوجي الذي وصل حد العنف الشديد في السبعينات والثمانينات، مذبحة منوبة1982 ، كما تصل في

الجانب النقيض إلى اللقاء مع الإسلاميين، مثل اللقاء بين السيد محمد حرمل رئيس الحزب الشيوعي التونسي والشيخ راشد الغنوشي في منتصف الثمانينات، أو حتى التنسيق معهم في بعض مجالات العمل المشترك خاصة في الجامعة.

والملفت للإنتباه أن اليسار بصفة عامة، إذا استثنينا النشطاء الحقوقيين، عادة ما يلتزم الصمت والسكون إذا تعرض الإسلاميون إلى الاعتقال أو إلى حملات أمنية مثلما حدث في الثمانينات ثم في أوائل التسعينات عند اعتقال إسلاميي حركة النهضة التونسية .والملفت للإنتباه أيضا أن مؤسسات اليسار إجمالا تفتقد إلى الديمقراطية والحرية في بنائها المؤسساتي فهي في معظمها تتمحور في لقائها حول شخص أو مجموعة من الأشخاص من طبيعة نخبوية أو أكاديمية.

ومن خلال هذا العرض المختصر يمكننا تدريجيا تلمس "فكرة قائدة" طبقا لتحديد هوريو وتتلخص في أن اليسار التونسي هو ذلك التيار أو المؤسسة التي تتبنى العلمانية الشاملة كما عرفها الدكتورعبد الوهاب المسيري، بأنها "رُؤية شاملة للعالم ذات بُعد معرفيّ (كُليّ ونهائيّ) تحاول بكل صرامة تحديد عَلاقة الدين والمطلقات والماورائيات (الميتافيزيقيا) بكل مَجَالات الحياة، وهي رُؤية عَقلانية مادية تدور في إطار المرجعية الكامنة والواحِدِيَّة المادية التي ترى أنَّ مركز الكَوْن كامن فيه غير مُفَارِق

أو مُتَجَاوزله (فالعلمانية الشاملة وحدة وجود مادية) وأنَّ العالَم بأسره مكون أساسًا من مادة واحدة لا قَدَاسَة لها، ولا تحوي أية أسرار، وفي حالة حركة دائمة لا غاية لها، ولا هدف ولا تكترث بالخصوصيات، أو التفرد، أو المُطلقات، أو الثوابت، هذه المادة بحسب هذه الرؤية تشكل كُلا من الإنسان والطبيعة، فهي رؤية واحدية طبيعية مادية وتتفرع عن هذه الرؤية منظومات مَعرفية (الحواسّ والواقع المادي مصدر المعرفة، فالعالم المعطى لحواسنا يحوي داخله ما يكفي لتفسيره والتعامل معه) ، كما تتفرع عنها رؤية أخلاقية (المعرفة المادية المصدر الوحيد للأخلاق) وأخرى تاريخية (التاريخ يتبع مسارا واحدا وإن تبع مسارات مختلفة فإنه يؤدي في نهاية الأمر إلى النقطة النهائية نفسها) ورؤية للإنسان (الإنسان كجزء لا يتجزأ من الطبيعة ليست له حدود مستقلة تفصله عنها ومن ثَمَّ هُو ظاهرة بَسيطة أحادية البُعد، وهو كائن ليس له وَعْيّ مستقل غَير قَادِر على التَّجَاوُز والاختيار الأخلاقيّ الحُرّ). (المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، 2002)

وتكاد تكون هذه الفكرة القائدة عاملا موحدا بين أهم تكوينات اليسار التونسي إلى حدود بداية التسعينات إلا أن الواقع الأمني وعسكرة تونس إضافة إلى عوامل خارجية أهمها ضغط العولمة

الثقافية التي لا تقر بحق الاختلاف بل تبشر بنموذج أحادي قائم على مفهوم الهيمنة الإقتصادية والثقافية والسياسية...

الإسلاميون أساسا حركة النهضة التي خرجت من معركتها مع بورقيبة مرفوعة الرأس ومحفوفة بزخم مادي ومعنوي ضخم، وتعاطف شعبي كبير.

المجتمع المدني بمكوناته الحزبية والنقابية الذي أخذ يتلمس له مكانا تحت الشمس.

في هذا المشهد المؤسساتي كان اليسار، عموما، هو الغائب الذي لم يبحث عنه، ولذلك كانت خياراته محدودة. فالتنسيق مع الإسلاميين كان غير مطروح بسبب العداء الأيديولوجي والتاريخي وأما الانخراط في المجتمع المدني فكان غير ممكن بسبب ضعف اليسار الذي خاف من التلاشي نهائيا إذا أقدم على هذه الخطوة، إضافة إلى "فقدان قوى المعارضة اليسارية البديل الواقعي المتمفصل بشكل موضوعي للواقع التونسي "كما يقول الدكتور المديني إلى جانب عجز اليسار التونسي عن تشكيل مؤسسات يمكن لها أن تنافس سائر مؤسسات المجتمع المدني لم يبق أمام العديد من رموزه إلا التوجه إلى التجمع الدستوري الديمقراطي الذي كان يشكو من فراغ أيديولوجي

بعد نهاية أيديولوجية البورقيبية القائمة على كاريزما المجاهد الأكبر ومحرر المرأة.

وحتى يتسنى للنخب اليسارية "الاشتراك في تأسيس منظومة من المقولات والقيم الجديدة التي توجه نشاط الحزب، وتغذي أساليب عمله، وتبعث فيه حركية جديدة... طرح اليسار مقولة الصراع العقلاني/ الظلامي بدل مقولة الصراع الطبقي الاجتماعي" (المديني، المجتمع المدني والدولة السياسية في الوطن العربي، ص 621).

في هذا المستوى أيضا لم يكن اليسار متجانسا فلم تسارع كل شخصيات اليسار إلى التجمع و إنما بقي البعض القليل على حياديته وفضلوا العمل الحقوقي أساسا أو الاستقالة العملية وفضل آخرون العمل السياسي ضمن المعارضة مثل الحزب الشيوعي التونسي الذي غير اسمه إلى "حزب التجديد" وكذلك حزب العمال الشيوعي التونسي POCT الذي تأسس في 3 يناير 1986، والذي كان يعمل سابقا تحت اسم منظمة العامل التونسي، وهو الحزب الذي يفتخر اليساريون العرب انه أكثر الأحزاب الشيوعية وفاء للمرجعية الماركسية اللينينية.

كان هذا المشهد العام لليسار عشية 11/7، وضع مؤسساتي ضعيف فكرة قائدة فقدت بريقها و أنصارها مما اضطر رموز اليسار إلى البحث عن فكرة قائدة جديدة وجدها كما ذكرنا في التأسيس لمقولة الصراع

العقلاني/ الظلامي. ولعل أبرز رموز اليسار الذين اختاروا الإلتحاق بالتجمع السادة محمد الشرفي وعبد الباقي الهرماسي ثم التحق بهم بعد ذلك بعض أجيال الشباب من قيادات العمل الطلابي أبرزهم سمير العبيدي الأمين العام للاتحاد العام لطلبة تونس، الذي تأسس سنة 1988، والذي مثل محاولة يسارية لتجديد مؤسسة طمح جزء غيرقليل من اليساريين أن يكون لها فعل مؤسساتي هام لليسارولكن هذا الحلم وئد مباشرة بعد تأسيس الاتحاد وعقد المؤتمر الثامن عشر الخارق للعادة.

يعتبر الشرفي أهم شخصيات اليسار التونسي الذي ترك بصمات واضحة على الحياة السياسية والثقافية التونسية فبرنامج إصلاح التعليم الذي قام به لقي جدلا كثيرا ومعارضة كبيرة، ليس فقط من الإسلاميين، و إنما من غيرهم كنقابة التعليم الثانوي والعالي.

لا بد من التأكيد على أن إصلاح التعليم كان مطلبا وضرورة، لأن برنامج التعليم لم يعد يستجيب للمطبات تطور الحياة الثقافية والسياسية والدينية في تونس ولكن الشرفي، الذي يعتبر نفسه ، كما بين لاحقا في كتابه "الإسلام والحرية. سوء التفاهم التاريخي" يتحرك في دائرة الاجتهاد و التأويل..."

يواصل الباحث في الفلسفة وعلم الاجتماع الأستاذ حسن الطرابلسي "إن الأزمات التي مرّ بها اليسار دفعت بعض رموزه إلى القيام بدعوات نقد ذاتي من أجل ضمان مستقبل أفضل لليسار ولعل ما يدعو إليه الدكتور محسن مرزوق، أحد القيادات الطلابية اليسارية في الثمانينات من الأهمية بمكان، فهو يدعو إلى تجاوز مقولة يسار ويمين وتأسيس علاقة جديدة تقوم على التعاون ومقاومة التخلف في الوطن العربي وهو ما يقود إلى "إحداث التحول من خلال التنافس مع الكيانات الواقعية للقوى السياسية الأخرى" ويضع شرطا أساسيا وهو " القبول بما هو موجود باعتباره موجودا ثم السعي لتغييره" كما يدعو إلى تسوية تاريخية بين الإسلاميين والعلمانيين. إن صح هذا التوجه فإننا لا نملك إلا أن ندعمه ونباركه.)"

هكذا كان يفور مرجل الجامعة وبعض الأماكن الأخرى في تونس وإن دل على شيء فإنما يدل على ما بلغته النخب القائدة والمسيرة من إلمام بواقع البلاد وضرورة مساهمة الجميع في انتشالها ودفعها إلى المراتب الأولى سياسيا واقتصاديا على الأقل ضمن منظومة الدول العربية.

هذا ولم يغفر اليسار إلى يومنا هذا "للدساتره" تعاطفهم آنذاك مع "الاسلاميين" لكبح جماحهم والوقوف سدا منيعا أمام طموحاتهم السياسية بغية اضعافهم وتشتيت شملهم... وبقي هتافهم "لا لا

للرجعيه ..." يردد في كل المسيرات التي ينظمونها وينادون لها إلى يوم الناس هذا ....

نهاية السبعينات هي وقفة تأمل بعد عقدين من الإستقلال وتحمل نخب و أرستقراطيي البلاد مسؤولية الحكم و أغلبهم درس في أكبر المدارس والمعاهد التونسية و واصل التعليم بالجامعات الفرنسية كالصربون وغيرها وتعارفوا هنا وهناك و واصلوا النضال السياسي جنبا إلى جنب. بقيت الحريات الكونية في معزل عن الحياة العامة وصار النضال اليومي طلبا لها وقبرا لمفاهيم الظلم والخنوع والرأي الواحد والحكم الأوحد...

وبالرغم من الأسماء اللامعة التي أحاط بها الزعيم بورقيبة نفسه ظهرت بوادر الانشقاقات وتصفية الحسابات ثم أجنحة الصراع على الخلافة التي خيمت آثارها كلها على أجواء السبعينات الثقافية والإجتماعية وحتى السياسية التي تم ذكرها. فكنت ترى أنماطا من جرحى النظام وهم كثر مما زاد في التأليب عليه بالعمل السري لكسر شوكته وزاد هو كذلك من وسائل الردع والترغيب والترهيب والانتقام.

منذ ذلك الحين اتخذ صديقنا مجلسه ولو لفترات متقاربة مع صديقه الكهل أصيل الجريد ذي المزاج الضاحك الذي ينبض سعادة رغم ظروفه والمثقف الرصين الواعي. وبدأ يعرف أشياء كثيرة عما يدور

إفريقيا ومتوسطيا وعالميا من تراكمات وأحداث لها التأثير المباشر على بلاده وذلك من خلال "جون أفريك" و مجلات أخرى وعلاقات العم عمر، و أهل الداخل ممّن يحملون هموم الوطن، من جميع أركان البلاد، كثر في العاصمة، وبدأ كذلك يستمع جيدا إلى تحاليل زملائه و أصدقائه وبدأ يحس بخطورة هذه التوترات السياسية و الاجتماعية مستقبلا. فهي لا تلتقي ولن تلتقي. وبدأ يطالع "جون أفريك" الباريسية ومجلة الفكر التونسية و الآداب الأجنبية السورية ومجلة المجلة المصريّة التي يشرف عليها الأديب اللامع يحي حقي وتشعبت اهتماماته في كل الميادين وبدأ في التهام كل ما يقع تحت يديه من سياسة أو ثقافة. وبدأ يحلل التيارات السياسية و أهدافها وعرف عنها ما يشفي الغليل وهو لايزال في بداية العقد الثالث وفي السنوات الأولى منه.

من بين تيارات السبعينات التي فرضت نفسها على الساحة، الوطنيون الديمقراطيون الذين عرفوا بـ(الوطد). يكتب موقع [49] عن جريدة الصباح: " حركة "الوطنيون الديمقراطيون" جزء من الحركة الشعبية المناضلة، وهي جزء لا يتجزأ من اليسار التونسي الذي قاد الحركة الشعبية والحركة الطلابية في السبعينات والثمانينات وناضل في مختلف هياكل الاتحاد العام التونسي للشغل، ملتحما بقضايا

[49] www.tunisia-sat.com بتاريخ 2011/06/14

الجماهير، فكان دوما في طليعة التحركات العمالية والشعبية. في هذا الخضم النضالي، ومن رحم الصراعات اليسارية الداخلية، ظهر" الخط الوطني الديمقراطي" في أواسط السبعينات كتيار فكري تبنى الأطروحات اليسارية وسعى إلى تطويرها معتمدا على التحليل العلمي للواقع المعيش في البلاد، فكان أن وقع طرح الثورة الوطنية الديمقراطية كرؤية واقعية لتغيير المجتمع.. فأي واقع مادي أدى إلى ظهور هذا الطرح؟ كانت البلاد في بداية السبعينات (بعد فشل مشروع التعاضد) تعيش وضعا انتقاليا يتمثل خاصة في فتح المجال واسعا أمام الرأسمال الأجنبي من خلال سن قوانين تؤمن له كل التسهيلات (قانون أفريل 1972..). وقد بدأ مشروع الدولة الوطنية ينهار أمام قدوم الرأسمال الأجنبي وإنشاء المشاريع البائسة وتخلي الدولة عن صلاحياتها لفائدة الشركات متعدية القومية التي راحت تؤسس لرأسمالية طفيلية ، غير منتجة تكون بمثابة الذراع الطويلة للرأسمال الأجنبي لتكريس مزيد من تبعية اقتصاد البلاد للاقتصاد العالمي وضرب كل محاولة لبناء اقتصاد وطني منتج.. أما في الريف فقد سعى التحالف الحاكم إلى الإبقاء على نمط الإنتاج القديم الذي كان قائما على أنماط غير متجانسة: الزراعة الاكتفائية الموجهة للاستهلاك العائلي، الزراعات الصغرى الموجهة للسوق المحلية، الغراسات التقليدية الموجهة في

جزئها الأهم للتصدير (التمور الجيدة- زيت الزيتون- القوارص...)، الزراعات الحديثة ذات الإنتاج التصديري.. وإثر نقاشات وتحاليل علمية للواقع المعيش، لاحظ الرفاق المؤسسون للخط الوطني الديمقراطي أن الرأسمال الأجنبي الذي هجم على بلادنا بقوة خاصة مع بداية السبعينات، لم يحاول تثوير الاقتصاد الزراعي المنغلق وإنما اكتفى باستفزازه إلى الحد الذي يحول البلاد إلى سوق وثيقة الارتباط بالاقتصاد العالمي مع المحافظة على كل ما هو قديم، فكان الحاصل مزيجا اقتصاديا وسياسيا يجمع أسوأ سمات العالمين: الزراعي والرأسمالي، ويعرقل بنجاح كل إمكانية للنمو الاقتصادي. وقد اتضح لرفاقنا من هذه التحاليل أن الامبريالية جعلت من الأمم المتخلفة ومنها بلادنا مجتمعات هجينة، مخضرمة، لم تحافظ على النمط الإنتاجي القديم ولم ترتق إلى مجتمع رأسمالي معاصر."

ناهيك عن الأزمات النقابية وتصادم الاتحاد مع النظام القائم آنذاك هذا النظام الذي سانده ووقف معه ضد كل الرياح منذ الاستقلال:

يكتب فيما بعد الدكتور سالم لبيض عن الأزمات الاجتماعية فيقول[50] عن جذور الأزمة النقابية لسنة 1978 وأسبابها: "لا شك أن الأزمة النقابية لسنة 1978، هي نتاج لسياسة اقتصادية – اجتماعية برزت

[50] الحوار نت نشر بتاريخ 2011/01/12

مع مطلع عشرية السبعينات على أنقاض سياسة التعاضد و دولنة الاقتصاد التي ميزت عشرية الستينات من القرن الماضي. لقد ارتكز توجه السبعينات على الحد من تدخل الدولة في المجال الاقتصادي وتشجيع المبادرة الخاصة وفتح المجال أمام الرأسمال المحلي (الوطني) والأجنبي للاستثمار، وذلك في إطار قوانين أفريل 1972 وأوت 1974. ورغم تبني شعار الاشتراكية الدستورية من طرف الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم في مؤتمره الثامن المنعقد بمدينة المنستير سنة 1971، والذي جاء في أحد لوائحه "إن الاشتراكية الدستورية تهدف إلى الاستفادة من الرأسمالية في مستوى تطوير الإنتاج والاستفادة من الاشتراكية في مستوى التوزيع العادل للثروة"، فإن مقولتي الاشتراكية والعدالة الاجتماعية لم تكن سوى مقولات للاستهلاك السياسي المرحلي خاصة وأن تجربة الاشتراكية الدستورية انتهت إلى "التفويت في قسم كبير من أراضي الدولة ونزع احتكار التجارة الخارجية والإشراف المباشر على التجارة الداخلية وتوسيع مصادر القرض ومساعدة الرأسمال الخاص واستغلال صفقات الدولة ومراكز النفوذ ونمو أنشطة المضاربة وتوجيه استثمارات أكبر إلى الأنشطة ذات المردود المرتفع إلى جانب إخراج الثروات المجمدة خلال الستينات من أجل استثمارها واللجوء إلى التحايل الجبائي وغيرها من المظاهر التي

سمحت بنمو سريع لمداخيل الملكية و المفاوتة ووسعت صنوف رجال الأعمال والباعثين والسماسرة والمضاربين وعمقت الفوارق الاجتماعية. وبالتوازي مع هذه السياسات والاختيارات الاقتصادية بدأت تبرز مع انشقاق مجموعة من الدستوريين عن الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم وطردهم من مؤتمره المنعقد سنة 1974 يقودهم أحمد المستيري وإصدار بيانات باسم التحرريين قبل إصدار جريدة الرأي التي ساعد ظهورها على بعث حركة سياسية معارضة أطلقت عليها تسمية "حركة الديمقراطيين الاشتراكيين". إن بروز مناخ سياسي ليبرالي ولو بصفة جنينية سيدعم العمل النقابي الذي بدأ يتنامى بالتوازي مع تنامي شريحة العمال الأجراء الذين وصل عددهم إلى 500 ألف مع بداية السبعينات بعد أن كان هذا العدد لا يتجاوز 150 ألف سنة 1956، هذا علاوة على تنامي عدد منخرطي الاتحاد العام التونسي للشغل الذين تجاوز عددهم 550 ألف منخرط سنة 1977، بعد أن كان هذا العدد في حدود 40 ألف سنة 1970 . فقد شهدت البلاد حركة إضرابية عرفت شكلا تصاعديا إذ كانت في حدود 150 إضراب سنة 1972، 301 سنة 1975، 372 سنة 1976، و قد كانت هذه الإضرابات ذات صبغة عفوية ولم تحظ بموافقة المركزية النقابية في كثير من الأحيان. وهي تعبير عن ردود فعل متفاوتة التأثير تجاه الاختيارات

الاقتصادية والاجتماعية للحكومة التي عرفت ارتفاعا مجحفا للأسعار في شهر رمضان من سنة 1977 بالرغم من الاتفاقيات المبرمة بين الحكومة والاتحاد العام التونسي للشغل من ذلك ما يعرف بالعقد الإطاري المشترك والميثاق الاجتماعي الذي تم توقيعه في شهر جانفي من سنة 1977 والذي ينص على الحفاظ على السلم الاجتماعي وعلى مراجعة الأجور كلما ارتفعت الأسعار بنسبة تزيد عن 5 بالمائة.

-أحداث الأزمة النقابية : لقد بدأت أحداث الأزمة في البروز مع مطلع شهر جانفي من سنة 1978، عندما قرر أعوان وزارة الفلاحة الدخول في إضراب بسبب فشل المفاوضات وتلا ذلك إصدار المكتب التنفيذي للاتحاد العام التونسي للشغل، بيانا يندد فيه بما سماه "الاستفزاز البوليسي المبيت الذي يمس من حصانة دار الاتحاد "ويطالب فيه بإطلاق سراح المعتقلين، ولم يتوان الاتحاد عن التدخل في المسائل السياسية عندما طالب بإلغاء قانون الجمعيات وتحوير المجلة الانتخابية وإجراء انتخابات حرة وديمقراطية وذلك أثناء انعقاد مجلسه الوطني أيام 8 – 9 – 10 جانفي، وهي نفس الفترة التي قرر فيها أمينة العام الاستقالة من الديوان السياسي للحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم، معتبرا أن "وجوده في الديوان السياسي أصبح متناقضا مع مسؤوليته النقابية "، كما أن استقالة أحد أعضاء المكتب

التنفيذي للاتحاد وهو "خير الدين الصالحي "من عضوية اللجنة المركزية للحزب الحاكم، كل ذلك يأتي كرد فعل عن محاولة اغتيال الأمين العام للاتحاد من طرف "ميليشيا الحزب الحاكم". وفي مقابل ذلك بدأت ردود فعل السلطة في التصعيد فقد خطب الرئيس بورقيبة يوم 18 جانفي قائلا : "إن المتطرفين يرمون إلى القضاء على الدولة لتنفيذ مراميهم... "، ثم أضاف في خطاب ثان يوم 21 جانفي بمناسبة اختتام أعمال اللجنة المركزية " أنا مستعد أن أقف في وجه المخربين بعد وسائل التفاهم التي توخيناها وبعد المحاولات التي بذلناها بدون طائل... "، وأكد هذا الموقف اللائحة الصادرة عن اللجنة المركزية للحزب التي جاء فيها " إن مناورات قيادة المنظمة تندرج في خطة مبيتة بالتحالف مع عناصر هدفها النيل من أنموذج المجتمع وجر البلاد إلى التبعية... ". لقد شكلت الهيئة الإدارية للاتحاد المنعقدة بتاريخ 22 جانفي 1978 نقطة تحول في مسار الأزمة النقابية، إذ تقرر أثناءها الدخول في إضراب عام أقر المكتب التنفيذي للاتحاد أن يكون يوم 26 جانفي ووجد كل التأييد من الأمين العام للجامعة العالمية للنقابات الحرة السيد "أوتو كريسان" الذي كان يزور تونس أثناء تلك الفترة، وبالمقابل أعلن الرئيس بورقيبة حالة الطوارئ في البلاد ومنع المظاهرات والجولان في تونس العاصمة و ضواحيها، وقد أيد هذا الموقف الديوان

السياسي للحزب الذي دعا إلى نبذ الدعوة للإضراب والإقبال عن العمل... وعلى العمال أن يفسدوا هذه الخطة لأن الإضراب العام له مفهوم سياسي.)

"يمثل يوم 26 جانفي من سنة 1978 ذروة التحركات أو ما يعرف بالأزمة النقابية. وقد تجسد ذلك في إعلان الإضراب العام الذي تحول إلى تجمعات عمالية في المناطق الصناعية بضواحي العاصمة والمدن الكبرى. وإلى مظاهرات صاخبة ومصادمات دامية انضم إليها الشباب الطلابي و التلمذي خاصة بعد محاصرة دار الاتحاد العام التونسي للشغل من طرف قوات النظام العام وبعض فرق الجيش التي ساهم انتشارها في شوارع العاصمة في ازدياد حدة المصادمات بين هذه الأخيرة التي استخدمت القنابل المسيلة للدموع والذخيرة الحية والمتظاهرين وقد انتهى يوم 26 جانفي وهو اليوم المعروف بالخميس الأسود باحتلال مقرات الاتحاد ومن ذلك مقره الرئيسي بالعاصمة من طرف قوات النظام العام وفرق الجيش بعد إخلائها من المعتصمين بها من النقابيين.

–نتائج الأزمة النقابية : من أبرز النتائج التي انتهت إليها الأزمة النقابية لسنة 1978 إضافة إلى مئات الشهداء والجرحى الذين غصت بهم المستشفيات، إلقاء القبض على قيادة الاتحاد بما في ذلك أمينة العام

السيد "الحبيب عاشور" وإيداعهم السجن بل ومحاكمتهم. ووصل عدد الذين تعرضوا للمحاكمة أمام محاكم الحق العام إلى 700 من النقابيين، أما الذين حوكموا أمام محكمة أمن الدولة فيقدرعددهم بـ 130 ووصفت المحاكمات بالصورية وبأنها المسرحية. كما عرفت تلك الفترة سن قانون الخدمة المدنية الذي مكن السلطة من إنشاء المحتشدات الطلابية وإجبار الطلبة على العمل في المشاريع الصحراوية بصفة إجبارية. كما كان من نتائج الخميس الأسود القضاء على استقلالية الحركة النقابية التونسية وجعل الاتحاد مجرد أداة من أدوات الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم عبر تكوين مكتب تنفيذي جديد من طرف بعض النقابيين المنتمين للحزب الحاكم وإضفاء الشرعية على ذلك من خلال انعقاد مؤتمر خارق للعادة للاتحاد افتتحه الوزير الأول نفسه ولكنه كان يفتقد إلى أية مصداقية أو شرعية قاعدية." يكتب الباحث سالم لبيض.

وبين التربية والتعليم والشعر والآداب والفنون وجد صاحبنا نفسه بين تيارات فكرية وسياسية و ايديولوجية تتناحر على مسمع و مرأى منه فازداد لها قربا ودراسة حتى يكون على بينة من اختياراته أو من حياده ولكن بمعرفة كنه الأشياء والتعمق فيها برؤية علمية، موضوعية وحيادية ليقف على الحقائق التي سيلتزم بها في حياته.

فتونس السبعينات بتناقضاتها، ببياضها وسوادها تؤلف مركز الثقل في البلاد فهي المركز المهيمن والمسطر لكل السياسات ومن يمسك كل الخيوط هي العاصمة باللوحات التي ذكرتها بألوانها الباهتة والزاهية و إنك و أنت تتحدث عن هذا الماضي الذي اختزنه واختزله العقل الباطن تتراءى لك بكل وضوح تاكسي البي بي الصغيرة الجميلة صاحبة الألوان الحمراء والبيضاء ألوان علم البلاد. تتراءى لك كذلك باب بنات وباب مناره وباب الخضراء وساحة برشلونه وساحة افريقيا وساحة الجمهورية وفرق كرة القدم ذائعة الصيت كالفريق القومي وفريق الترجي الرياضي التونسي والنادي الافريقي وقناوية المرسى وبقلاوة باردو والاولمبي للنقل للملاسين وما جاورها وغيرها من فرق العاصمة التي تلهب رواد الملعب الاولمبي بالمنزه صرح الستينات العتيد. وكان صاحبنا يتنقل إليه كلما كانت الفرجة مضمونة بين الكبار... هؤلاء الذين صنعوا أمجاد الفريق القومي بمصر والجزائر و المغرب وخاصة بالأرجنتين عام 1978 م...

تونس المسرح، تونس علي بن عياد والفاضل الجعايبي والفاضل الجزيرى ومحمد ادريس وجليلة بكار ليتلوهم بعد ذلك توفيق الجبالي ورؤوف بن عمر، والمنصف الصايم ورجاء بن عمار، وفي فترات لاحقة ظهرت فرق اخرى مع عزالدين قنون ومع نورالدين وناجية الورغي.

وتونس الموسيقى، علي الرياحي والهادي الجويني ونعمه وعليه و أحمد حمزه وصفوه و محمد الجموسي. وتونس الفنون الجميلة، القرجي والحبيب بوعبانه والهادي التركي ونجا المهداوي. و تونس الآداب، المسعدي والشاذلي القليبي ومحمد مزالي ومحمد المصمولي والبشير بن سلامه وعزالدين المدني وغيرهم، تونس الخضرة والذكاء والجمال. هذا هو وجهها الحقيقي في و اقع الأمر ولكن للحياة أوجها عديدة يفرضها الفكر والفن وحق الاختلاف والنضال الذي يبني ويؤسس للأفضل والأحسن مع احترام العقل البشري والحريات الكونية.

يكتب منصور غرسلي [51] عن بعض مناضلي هذه الفترة التي سجلوها أدبا و نصوصا فيقول: "بعد "وطن النجوم أنا هنا" و" عم حمدة العتال: ورقات من سجل الاعتقال السياسي في تونس السبعينات"، و"سجين في وطني"، أصدر الرو ائي والمناضل السياسي محمد الصالح فليس كتابه الر ابع بعنوان "ساكن في اسمي محاولة نقدية"

وخلافا لما قد يتبادر إلى الذهن مما قد يوحي به العنوان، وهو اهتمام هذا الكتاب بالنقد الأدبي، فإن الكاتب قد سعى من خلال هذا الإصدار الجديد إلى تقديم نقد ذاتي للمرحلة النضالية التي انخرط فيها في أواخر الستينات وخلال السبعينات ضمن حركة "آفاق" اليسارية.

---

[51] نشر في الصباح يوم 10 - 11 - 2018

وروى محمد الصالح فليس في "عم حمدة العتال" و"سجين في وطني" تفاصيل رحلة العذاب والتعذيب التي طالته خلال فترات اعتقاله الأربع من 1968 إلى 1979، قضى منها عاما وأربعة أشهر في التخفي والعمل السري، وتطرق إلى تفاصيل الممارسات القمعية التي سلطت عليه وعلى رفاقه في التنظيم السري، والتي بلغت من القسوة والتشفي حد حرمانه من حضور جنازة والده، إلا أنه في كتاب "ساكن في اسمي" عاد ليقيم تلك المرحلة بما فيها من إيجابيات وما اشتملت عليه من أخطاء ومن أهمها عدم ايلاء العامل الموضوعي الاهتمام اللازم، وتغليب البعد النظري والتنظيري على عامل الالتحام بالجماهير. يقول فليس بالصفحة 144: "ولكننا بقدر ما راكمنا من ملامح نضالية لم نعمل بما كان يتعين من الجدية والثبات لتجديد المضامين النوعية لهذه النضالية بحيث يتساوى إصرارنا النضالي المشهود به من خصومنا ومستهدفينا ذاتهم مع عمق ومتانة الطر افة التحليلية لو اقع مجتمعنا في صيرورته و حركيته ". ويفسر فليس ذلك بالقول: "إن تبنينا للماركسية اللينينية بشكل دغمائي متشدد قد أحالنا على لائحة "المستبدين" بمفهوم ما، وأعاقنا عن التفاعل الحي مع متطلبات الو اقع". ويذكر محمد صالح فليس ما واجهه من متاعب ومعاناة أثناء تلك المرحلة، وهو الذي رأى من التعذيب ألو انا حتى أنه كما يقول في

"عم حمدة العتال" بالصفحة 209: "بقيت نتيجة هذا التعذيب لا أقوى على المشي على رجلي لمدة أكثر من تسعين يوما" ولم يتردد في الإقرار بأن عدم تكليف النفس عناء مراجعة مو اقفهم ومقولاتهم قد أسقطهم "في لون من الدنكشوتية والثورية الرومانسية"، وإن كان يقر بأن اليسار- في جانبه النير الذكي- هو من أسهم بشكل رائع في نشر ثقافة حقوق الإنسان في بلادنا. وهو من لعب الدور الأكثر إصرارا لبلورة ودعم ثقافة حضور المرأة في الفضاء العام باعتبارها مساوية تماما في الحقوق كما في الواجبات مع الرجل "ص 147

هذا الوعي جعل الكاتب يواصل نضاله منذ 1980، ولكن ليس "اختفاء وراء تنظيم/كيان هلامي سري تتهادى شخوصه في عتمة سرية ظلماتها تضرب في أعماق مكونات أساسية من آدميتي و إنسانيتي وخصوصية شخصيتي.. لماذا لم يعد لي الحق في أن أسكن اسمي، أحمله وطنا كاملا فوق كتفي أينما حللت و أقمت؟ "ص 65. فكان العمل على بعث فرع الرابطة التونسية لحقوق الإنسان ببنزرت، وتوظيف القلم الذي كسب خبرة الكتابة وتقنياتها في "العامل التونسي" في عدد من الصحف مثل البديل والطريق الجديد والموقف ومواطنون والصباح و لوطون. ويعود فليس إلى عبارة "ساكن في اسمي" التي جعلها عنوانا للكتاب، في الصفحة 191 مفسرا: "علمتني ضربة الجلاد وإهانة الموظف الحقير هي

الأخرى أن أظل وفيا لذاتي، ساكنا في اسمي، وأن يطالني الفخر الشديد لأني كنت ابن "وطني النجوم" وسليل" عم حمدة العتال" وكنت" سجينهم في وطني"... والكثيرون نقشوا أسماءهم على لوحات النضال وفي دفاتر المبادئ... وكما يقول شاعر فلسطين سميح القاسم: يا عدو الشمس ...لكن لن أساوم... وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم.

إنها بعض هموم عشريتي الاستقلال والبعض من سلبياتها.

لكن السبعينات كانت أيضا فترة الفريق القومي بامتياز وكانت الرياضة التونسية في أوجها بعدما فتح محمد القمودي المجال في العدو الريفي والألعاب الفردية وكذلك فرق الملاكمة فمن منا لا يتذكر الحبيب قلحية والطاهر بلحسن ولا يتذكر أعضاء الفريق القومي فردا فردا من الشتالي إلى مختار النايلي مرورا بـ"عتوقه" الصادق ساسي وحمادي العقربي ومختار ذويب ومحمد عقيد وعبد الرؤوف بن عزيزة وطارق ذياب وعمر الجبالي و المجاهد خالد القاسمي وعلي الكعبي وتميم الحزامي و الأمين بن عزيزة ومختار غميض وخميس العبيدي ونجيب الامام و كمال الشبلي و محسن العبيدي وغيرهم... وهذه من ايجابيات تلك الفترة ونجاحاتها وقس على ذلك في ميادين أخرى عديدة بعيدة عن السياسة والترويج لها منها الفكرية والفنية والتربوية والصحية وغيرها...

كان صديقنا لا يترك مجالا دون أن يأخذ منه بطرف شأن أغلب تلك الأجيال وكانت ترهقه السباحة فهي الوحيدة التي يحبها وتتعبه وترمي في نفسه المخاوف لأن جسمه العنيد لا يطيعه في الأعماق، لكنه يحب الغوص في مياه البحر الدافئة غير بعيد على شواطئه وتلهمه أمواجه المتلاحقة بصور شعرية و أدبية فيها الكثير من الإبداع و الإمتاع والمؤانسة...

كان يحب رياضة المشي على الأقدام فهو لم يتخط العقدين إلا بسنوات قليلة أقل من أصابع اليد الواحدة. بعض الأحيان كان يخرج مع صديقه فيجوبان الأنهج والشوارع رياضة وفسحة واستكشافا، ينطلقان من قوس باب بحر عبر نهج الجزيرة وباب جديد ثم باب مناره ومنها إلى نهج القصر ومنه إلى سوق اللفة ثم مرورا بسوق البركه ثم سوق الترك إلى سوق العطارين ثم إلى نهج جامع الزيتونة ومنه إلى سوق البلاط... فيستمتعان بجولتهما وبما يشاهدانه خارج الأسوار وداخلها.

لكن ما حقيقة ذاك القبر المجهول الذي يقبع وسط سوق الساجين والذي استرعى انتباههما؟ ذاك الصندوق الأخضر المثير للدهشة وسط قفص الحديد في قلب النهج ويمر به الناس غير مبالين بوجوده وتاريخه و أسراره، تكتب هدى الطرابلسي في موقع "عربية"[52] "قبر الجندي

[52] https://www.independentarabia.com/ بتاريخ 2020/03/15 هدى الطرابلسي

المجهول في تونس واحد من الألغاز التاريخية التي اختلفت حولها الروايات المتراوحة بين الواقع والأسطورة، فنُصُب "الجندي المجهول" المعتمد في معظم دول العالم، تقليدٌ ابتدعته فرنسا وتبعتها به دول أوروبية أخرى وبعض بلدان الشرق بعد الحرب العالمية الثانية، مثل مصر والنصب الذي أقامته عقب حرب 1973، ليرمز لكل الجنود المفقودين المجهولين في الحروب التي شاركت فيها منذ عام 1948، كما خلّدت أستراليا ذكرى أفراد قواتها المسلحة والمنظمات الداعمة الذين لقوا حتفهم أو شاركوا في الحروب التي أدت إلى تكوين الكومنولث الخاص بها، في نصب تذكاري.

لكن في تونس القصة مختلفة تماماً، فقبر الجندي المجهول موجود لكنه ليس كغيره من القبور المخصصة لجنود شاركوا في حروب حول العالم والتي تلقى عنايةً رسمية خاصة وتوضع فوقها أكاليل الورد في كل المناسبات الوطنية. يوجد "قبر جندي تونس المنسي" في "سوق السكاجين"، وهو أحد أسواق المدينة العتيقة في العاصمة. والسكاجين، تحريف لكلمة "الشكازين"، والشكّاز هو الحرفي المختص في صنع الأشكز، وهي صناعة تجميل جلد السروج، وكانت شائعة في تونس منذ القرن الـ15، قبل أن تتحول دكاكينها إلى مهن أخرى مع مرور الزمن.

ولا يزور ضريح هذا الجندي المجهول أحد ولا يُحتفى به، فقط يعرفه الناس ويمر أمامه يومياً المئات. وهناك من التونسيين مَن يعرف الخرافة التي حيكت حول ذلك النُصب، ويوجد مَن يجهلها تماماً."

الإمام الرصاع: يقول المختص في علم الآثار عبد الستار عمامو في حديث خاص، "قبر جندي تونس المجهول"، بأنه "الوحيد الذي بقي من مقبرة كاملة سُميت بـ"مقبرة السلسلة" وهي أقدم قبور العاصمة، وكانت تمتد من القصبة إلى باب جديد داخل سور المدينة العتيقة"، مضيفاً أنه "مع التوسع العمراني في القرن الـ 19 تم التخلي عن قبور عدة، بقي 16 قبراً لشخصيات معروفة، ثم تم هدمها جميعاً و أُبقي فقط على قبر "الإمام الرصّاع" الذي حاك حوله التونسيون أسطورة كاملة من وحي خيالهم."

"وتقول أسطورة هذا القبر الذي احتفظت بها الذاكرة الشعبية التونسية، إنه في الثلث الأول من القرن الـ 16 كانت تونس ترزح تحت الاحتلال الإسباني، ويُقال إن صبية تونسية كانت في طريقها إلى المنزل صحبة والدتها فتحرش بها جنديان إسبانيان، فصارت الأم تصيح وتستغيث طلباً للنجدة، بينما كانت الصبية تدافع عن شرفها فقتلت أحد الجنديين لكن الثاني قتلها. وعلا الصياح والهرج وتجمع أبناء الحي وإخوة المغدورة وقتلوا الجندي الثاني الذي قتل أختهم. إلا أن الإسبان لم يغفروا قتل الجنديين، فأرسلوا جنوداً آخرين قتلوا إخوة الصبية

وعددهم سبعة. وتقول الأسطورة إن كل واحد من السبعة دُفن على عين المكان في مواقع مختلفة من زقاق المدينة العتيقة. ويُعتبر قبر "سوق السكاجين" الأخير الذي بقي صامداً بعدما قررت البلدية هدم كل القبور.

وهذا القبر المعروف بـ"قبر الجندي المجهول" يُقال إن صاحبه بقي وحده يحارب القوات الإسبانية، وعلى الرغم من أن الإسبان قطعوا رأسه إلا أنه تابع وقتلهم جميعاً ثم سقط أرضاً، بحسب الأسطورة. ويتداول أهالي السوق بالمدينة العتيقة رواية أخرى مفادها، بأنه بعد الاستقلال صدر أمر بإزالة هذا القبر بحجة أنه يضيّق على المارة في الطريق العام. وحين بدأ العمال بتكسير لوح القبر تدفقت الدماء من خلال الشقوق وبقيت تتسرب بغزارة ولم تتوقف إلى أن حضر مسؤولون على عين المكان غير مصدقين لما يحدث، واضطروا إلى ترميم القبر وإبقائه على ما هو عليه إلى يومنا هذا، وفق المثل الشعبي التونسي "دم الشهيد سخون لا يجف إلى يوم القيامة."

علمياً، لم يُذكَر "قبر الجندي المجهول" في كتب التاريخ التونسية ولا في قصة يجمع حولها الباحثون. ويبدو وكأنه من التراث المنسي لتونس العتيقة، حتى أن المختصة في علم التراث بيّة العبيدي، قالت في تصريح خاص، إن "القبر لم يقع تسجيله في قائمة التراث الوطني إلى حد اليوم".

وهذا ما يجعل المدينة العتيقة تلفها أسرار القرون وتكثر بها الأساطير فالسكان يتداولون أبا عن جد قصصا تنبع من مئات السنوات ومن أمم خلت وتكبر ككرة الثلج ومع الأيام تصبح أساطير وخرافات بعيدة عن واقعها وحقيقتها فيتداولها الناس بقداسة وتمرر للأجيال القادمة بنفس الصيغة الأسطورية كالكثير من القصص الشعبية التي لم يتم توثيقها .

وذات صباح صامت مدلهم السّحب تتقاطر أمطاره من السّماء، مرّ كعادته جريا في مثل هذه الظروف إلى مقهى المغرب المعتاد قبالة الأقواس. سأل عن المنصف النادل إذ لم يره بالمقهى. قيل له أخذه "الرافل" إلى حيث لا أحد يعلم. صعق صديقنا الذي تعاطف معه ومع أوضاعه الإنسانية ولم يره منذ ذلك اليوم وغابت أخباره ولا يعلم عنه أي شيء وبقي جرحه النازف يعيش معه كمرض مزمن كلما دخل المقهى أو خطر بباله خياله.

في تلك السنوات رسخت وجوه كثيرة في البال، فرضت نفسها سلبا أو ايجابا وتصدرت الذاكرة الجماعية " نجحت حكومة الهادي نويرة في النهوض بالاقتصاد بفضل جملة من الإجراءات ذات الطابع الليبرالي من اهمها قانون أفريل 1972 الداعم للمؤسسات المصدرة لتبلغ نسبة النمو مالا يقل عن 12% سنة 1972. حزبيا تكتلت

حول الوزير أحمد المستيري مجموعة نادت بتحرير النظام السياسي واستطاعت بكسب الأغلبية أثناء مؤتمر الحزب الاشتراكي الدستوري إلا أن بورقيبة رفض نتائجه ونظم مؤتمر ثان عام 1974 وقع فيه رفت عدد منهم فيما استقال آخرون. في جانفي 1974 فجر بورقيبة مفاجأة مدوية بإمضائه على وثيقة إعلان وحدة تونس وليبيا لكن سرعان ما تراجع عنها مما أدّى إلى توتر علاقته بالقذافي. وفي عام 1975 وقع تغيير الدستور لتمكين بورقيبة من الرئاسة مدى الحياة فيما اصبح الوزير الأول هو خليفته الدستوري. في النصف الثاني من السبعينات وفي ظل تدهور عرضي لصحة الزعيم بورقيبة برز إضافة للهادي نويرة وزير الدفاع عبد الله فرحات ومدير الحزب محمد الصيّاح كرجال الحكم الأقوياء في مقابل شق ضم الحبيب عاشور أمين عام الاتحاد العام التونسي للشغل ووسيلة بورقيبة وبعض الوزراء المقربين منها. في خضم هذا التنافس وفي ظل ظهور توترات اجتماعية، اندلعت أحداث 26 جانفي 1978 اثر إعلان إضراب عام أسفر عن تدخل الجيش وسقوط عشرات الضحايا. شهد عام 1979 إضافة إلى انتقال مقر الجامعة العربية إلى تونس تنظيم المؤتمر العاشر للحزب الذي ادّى إلى تدعيم موقع نويرة. "[53]

[53] https://ar.wikipedia.org/

وكما أن حال السياسة لا يستقر فحال الفصول أيضا لا يستقر وقد حل شهر أفريل وهو من أجمل شهور العاصمة إنه الربيع الحق. يطول النهار ويعتدل الطقس فتمنح لصاحبنا تلك المساحة الزمنية الصباحية فيترشف قهوته على مهل في الروتوند أو في مقهى باريس كبقية وجهاء العاصمة ويتعرف على مشهوري المدينة الحالمة أدبا وموسيقى وفنونا مختلفة من رابعها إلى سابعها ويدعم ذاك الزاد اللغوي والمعرفي الذي انطلق في تهذيبه. عرفه صديقه الشاعر عبد الحميد خريف على الموسيقار محمد القرفي ذلك المبدع الشامخ ناهيك عن تلك الأسماء الواعدة في سماء الشعر والأدب كما تعرف على الإعلامي لطفي البحري والفنان محمد الجراري والشاعرين مصطفى عزوز و محمد الصغير أولاد أحمد فيما بعد وعرفه بائع الصحف والمجلات العم علي على بعض شعراء " الطليعة" وكان معجبا بشعر أحد شعراء المناجم الشاعر محمد عمار شعابنية و كتب عن ديوانه وباكورة أعماله " ألغام في مدينة بريئة" بمجلة الفكر. وكم تمنى مواصلة العمل في تونس العاصمة، ليحلّق بعيدا في عالم الكتابة والإبداع ومجال الفنون والإمتاع.

مع شهر ماي وما تبعه انطلق صديقنا وثلة من رفاقه في استكشاف الضاحية الشمالية بدءا بحلق الوادي ثم الكرم و صلامبو وقرطاج

وسيدي بوسعيد والمرسى وتوزعت عشياتهم هنا وهناك وسباحتهم أيام الآحاد في نفس هذه الشواطئ حلق الوادي و أميلكار والمرسى و رواد والزهراء في أجواء شبابية منعشة و متفائلة تلون الحياة وتزيد من بهرجتها ووهجها. أصبح ابن العاصمة فقد أخذ منها من كل شيء بطرف ور اقت في عينيه وتمكنت من وجدانه وعرف أسرارها ومكوناتها وبعضا من مفاتيح المجد فيها وبدأ يخطط لمستقبله من هناك، فالعاصمة هي مركز الثقل ومن فيها يسعى لا يتعب ولا يمل...

قدم أطروحته فنالت رضا الجميع. فرح بنتائج أعماله وبما حباه به الاطار التربوي من دعم وشكر وامتنان. وبات ليلته انسانا آخر لا يسعه الفضاء يحلق في أجواء باريس، ينشد أشعار هيقو ويتنفس أفكار روباسبيار ويجمع أزهار شارل بودولار. لقد استفاد كثيرا من سنته تلك وعرف أشياء لم يعرفها طيلة سنوات دراسته بل طيلة ما سبق من أيام حياته أنسته الظروف التي حالت دونه ودخول المعهد الأعلى لعلوم التربية أو دار المعلمين العليا وفتحت أمامه أبواب و صداقات ستوصله إلى ما يصبو إليه في طموحاته ويعانق المجد الذي حلم به طالما أن الموهبة تسكن ذاته وتصقل يوما بعد يوم... ولكن يبدو أنه من الحمق أن تعانق الحلم في بلادك إن كنت تحمل نفسا كبيرة، بدون عزيمة وصلابة وقوة إرادة، فقد تتعب في حملها وترهقها معك... لا تنتظر

الهدايا فلن تأتي وكل حلم يحقق بقوة الارادة. "وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا"...

في تلك السنوات لم تدخل قلبه أنثى وظل يعيش على أنقاض حب المراهقة الكئيب في معهد بعيد نائي بل كان حبه جارفا للكتب والمكتبات ودور الثقافة ولم يجد الوقت ليعيد الكرة أو قل لم تلامس قلبه الفكرة المرة

ولم يلبث أن رمي بصديقنا من علو شاهق، من شارع بورقيبه بالعاصمة إلى آخر نقطة من جنوب البلاد، إذ تمت نقلته إلى قصر غيلان بجهة تطاوين، وهو أصيل السباسب من الوسط التونسي، رغم جمال الجنوب ومناطقه وروعة أهاليه، تصوروا المسافة الفكرية والزمنية آنذاك من قلب العاصمة إلى قصر غيلان، من هناك إلى هناك، هذه المسافة بكل أبعادها التي سيذللها صاحبنا الذي انخرط في حلقات الكتابة والابداع ودور الثقافة ونواديها وتعرف على صحافييها و شعرائها و مثقفيها ومهد لنفسه مستقبلا مضيئا يصبو إلى الانتاج الاذاعي و الانتاج الفكري بأريحية العصر و انفتاحه. كان النظام هكذا " كما هو في كل زمن، وبكل المقاييس، أعمى لا يرى و أصم لا يسمع وفاقدا لكل الأحاسيس" يعامل الناس كأرقام بلا أرواح، لكن صديقنا الصلب المتخرج من جامعة شارع بورقيبة و أطيافه وما حوله أبى ذلك و رفض

المباشرة والانتقال وتمسك على الأقل بحقه في التدريس في بلدته وجهته وكان له ذلك بدون أية وساطة، مما كان له تأثير كبير على مساره المهني وتقلبه في عدة وظائف و مسؤوليات في صلب عدة وزارات أخرى وخاصة منها الثقافة كملحق من وزارة التربية، مباشرة بعد سنتي الترسيم، هذه التي لم تراع سنه ووضعه ومواهبه وقلة حيلته ورمته رمي حجر في أعماق الصحراء . لكنه لم ينس أبدا العاصمة وشوارعها و أنهجها و أزقتها ومقاهيها و مطاعمها و أصحابه الذين ربط معهم علاقة ود وظل يزورها أسبوعيا وكلما سمحت الظروف ولمدة طويلة ولا يرتوي من رحيقها وظلت تلك الأحداث منقوشة في ذاكرته ووجدانه يحدث بها أبناءه و أحفاده و إن دخلت طي التاريخ والتاريخ المنقوش على عارضة الوجدان لا تنطفئ جذو اته بل تزداد توهجا مع هبوب نسائم الذاكرة أو مع أقل نبش و ربش فيها.

وذات يوم عنّ له زيارة القاهرة المحروسة، بحث عن ضريح الراحل جمال عبد الناصر بمسجده أو ما يسمى بمسجد كوبري القبة الخيري وهو أحد مساجد مدينة القاهرة الحديثة الشهيرة، و يقع بمنطقة كوبري القبة بالقرب من مبنى وزارة الدفاع المصرية وجامعة عين شمس، وقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة ودعا دعوات في ظهر الغيب لصديقه "المنصف" الغائب عن الأنظار عربون ودّ ووفاء وتقدير

واعتبارا من زمنه الغدار الذي جار... كما لم ينس صديقه الشاعر عبد الحميد خريف الذي أبدع قلمه شعرا واعلاما وبجرة قلم كان خارج وزارة الاعلام...

الآن وبعد ما يزيد عن نصف قرن، من زمننا هذا، عن تلك الأحداث حكم فيها من حكم وأزيح من أزيح وذاب من ذاب وطفح من طفح وسكن الذاكرة من سكن... لا تزال قاعدة الهرم هي الضحيّة الأولى والأخيرة في كل المجالات تصفق لكل من يأتي من الحكام وتأمل في كل من يقول كلاما ناعما لا أمطار بعده كبعض الرعود والسحب الكاذبة الجوفاء.. وسنوات الأنظمة كأعمار الناس والشعوب تبدأ في عز الشباب ثم سرعان ما تشيخ وتنهار ثم تضمحل وتذوب بمقياس التاريخ ويبقى ما ينهل منه الناس في الذاكرة الجماعية وما أرخه المؤرخون...

الأمجد العثماني

تم بحمد الله.